سلسلة
دراسات نفسية إسلامية
(٧)

الفرد والمجتمع في الإسلام

اعداد
الدكتور سيد عبد الحميد مرسى

الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين
القاهرة - تليفون ٣٩١٧٤٧٠

الطبعة الأولى

١٤٠٩ هـ ــ ١٩٨٩ م

دار التوفيق النموذجية
للطباعة والجمع الآلي
الأزهر / ٣ ص رمضان الموصلي بجوار جامع الدعاء
ت : ٩٢٥٣٠٤ القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

« يا أيها النـــاس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شــعوبا وقبــائل لتعارفوا ٠٠ » ٠

(صدق الله العظيم)

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على افضل المرسلين ، سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه اجمعين .

وبعـــــد ..

ان الاسلام هو دين الوحدانية الالهية ، الذى دعا الى عبادة الله الواحد الأحد .. فليس بمسلم من أشرك غير الله فى عبادة ، أو اعتقد أن لله شبيها ، أو اعتقد ان الله تعالى متصف بما يتصف به العباد من خواص ، لأنه خالق كل شىء ، وليس كمثله شىء ، ولا يشبهه شىء . كما كان الاسلام كذلك فى العقيدة التى طهر بهـا العقول من الأوهام ، فهو دين الوحدة الانسانية جمعاء ، فالناس جميعا سواء بالنسبة للأحكام الاسـلامية ، وهو يقرر الوحدة بأصل التكوين ، فيقول سبحانه وتعالى :

« وما كان الناس الا امة واحدة فاختلفوا ، ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم فيما فيه يختلفون » . (يونس : ١٩)

ويقول سبحانه :

« كان الناس امة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وانزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، وما اختلف فيه الا الذين اوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم ، فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيـه من الحق باذنه ، والله يهـدى من يشـاء الى صراط مستقيم ». (البقرة : ٢١٣)

فكان الاتحاد فى أصل التكوين من حيث اتحاد الحاجات الفطرية والاتجاهات الانسانية سببا فى الاختلاف ، لأن الأفراد يتنازعون استجابة

لحاجات لكل منهم ورغباته ، وهنا تتنازع الشهوات والارادات الخاصة بالأفراد ٠

لذلك كان لا بد من فاصل يرسم الحدود ، ويقيد الغايات لتتلاقى فى خط مستقيم دون انحراف أو تقاطع ، بحيث يكون لكل واحد خط مواز لخط أخيه ، وكل الخطوط تنتهى الى خدمة الجماعة الانسانية ، وبذلك تتحد الغايات والأهداف ٠ وذلك الخط الفاصل هو الكتاب المنزل من عند الله تعالى الذى يبين رسالته الى خلقه ، ولذلك جاء كل رسول من رسل الله تعالى بكتاب يبين الحق ويهدى اليه ٠ وقد قال سبحانه فى ذلك :

« لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ٠٠ » ٠ (الحديد : ٢٥)

ولقد جاء الاسلام فجمع الانسانية حول القرآن الكريم ، وفيه خلاصة كل الأديان السماوية ، فدعا الناس جميعا دعوة عامة للخضوع للخالق سبحانه وعبادته وحده ٠ ولذلك خاطب الناس أجمعين ، فقال تعالى :

- **« يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون » ٠** (البقرة : ٢١)
- **« يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا اليكم نورا مبينا » ٠** (النساء : ١٧٤)
- **« يا ايها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين » ٠** (يونس : ٥٧)

وهكذا نجد النصوص القرآنية الكثيرة تخاطب الانسانية بأحكام الاسلام ، لا فرق بين كبير وصغير ، أو أبيض وأسود ، أو غنى وفقير ، فالجميع مخاطبون بتلك الأحكام الاسلامية ٠

والمجتمع فى الاسلام مجتمع معنوى ، أى أن العلاقات الاجتماعية فيه تبنى على الروابط الانسانية من تواد وتراحم لا على أساس العلاقات المادية فقط ، ولذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مثل المؤمنين

فى توادهم وتراحمهم ، كمثل الجسد اذا اشـتكى عضو منه تداعى لـه سائر الجسد بالسهر والحمى » (رواه البخارى) ٠

ولا شك أن العلاقات المعنوية التى تقوم على المودة والرحمة هى التى يقوم عليها بنيان الجماعات الانسانية ، وهى الروابط التى تربط الأفراد بعضهم بالبعض الآخر ٠ أما المجتمع المادى المبنى على الاقتصاد فمثله كالأحجار المتراصة التى يجاور بعضها بعضا من غير ارتباط وثيق بين أجزائها ، ولا يمكن أن يكون متلاحما متصلا ٠ ولكن المجتمع المعنوى يقوم على أساس من العلاقات الروحية التى تربط بين أجزائه ، وهو متماسك غير قابل لأن تتداعى لبناته ، لأنه مترابط الأجزاء بما لا يقبل الانقطاع ما دام يغذى بالروح وبالدين ٠

وقد عمل الاسلام على اقامة ذلك المجتمع الفاضل فى كل الأرض ، لأنه دين عام يخاطب الانسانية كلها ٠٠ وكان من ذلك محاربته للأوهام وللأخيلة الفاسدة ، كما كانت دعوته الى الوحدة الانسانية العامة من الذرائع لايجاد مجتمع فاضل ، وكان منها دعوته العامة للانسانية ثم كانت شريعته العادلة ٠٠ بيد أنه لا بد من تربية النفوس ، وتربية الجماعات ، ليتكون من ذلك الاجتماع الانسانى مجتمع متآلف متحاب غير متنافر ولا متناقض ٠٠ أن المجتمع الفاضل لا بد له من أمرين : أحدهما لتربية الضمير ، والثانى لحماية هذا المجتمع ٠

والعبادات كانت لتربية الضمير الانسانى حتى يأتلف المؤمن مع غيره ، ويرتبط به ارتباطا روحيا ، وللاحساس بالاطمئنان اذا كان الفرد متذكرا الله تعالى ، كما قال سبحانه : « **الذين آمنـوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ، ألا بذكر الله تطمئن القلـوب** » ٠ (الرعد : ٢٨)

وليست العبادات فى الاسلام مقصورة على الصلاة والصوم والزكاة والحج ، فان كل عمل يقصد به وجه الله تعالى والقيام بحق الناس استجابة لطلب الله تعالى باصلاح الأرض ومنع الافساد فيها يعتبر عبادة ٠ فالعامل الذى يخلص فى عمله ويقوم بواجبه مرضاة لله سبحانه وتعالى واستجابة

لأمره يعد فى عبادة مستمرة ، ومن يعمل عملا ينتفع منه الناس يقـــدم صدقة يثاب عليها . قال تعالى :

● « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره » . (الزلزلة : ٧)

● « انـــا لا نضيع اجر من أحسن عملا » . (الكهف : ٣٠)

● « .. فنعم أجر العاملين » . (الزمر : ٧٤)

● « ولكل درجات مما عملوا ، وليوفيهم اعمالهم وهم لا يظلمون » . (الأحقاف : ١٩)

ومن الحديث النبوى الشريف :

ـ « طلب كسب الحلال فريضة بعد الفريضة » . (رواه الطبرانى)

ـ « من امسى كالا من عمل يده امسى مغفورا لـــه » . (رواه احمد)

ـ « ان الله يحب العبد المحترف ، ومن كد على عياله كان كالمجاهد فى سبيل الله عز وجل » . (رواه احمد)

ـ « ان الله يحب اذا عمـــل احدكم عملا أن يتقنـــه » . (رواه البيهقى)

ان العبادات غذاء الأرواح ، وبها يتقوى الضمير الاجتماعى ويعلو ، ولكنه يكون كالبذرة الصالحة لا تحيا حياة طيبة الا فى تربة تغذيها وفى جو ينميها . والجو الصالح لتنمية ما تبذره العبادة فى النفس والتربة الصالحة للانبات بالنسبة للضمير ، هو الراى العـــام الفاضل .. فالراى العام هو الذى يحمى أصحاب الوجدان الطيب من الأشرار . والراى العـــام يقوى الوجدان الفاضل ، ويوجد رقابة ذاتية ورقابة على كل من تسول له نفسه الاثم أو العدوان . فلا ينمى تهذيب الأفراد الا راى عام فاضل يعمل على نصرة الفضيلة ومحاربة الرذيلة . ولذلك عمل الاسلام على تكوين راى عام فاضل يقوم المعوج ويسير بالمجتمع فى خط مستقيم .

وأول أمر اتجه اليه الاسلام فى تكوين راى عام فاضل هو الأمر

بالمعروف والنهى عن المنكر ۰ فاوجب على الأمة مجتمعة ان يكون من بينها من يتولى الارشاد العام ، ليمتنع الأشرار عن شرورهم ويسير الخير فى مجراه ۰ ولقد وردت النصوص القرآنية للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، قال تعالى :

● « **ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويامرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون** » ۰ (آل عمران : ١٠٤)

● « **كنتم خير امة اخرجت للناس تامرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله** ۰۰ » ۰ (**آل** عمران : ١١٠)

وفى سبيل تكوين رأى عام فاضل حث الاسلام على الحياء ، لأنه أساس الائتلاف بين الأفراد ، فهو يحمل المرء على الا يظهر منه الا ما يقبله الناس ولا ينفر منه الذوق السليم ۰ ولقد أوصى الاسلام بالحياء ، وجعل هذا الخلق السامى من الصفات البارزة التى يتميز بها المسلم ۰ وكان رسول الله ﷺ ارق الناس طبعا ، وانبلهم سيرة ، واعمقهم شعورا بالواجب ، ونفورا من الحرام ۰ فعن ابى سعيد الخدرى **قال** : « كان رسول الله ﷺ اشد حياء من العذراء فى خدرها ، وكان اذا رأى شيئا يكرهه عرفناه فى وجهه » ۰ (**متفق** عليه)

وعن رسول الله ﷺ قال :

ـ « **ان لكل دين خلقا** ، وخلق الاسلام الحياء » ۰ (رواه مالك)

ـ « **الحياء من الايمان والايمان** فى الجنة ، والبذاء من الجفاء والجفاء فى النار » ۰ (رواه أحمد)

* * *

وبعد ۰۰

فى اطار هذه المفاهيم الاسلامية عالج الكاتب موضوع « الفرد والمجتمع فى الاسلام » ۰۰ فاختص الفصل الأول بمناقشة موضوع « نحو علم اجتماع اسلامى » حيث عرض التطور التاريخى لمفهوم الطبيعة الانسانية ، ومفهوم العلوم السلوكية ، ومفهوم علم الاجتماع ، والتغير الاجتماعى والثقافى ، والتنمية الاجتماعية ، ومفهوم علم الاجتماع الاسلامى وأهدافه ومجالاته ۰۰

واستكمالا لهذه المناقشةقدم الكاتب فى الفصل الثانى « رواد الفكر الاجتماعى الاسلامى » ·· فأبرز أهم الملامح السوسيولوجية لفكر هؤلاء الرواد وهم : الفارابى ، والغزالى ، وابن مسكويه ، والبيرونى ، وابن خلدون · واستكمل العرض بحديث مختصر عن ابن حزم ، وابن سينا ، وابن الهيثم ، والمسعودى ، وابن بطوطة ·

واختص الفصل الثالث بمناقشة « الفرد المسلم » ·· فتعرض للفرد فى اطار المجتمع ، والفردية فى الاسلام ، واخلاق الفرد المسلم وسلوكه ·

وانتقل الكاتب فى الفصل الرابع لمناقشة « الجماعة المسلمة » ·· فأوضح مفهوم الجماعة وخصائصها وتصنيفها ، واهداف الجماعة ، وتماسك الجماعة ، وتماسك الجماعة الاسلامية ، وبناء الجماعة ، والبناء الاسلامى للجماعة ، والأسرة عامة ·· وفى الاسلام بصفة خاصة ·

واختص الفصل الخامس بمناقشة « المجتمع المسلم » ·· فتعرض لمفهوم المجتمع عامة ، ومفهوم المجتمع الاسلامى خاصة ، وخصائص المجتمع الاسلامى ، ومقومات المجتمع الاسلامى ، والمعاملات بين الأفراد فى المجتمع الصالح ·

واختص الفصل السادس بمناقشة « العمليات الاجتماعية » ·· فأوضح مفهوم التفاعل والعملية الاجتماعية ، ثم انتقل الى مناقشة العمليات الاجتماعية المختلفة من منظور اسلامى وهى : التنشئة الاجتماعية ، والتعاون ، والتنافس ، والتكيف الاجتماعى وعملية الاتصال ، والضبط الاجتماعى ·

وفى الفصل السابع « الخاتمة » ، ناقش الكاتب موضوع « العدالة الاجتماعية فى الاسلام » ليكون مسك الختام ··

والله الموفق ، وهو الهادى الى سواء السبيل ·

جدة ــ جمادى الأولى ١٤٠٧ هـ (يناير ١٩٨٧ م) ·

دكتور سيد عبد الحميد مرسى

* * *

الفصل الأول

نحو علم اجتماع إسلامى

● مــدخل :

لم يشهد العالم من قبل مثل ما يشهده عصرنا الحاضر من صراع فى الأفكار والآراء والاتجاهات ، سواء أكان ذلك فيما بين الأفراد أو الجماعات أو الدول ، كما لم يبلغ الصراع العالمى فى أية مرحلة من مراحل التاريخ ما بلغه اليوم من حيث انتشاره وشموله . وفى الوقت ذاته نجد أن فهم الانسان للظواهر والقوانين الطبيعية قد بلغ شأنا كبيرا .. ذلك أن الانسان قطع شوطا بعيدا فى سبيل التحكم فى البيئة المـادية ، فأخضع لسلطانه قوى وطاقات طبيعية ، فسخر الأرض والمـاء والهواء لخدمة أغراضه ثم انطلق يغزو الفضــاء .

ومع ذلك ، فالبقدر الذى يزداد به تقدم الانسان فى الكشف العلمى فى مجال العلوم الطبيعية .. بهذا القدر ذاته يزداد قلق الانسان وخوفه ويشتد ضيقة ويتعاظم تبرمه بالحياة ، كما يزداد توجسه من غيره من بنى جنسه وخوفه منهم وحقده عليهم . ان العالم اليوم أشبه بمريض نفسى يهزه الخوف ويبدده القلق ، وكثيرا ما نجد أن سلوكه ازاء هذا الخوف والقلق يــؤدى الى تدعيم الخوف والقلق ذاتهما . ان أعظم مشكلات الانسان شـــدة وأكثرها خطرا هو الانسان ذاته .. فمن المفارقات الغريبة فعلا أن يتقدم الانسان بهذه السرعة المذهلة فى محاولة فهم أسرار الطبيعة والتحكم فيها ، وأن يظل فى الوقت نفسه عاجزا هذا العجز الظاهر عن فهم ذاته والتحكم فيها .. أى فى مصيره .

لقد تردد الانسان طويلا فى محاولة اخضاع الدراسات المتصلة بالطبيعة

البشرية والسلوك الانسانى لنفس الأسلوب الذى استخدمه فى دراسة الطبيعة المادية ، متذرعا بأن الانسان هو الذى يقوم بدراسة البيئة المادية ويسيطر عليها ، واذن فهو أرقى منها وأسمى ، ومن هنا لا يستسيغ أن يطبق فى دراسة ذاته نفس الأسلوب الذى يطبقه فى دراسة البيئة المادية ، وهو القائم على الملاحظة والتجريب العملى . وهكذا أصبح ميدان البحث فى المسائل الانسانية مقصورا على التأملات الفكرية المجردة ، وقائما على المفاهيم الفلسفية ..

ومن هنا تأخر الانسان فى تطبيق أساليب التفكير العلمى ومنهج البحث العلمى فى دراسة دوافع سلوك الانسان وعاداته واتجاهاته وقيمه . ومما ساعد على استمرار هذا الوضع بالنسبة لدراسة السلوك الانسانى أن ارتباط الانسان بالقيم والعقائد والأفكار التى تتعلق بذاته وبحياته هى أشد عمقا من ارتباطه بالأفكار والعقائد والقيم المتصلة بالظواهر الطبيعية . ولذا كان طبيعيا أن يكون تحرر الانسان من هذه الاتجاهات التقليدية التى تتعلق به أصعب من تحرره من تلك التى تتعلق بالبيئة المادية . وعلى ذلك فاننا نجد أن ميدان العلوم الطبيعية قد تحرر منذ فترة طويلة من تلك الأفكار التقليدية التى عفا عليها الزمن وتقدمت تلك العلوم ونمت ، بينما لا تزال مثل هذه الأفكار تجد ملاذا ومرتعا خصبا فى مجال العلوم الانسانية . وقد أدى هذا الى صعوبة تغلب الانسان على كثير من المشكلات الاجتماعية الملحة التى تواجهه ، وأصبح لزاما عليه ـ فى ظل الظروف العصيبة التى التى تمر به فى عصرنا الحاضر ـ أن يعيد النظر فى المفاهيم المتعلقة بالعلوم الانسانية ومناهج البحث المتعلقة بها .

ولعل الحاجة الى اعادة النظر فى تلك المفاهيم ومناهج البحث هى التى دعت الكثير من الجامعات والمعاهد العلمية ومراكز البحوث والمنظمات الدولية الى توجيه عناية خاصة الى تلك العلوم ، بقصد اعادة النظر فيها وتحريرها من كل ما سادها من مفاهيم خاطئة سيطرت على تفكير الكثيرين . وعلى ذلك فقد كثرت الدراسات وتعددت البحوث السلوكية التى تستند الى

أسس علمية ، بقصد تنقية هذه المفاهيم من الشوائب التى علقت بها وتطوير مناهج البحث فى العلوم الانسانية(١) ٠

***

التطور التاريخى لمفهوم الطبيعة الانسـانية

من الأمور المألوفة أن يهتم الانسان فى كل معاملاته مع غيره بفهم دوافع سلوكهم وتصرفاتهم المحتملة أو المتوقعة فى المواقف المختلفة ٠ اننا جميعا بحاجة الى أن نحدد تعاملنا مع غيرنا من الأفراد بحسب ما نتوقع من قبولهم ورضاهم ، أو عدم قبولهم وسخطهم على ما نفعل أو نقول ٠٠ فالصديق يحاول أن يرضى صديقه بعمل ما يرضيه ويريحه ، والبائع يحاول أن يجذب عميله بما يعرفه من صفات العميل وشخصيته فيبذل جهده للتأثير عليه حتى يقبل على شراء سلعته ٠ والأب يحاول ان يتعرف على شخصيات ابنائه وما يسرهم وما يضايقهم فيعمل على التعامل معهم بالشكل الذى يؤدى الى توجيههم وحسن تنشئتهم ، وهكذا ٠٠ فكل منا بحاجة الى فهم اتجاهات الأفراد والجماعات وعاداتها حتى نتعامل معها على احسن وجه ٠

وهكذا نجد أنه حينما يجتمع الانسان بأخيه الانسان ، فان العلاقات الانسانية ومشكلات السلوك الاجتماعى تصبح من الأهمية بمكان ٠ فليس بالعجيب اذن أن نجد سلوك الفرد والجماعة والسلوك الاجتماعى ودوافع هذا السلوك وأساليب تكوينه وتنميته وتعديله والظروف الملائمة لكل هذا ، وكذلك انحرافه وما قد يواجهه من مشكلات ــ كل ذلك قد شغل اذهان المفكرين منذ أقدم العصور ٠ وسوف نعرض فيما يلى موجزا لوجهات النظر الأساسية فى الطبيعة الانسانية وتفسير السلوك الاجتماعى(٢) :

ــ اقترح « أفلاطون » منذ أكثر من ألفى سنة فى كتابه « الجمهورية » نظاما اجتماعيا مثاليا لتحقيق العدالة ٠ وكان قوام هذا النظام وضع كل

---

(١) سيد عبد الحميد مرسى ، **العلوم السلوكية فى مجال الادارة والانتاج** (ط ٢) ، القاهرة ــ مكتبة وهبة ، ١٩٨٤ ، ص ١٣ ــ ١٤

(٢) نجيب اسكندر ابراهيم وآخرون ، **الدراسة العلمية للسـلوك الاجتماعى** ، القاهرة ــ مؤسسة المطبوعات الحديثة ، ١٩٦٠ ، ص ٢ ــ ١٢

فرد من أفراد المجتمع فى المكان الذى يلائم استعداداته وامكاناته الفطرية ٠ ومعنى هذا أن «أفلاطون» أقام النظام الاجتماعى لجمهوريته على أساس منطقى نابع من فكرته عن الطبيعة البشرية وعن السلوك الاجتماعى ٠ وقد استهدف بهذا النظام أن يتحقق أمن الفرد من خلال تحديد العلاقات الاجتماعية بين طبقات المجتمع ، وبذلك يتحقق الاستقرار وتكفل العدالة للمجتمع ، لأن كل طبقة سوف تعمل جهد طاقتها فى المجال الذى يناسب طبيعتها ٠ وهكذا نجد «أفلاطون» قد جعل الفطرة أو الطبيعة الفطرية للانسان هى قوام النظام الاجتماعى ٠

وجدير بالذكر أن «أفلاطون» كان فيلسوفا من طبقة الأشراف عاش فى مجتمع طبقى ، وكان طبيعيا أن يحرص على ابقاء الوضع الطبقى الذى يحقق مصلحة طبقته وبالتالى مصلحته الخاصة ٠

ـ فاذا جاوزنا « أفلاطون » الى « أرسطو » نجد أنه قريب الشبه بأفلاطون ، فهو وارث مجتمع اغريقى عبودى ، وقد نظر الى طبيعة الانسان على أنها طبيعة فطرية هى أساس سلوكه الاجتماعى ٠ وقد عبر عن تأثره بالأوضاع الطبقية للمجتمع الذى عاش فيه بشكل واضح عندما قال : « ان أناسا يولدون عبيدا بالفطرة ، وأنهم يشكلون قطاعا اجتماعيا لا يصلح الا للانتاج ، مثلهم فى خدمة المجتمع مثل الآلات أو السائمة » ٠

ـ واذا انتقلنا الى « العصور الحديثة » نجد أن المفكرين والفلاسفة فى هذه العصور قد حاولوا أن يسبروا غور العلاقات الاجتماعية ، وأن يفسروا السلوك الاجتماعى تفسيرا يتفق وما يتبنون من مذاهب فكرية واتجاهات فلسفية ٠٠ فنجد « توماس هوبز » مثلا وهو من نتاج عصر النهضة ـ أى عصر التجارة والحكم الملكى المطلق فى القرن السابع عشر ـ يفسر الحياة تفسيرا ماديا ، فيفسر العلاقات الانسانية والسلوك الاجتماعى على أساس مفهومه عن الطبيعة الفطرية للانسان ٠ وهذه الطبيعة الفطرية ـ فى نظره ـ حياة فردية فقيرة أنانية ، قوامها حب الذات ، ومن ثم فهو يرى أن جوع الانسان وعطشه وخوفه ودوافعه وسعيه وراء اللذة وهربه من الألم ـ كل أولئك هى الخصائص التى تحدد علاقات الانسان بغيره من

الناس ، أى تحدد سلوكه الاجتماعى ·· وبعبارة أخرى يذهب « هوبز » الى أن الناس ما عاشوا معا وما كونوا مجتمعات الا بقصد اشباع حاجاتهم الفردية وتجنب المخاطر التى تحدق بهم ، أى أن نشأة المجتمع الانسانى وتطوره وتقدمه انما تقوم على أساس الخوف وحب الذات ·

ـ ويقترب « سبينوزا »(٣) فى القرن السابع عشر من رأى « هوبز » ، فيعتبر أن الانسان فى مبدأ حياته كان يعيش فى حالة عزلة نسبية بدون قانون أو تنظيم اجتماعى ، وأنه كان خاضعا فى سلوكه وتصرفاته لأهوائه الذاتية ومصالحه الخاصة ، ولم يكن لديه فى عزلته معنى أو معايير للصواب والخطأ أو العدالة والظلم ، وانما كانت القوة أو الحق أو الغلبة عنده شيئا واحدا · وفى رأيه أن التنظيم الاجتماعى هو نتاج خوف الانسان وما يتعرض له من أخطار ومكاره ، وأن التنظيم الاجتماعى يبدأ بعد هذا فى تنمية الغرائز الاجتماعية وتدعيمها ، كما أوضح أن التنظيم الاجتماعى يقوم على أساس الاتجاهات التى يرضى عنها جميع الأفراد · وهكذا نرى « سبينوزا » يتجه نحو الديمقراطية ، بخلاف « هوبز » الذى كان من دعاة الحكم الملكى المطلق ، وان كان الأساس الذى بدأ به « سبينوزا » فيما يتعلق بالطبيعة الانسانية مشابها الى حد كبير للأساس الذى بدأ به « هوبز » ·

ـ وفى القرن الثامن عشر ، وهو الذى يطلق عليه « عصر الاستنارة » نجد فيلسوفا آخر تتحدد فلسفته الى حد كبير بنوع الحياة التى عاشها ، وبالخبرات التى تعرض لها ، والتى كان يعانيها غالبية أفراد الشعب ·· ذلك الفيلسوف هو « جان جاك روسو » الذى يعتبره البعض القائد الفكرى للثورة الفرنسية · فلقد أحس « روسو » باحساس عامة الشعب ، فثار على طغيان الطبقة الحاكمة ، وعلى الظلم والاستبداد اللذين تميز بهما الحكم فى عهده ، كما ثار على التقاليد التى فرضتها الطبقة الأرستقراطية آنذاك ·· فأعلن عن رأيه فى نظام الحكم بأنه تعاقد اجتماعى بين الحاكم

---

(٣) Durant, W.; **The Story of Philosophy**. (New York : Pocket Books, 1953) , pp . 190 - 191.

والمحكوم ، وبأن من حق الشعب أن يسحب ثقته بالحاكم وأن يقيله من منصبه • واعتبر « روسو » أن الانسان خير بطبيعته ، وأن النظم الاجتماعية الفاسدة هي التي تفسد الانسان • ومعنى هذا أن « روسو » قد افترض أن مصدر الشر خارج عن الفرد ، أى فى المجتمع ذاته ، وان الطبيعة الانسانية فى ذاتها خيرة ، وأن الفرد اذا ترك لطبيعته ، أى لغرائزه ، فانه ينمو نموا سليما ويصبح محبا للخير • والمغزى هو أن « روسو » قد نظر الى الانسان والى المجتمع نظرة فردية ، فيها ثورة على الظروف الاجتماعية السيئة التى عاشها وعانى منها •

واذا تأملنا ما سبق ذكره من الأمثلة التى أوردناها نستخلص أن نظرة المفكر أو الفيلسوف الى الطبيعة الانسانية أو السلوك الاجتماعى كانت تشتق من واقع الظروف الاجتماعية التى تكتنفه بوجه عام ، كما أنها كانت تتأثر بالظروف الخاصة التى تحيط به •

ـ ولقد تطور التفكير فى القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر نتيجة لانتشار قواعد الطريقة العلمية بوجه عام ، فأدى ذلك الى البدء فى استخدام هذه الطريقة فى كثير من ميادين البحث ، وبدأت العلوم الاجتماعية يستقل بعضها عن البعض الآخر كما أن معالمها قد أخذت تتحدد بالشكل الحديث التى هى عليه • ولكن نقطة البداية فى تلك البحوث ـ وخاصة فى العلوم السلوكية ـ كانت متأثرة الى حد كبير بالمسلمات السابقة عن الطبيعة الانسانية ، بما فى ذلك المعتقدات الدينية التى انحدرت من القرون الوسطى ، وبما احتوته تلك المسلمات من مفارقات ومتناقضات فى الآراء والاتجاهات • وكان من أثر ذلك أن وجد الباحثون فى الطبيعة الانسانية صعوبة كبرى فى التوفيق بين الاتجاهات والآراء والمسلمات المتنوعة كثيرة العدد •

ـ ثم كانت نظرية « دارون » فى القرن التاسع عشر ، التى تعتبر من أكبر العوامل التى تركت أعمق الأثر فى توجيه التفكير الانسانى بصفة عامة وفى الموضوعات المتعلقة بأصل الانسان وبسلوكه بصفة خاصة • فقد أدت هذه النظرية الى حركة ثورية فى العلوم البيولوجية ، وكان لا بد لها أن

تترك أثرها فى تفكير الفلاسفة والمفكرين فيما يختص بالطبيعة الانسانية ٠ ومن رأى « داروين » أن الانسان لديه بعض الغرائز التى يشترك فيها مع الحيوان مثل المحافظة على الذات ٠ وقد حاول « داروين » أن يفسر النزعات الاجتماعية للانسان على أساس نظريته فى الغرائز التى تحدد علاقة الانسان بغيره ، وهى نزعات غير مكتسبة مثل الاهتمام الأبوى والمساعدة المتبادلة والاهتمام بصحبة الآخرين واللذة فى الاجتماع بهم ٠ وقد فسر « داروين » السلوك الخلقى على هذا النحو أيضا فاعتبر القيم نزعات موروثة ٠

وتعتبر نظرية التطور التى جاء بها « داروين » ذات أهميـة خاصة فى المدخل الى دراسة السلوك الانسانى ، اذ أنها وضعت الانسان ـ بما فى ذلك أكثر سماته علوا وتعقيدا ـ فى المجال الطبيعى ٠ وكان من نتيجـة استخدام الأسلوب العلمى فى دراسة السلوك الانسانى بشتى صوره أن أصبح ينظر الى الأخلاق مثلا على أنها أنماط سلوكية بدلا من كونها قيما مجردة ، كما صار التغير أو النمو فى القيم الخلقيـة يفسر على أنه وسـيلة تساعد الانسان فعلا فى صراعه من أجل البقاء ٠

ـ وقد أثرت هذه الاتجاهات فى طرق التفكير بصفة عامة ، وفى الطبيعة الانسانية والسلوك الانسانى بصفة خاصة ٠٠ وخلاصة القول هى أن اتجاهات الدراسة فى الطبيعة الانسانية والسلوك الانسانى قد تنوعت طرقها وصورها ، وكان من نتيجة ذلك أن تعددت وجهات النظر فى علم النفس فى أواخر القرن المـاضى ومطلع القرن الحالى ، فأضحت كل وجهة نظر تمثل مدرسة فكرية فى علم النفس محددة المعالم ، وكان لكل مدرسة مسلماتها ونظرياتها وتجاربها وأتباعها ٠٠ فهذه « نظرية تركيبية » لتحليل الشعور والحالات الشعورية ، وتلك « نظرية وظيفية » تهتم بوظيفة العملية السيكلوجية قبل الاهتمام بالتركيب ٠ وثالثة « نظرية ترابطية » تفسر السلوك الانسانى على أساس الفعل المنعكس مع ادخال التفسيرات العقلية التى تتوسط المثير والاستجابة ٠ ونظرية رابعة باسم « النظرية السلوكية » هاجمت التفسيرات العقلية واعتبرتها تفسيرات غيبية لا تتفق مع الاتجاه العلمى ٠ وصاحب ذلك قيام « نظريات الغرائز » معتمدة على الأساس الفلسفى الذى وضعه « روسو » فى القرن الثامن عشر ثم على

ما ذكره « دارون » فى كتابه « نشوء الانسان » فى القرن التاسع عشر ، وقد هوجمت هذه النظرية بشدة حتى اختفت أو كادت تختفى من ميدان التفسيرات العلمية للسلوك ٠

وقد أسهم الطب النفسى فى تطور الدراسات النفسية والسلوكية ٠ وأدى ذلك الى أن وضع « فرويد » نظريته فى التحليل النفسى ، وهى نظرية لهــا أهميتها وقيمتها ولا زالت تحتل مكانة كبيرة خاصة بها ، وان لم تخل أيضا من النقد الموجه اليها حتى من تلاميذ « فرويد » الذين انشقوا عليه أمثال « ادلر » و « يونج » ٠ وقامت فى ألمانيا فى الوقــت نفســه « نظرية الجشطلت » التى استعانت بمفهوم المجال فى الطبيعة لتفسير السلوك الانسانى ٠٠

وما يعنينا فى هذا الشأن هو أن كل نظرية قد تأثرت بالظروف والمعالم الاجتماعية التى سادت المجتمع وقت ظهورها ٠ وأصبحت المشكلة هى التوفيق بين هذه النظريات والخروج منها باتجاهات موحدة ونظريات عــامة ٠٠

* * *

مفهوم العــلوم السلوكية(٤)

يعتبر مصطلح العلوم السلوكية من الاضافات الحديثة الى العــلوم الانسانية ، حيث شــاع استخدامه فى الســنوات الأخيرة ليعبر عن مجموعة من المبــادىء والمفاهيم الأســاسية التى تستهدف تفســير الســلوك الانسانى ووضع أسس التنبؤ به والسيطرة عليه ٠ ولقد استقر العرف العلمى على تقسيم فروع المعرفة الانسانية المختلفة الى قسمين أساسيين هما :

أولا ـ العلوم الطبيعية : وتختص بدراســـــة ظواهر الطبيعة المــادية وتحليلها ومحاولة التوصل الى مفاهيم واضحة تفسر نشأة تلك الظواهر ٠ وتعلل التغيرات والتطورات التى تطرأ عليها ٠ وتضم هذه المجموعة علوم الطبيعة والكيمياء والجيولوجيا ، كما تشمل العلوم التى تدرس التركيب

(٤) سيد عبد الحميد مرسى ، **مرجع سابق** ، ص ٢١ ــ ٢٨

الفسيولوجي وتحليل التطورات البيولوجية للانسان مثل علوم التشريح ووظائف الأعضاء ٠

ثانيا ـ العلوم الاجتماعية (الانسانية) : وتختص بدراسة وتحليل الظواهر الاجتماعية التى تنشأ بحكم حياة الانسان فى جماعات تتفاعل سعيا وراء تحقيق أهداف فردية وجماعية ٠ وتضم العلوم الاجتماعية عادة المجالات الآتية من المعرفة الانسانية : الأنثروبولوجيا (علم الانسان) ، الاقتصاد ، التاريخ ، العلوم السياسية ، علم النفس ، علم الاجتماع ، والتربية ٠

ومن الواضح أن هذا التقسيم لا يقيم حدودا فاصلة وقاطعة بين فروع المعرفة الانسانية نظرا لما تتصف به كل من الطبيعة المادية والانسانية من تعقيد وتشابك ٠ لذلك نجد درجات مختلفة من التداخل بين العلوم الطبيعية والاجتماعية وبين العلوم المكونة لكل من المجموعتين فيما بينها ٠ مثال ذلك أن علم النفس وهو من العلوم الاجتماعية يتداخل مع بعض العلوم الطبيعية حين يسعى الى دراسة تركيب المخ الانسانى ومحاولة البحث عن أسباب بعض مظاهر السلوك الانسانى ومحدداته فى التركيب الفسيولوجى للفرد وهو ما يعرف باسم « علم النفس الفسيولوجى » ، ودراسة مراحل نمو الفرد من النواحى العضوية والعقلية فى « علم النفس التعليمى » وكذلك نجد تداخلا بين علم النفس والعلوم الطبيعية حين يحاول علماء النفس التعرف على تأثير بعض الظواهر الطبيعية كالصوت والضوء فى ادراك الأفراد ومدى شعورهم بالتغيرات البيئية وانعكاس ذلك الادراك على السلوك الانسانى ٠ وكذلك نجد فى محيط العلوم الاجتماعية تداخلا بين العلوم السياسية وعلم التاريخ ، أو بين علم الاقتصاد وعلم الاجتماع أو بين علم النفس وعلم الاجتماع أو بين التربية وعلم النفس وعلم الاجتماع ٠

وقد استقر رأى كثير من الكتاب فى مجال العلوم السلوكية على تحديدها فى أربعة من فروع المعرفة الانسانية هى :

١ ـ علم النفس ٠ ٢ ـ علم الاجتماع ٠

٣ ـ علم الأنثروبولوجيا ٤ ـ التربية ٠

والصفة الأساسية التى تميز تلك العلوم الأربعة هى اهتمامها بدراسة سلوك الناس وتصرفاتهم فى مختلف المواقف والظروف · أى أن ما يجمع بين العلوم السلوكية ويبرر فصلها فى مجموعة متميزة عن باقى العلوم الاجتماعية هو انها تتخذ موضوعا مشتركا للبحث والدراسة هو « السلوك الانسانى » ·

أن السبب فى اطلاق صفة « السلوكى » على أى من العلوم الاجتماعية أن يتوافر فيه شرطان : الأول أن يكون مجال دراسته هو السلوك الانسانى فى أى مظهر من مظاهره ، بمعنى أن يكون العلم مهتما اهتماما رئيسيا بتفسير مظاهر السلوك الانسانى والتنبؤ بأوضاعه المستقبلية · أى أن يكون الهدف هو تقديم تفسير واضح للأسباب والعوامل المحددة للسلوك الانسانى بشكل عام أو لفئة من الناس أو فى ظل ظروف بيئية واجتماعية معينة ·

والشرط الثانى هو أن تتم دراسة السلوك الانسانى باستخدام « الأسلوب العلمى » · وتتضح مظاهر الاتجاه العلمى فى نشاط الانسان فى مجالات الحياة المختلفة · فالهدف النهائى للعلوم السلوكية هو فهم أشكال السلوك الانسانى المختلفة وتفسيرها ومن ثم يستخدم هذا الفهم أساسا للتنبؤ بالسلوك المستقبل والتحكم فيه والسيطرة عليه ، بمعنى توجيهه ناحية معينة بدلا من الاتجاه المتوقع ·

نخلص مما تقدم بأن تعبير « العلوم السلوكية » يشير الى تلك الفروع من علم النفس والاجتماع والأنثروبولوجيا والتربية التى تهتم بدراسة السلوك الانسانى مستخدمة الأساليب والطرق العلمية التى تعكس بشكل مباشر سلوك الأفراد والجماعات ·

وسنتناول الآن الموضوعات الأساسية لكل علم من العلوم السلوكية وأبراز نقاطها الأساسية :

أولا ـ علم النفس :

علم النفس هو أحد العلوم السلوكية التى تسعى لتفهم حقيقة السلوك الانسانى ومسبباته ، وتتلخص موضوعاته ومجالات البحث فيه فى الآتى :

١ ـ الوراثة والبيئة وأثرهما فى سلوك الفرد ٠
٢ ـ التنشئة الاجتماعية ٠
٣ ـ مراحل النمو وخصائصها ٠
٤ ـ النضــج العقلى ٠
٥ ـ الدوافــع ٠
٦ ـ الانفعالات ٠
٧ ـ الفروق الفردية وأهميتها كمحددات للسلوك ٠
٨ ـ القدرات العامة وقياسها ٠
٩ ـ القدرات الخاصــة وقياسها ٠
١٠ ـ الميول والاتجاهات وقياسها ٠
١١ ـ الشخصية ومكوناتها وقياسها ٠
١٢ ـ الادراك والفهم والتفكير ٠
١٣ ـ التعــــليم ٠
١٤ ـ تطبيقات علم النفس فى المجالات التعليمية والمهنية والاجتماعية ٠

وهناك فروع نظرية وفروع تطبيقية لعلم النفس ٠ فتتضمن الفروع النظرية : علم النفس المقــارن (علم نفس الحيــــوان) ، وعلم النفس الفسيولوجى ، وسيكولوجية النمو (علم نفس الطفل) ، وعلم نفس الشواذ أو علم النفس المرضى ٠ وتشــتمل الفروع التطبيقيــة على : علم النفس الاجتماعى ، وعلم النفس التربوى (التعليمى) ، وعلم النفس الصناعى ، وعلم النفس المهنى ، وعلم النفس العسكرى ، وعلم النفس الاكلينيكى (العلاجى) ، وعلم النفس الادارى ، وعلم النفس الارشادى ٠

* * *

ثانيا ـ علم الاجتماع :

هو ذلك العلم الذى يدرس الانسان فى علاقته بالبيئة التى تحيط به بعنصريها الانسانى والطبيعى • ونقطة التركيز فى علم الاجتماع هى دراسة أنواع العلاقات التى تنشأ بين الأفراد المختلفين ، فهو يركز على دراسة العلاقات الاجتماعية أو التركيب الاجتماعى وغيره من الظواهر الاجتماعية وتتلخص أهم مجالات البحث فى علم الاجتماع فيما يأتى :

١ ـ دراسة المجتمع •

٢ ـ طبيعة التفاعل الاجتماعى :

(أ) التفاعل بين الأفراد •
(ب) التفاعل بين الفرد والجماعات •
(جـ) التفاعل بين الفرد والثقافة العامة •

٣ ـ أنواع التفاعل الاجتماعى :

(أ) المنافسة •
(ب) التعاون •
(جـ) الصراع •
(د) المهادنة •
(هـ) التقليد والاقتراح •

٤ ـ دراسة الفرد والمجتمع •

٥ ـ دراسة النظم الاجتماعية .

(أ) النظم الاقتصادية •
(ب) الأسرة •
(جـ) النظم الدينية •
(د) النظام السياسى •
(هـ) النظام التعليمى •
(و) الرعاية الاجتماعية •

ومن أهم فروع علم الاجتماع نجد علم الاجتماع الريفى وعلم الاجتماع الحضرى ، وعلم الاجتماع الاقتصادى ، وعلم الاجتماع الدينى ، وعلم الاجتماع الصناعى ، وعلم الاجتماع التربوى ٠

* * *

ثالثا ـ علم الأنثروبولوجيا :

يدرس علم الأنثروبولوجيا الانسان بغض النظر عن الزمان والمكان ويحاول دراسة كل الأنماط السلوكية التى تسود فى مجتمع معين وتحديد كافة مظاهر الحضارة التى تميز هذا المجتمع ٠ وقد كان التزام علماء الأنثروبولوجيا بهذه النظرة الشاملة المتكاملة سببا فى تركيز دراساتهم على المجتمعات البدائية او شبه البدائية نظرا لما تتميز به من صغر الحجم بحيث يصبح تطبيق المنهج المتكامل فى البحث أمرا ممكنا ٠ ونظرا لتشعب مجالات البحث فى موضوع الانسان نجد ان نوعا من التخصص بدأ يظهر فى علم الأنثروبولوجيا ونستطيع أن نميز منها ما يأتى :

١ ـ **الأنثروبولوجيا الطبيعية :** وتختص بدراسة جسم الانسان من حيث صفاته ومقاييسه وأصوله واشكاله السابقة والمتطورة ٠ ويرتبط هذا الفرع بالعلوم الطبيعية خاصة علم التشريح وعلم وظائف الأعضاء وعلم الحياة (الأحياء) ٠

٢ ـ **الأنثروبولوجيا الحضارية :** تدرس « الحضارة » بمعنى طرق وأساليب المعيشة فى مجتمع معين ٠ ومن أهم عناصرها اللغة وكل ما يصنعه الانسان من عناصر الحياة المادية مثل المبانى والمعدات ، كما يشمل مفهوم الحضارة طبيعة العلاقات الاجتماعية وأنماطها والنظم التى تحدد أساليب الحياة فى المجتمع ٠ ويقصد بالحضارة ذلك الكل المتكامل للأنماط السلوكية المكتسبة التى يأخذ بها معظم الأفراد فى مجتمع معين ٠ وينقسم علم الأنثروبولوجيا الحضارية الى الأفرع التالية :

(أ) **الأثنولوجيا :** وتختص بالدراسة الوضعية للمجتمعات الانسانية، وخاصة المجتمعات البدائية ذات النظم السياسية والاقتصادية البسيطة

المحدودة . وتتميز هذه الدراسات بالناحية النظرية وباهتمامها الواضح بتاريخ الشعوب والأمم .

(ب) **الأنثروبولوجيا الاجتماعية :** وتهتم بدراسة البنـاء الاجتماعى للمجتمعات الانسانية وتحليله . والتعرف على درجة الترابط والتفاعل بين النظم الاجتماعية السائدة .

(جـ) **علم الآثار :** ويهتم بدراسة التغير الحضارى الذى حدث خلال الزمن مع التركيز على تصنيف آثار هذه الحضارات منذ عصر ما قبل التاريخ الى العصور التاريخية المختلفة .

(د) **علم اللغويات :** ويركز على دراسة اللغات باعتبارها أنماطا أساسية من أنماط الحضارة .

* * *

رابعا ـ التربيـــــة :

التربية وظيفة اجتماعية تستمد ضرورتها وتحتسب مدلولها ومفهومها الحقيقى من الأهداف التى تعمل على تحقيقها ومن الغـايات التى تسعى الى الوصـول اليها . والتربية بهذا لا يمكن أن تكون مجرد فلسـفة بعيدة عن واقع الحياة كما لا يمكن أن تكون مجرد وسـائل وأسـاليب تتجـه نحو تحقيق غايات ومثـل عليـا بنيت على أساس من التفكير المنطقى أو النظرى وحده ، وانما ينبغى أن تكون التربية تعبيرا وانعكاسا للاتجاهات السائدة فى المجتمع والمثل الحقيقية التى يتخذها المجتمع أهدافا له ، وهذه الاتجاهات والمثل والأهداف هى وحدها التى ينبغى أن تحدد فلسفة التربية وأساليبها ومناهجها ومواد الدراسة وطرق التدريس .

ولكل مجتمع نمطه التربوى أو انماطه الثقافية التى تتلاءم مع أوضاعه ومطالبه الاجتماعية والثقافية والسياسية ومع ما يفرضه نظام الحياة القائمة فى المجتمع . والفرد التى تسعى التربية الى تنشئته واعداده ليس بالفرد المثالى ، وانما هو الفرد الذى يتطلبه مجتمع بعينه والذى تتطلبه اقتصاديات هذا المجتمع وظروفه الخاصة اجتماعية كانت أم سياسية ، والتربية هى

وسيلة المجتمع لتأمين استمرار حياته وتطوره • كما أن الفرد الذى يعيش فى مجتمعه لا يستطيع أن يحيا فى عزلة أو بعيدا عن الأحداث التى تدور فى المجتمع والتى يتفاعل معها فيتأثر بها وتؤثر فيه •

وبهذا المفهوم للتربية نجد أن النشاط التعليمى فى مجتمعنا العربى يسعى الى تحقيق الأهداف التربوية فى المراحل التعليمية الآتية :

١ ــ المرحلة الابتدائية •
٢ ــ المرحلة الاعدادية العامة (المتوسطة) •
٣ ــ المرحلة الثانوية العامة •
٤ ــ التعليم الفنى : زراعى ، صناعى ، تجارى •
٥ ــ التعليم العالى : جامعات ومعاهد عليا •
٦ ــ معاهد وكليات اعداد المعلمين •

* * *

● المدخل المتكامل لتفسير السلوك الانسانى :

من دراسة العلوم السلوكية تتضح حقيقة هامة تلقى الضوء على سبل دراسة السلوك الانسانى وتفسيره وهى تتركز فى أن الانسان يمثل نظاما متكاملا تتكون منه أجزاء متعددة يختص كل منها بأداء وظيفة محددة • ولذلك فان السبيل العلمى الوحيد لفهم السلوك وتفسيره ، هو عن طريق النظر الى جوانبه المختلفة فى آن واحد وعدم الاقتصار على دراسة بعض جوانبه دون الأخرى • ولقد اتضح من الدراسات السلوكية أن الانسان له دوافع متعددة ومعقدة ، وعلى الرغم من وجود صفات متماثلة بين الأفراد جميعا الا أن هناك جانبا أساسيا من الاختلافات الفردية بينهم • وعلى هذا الأساس فاننا لا نتوقع أن يتصرف كل الأفراد بنفس الطريقة استجابة لنفس المؤثر • وعلى ذلك فان الأساس الأول فى فهم السلوك الانسانى هو تحليل ذلك السلوك من الداخل أى معرفة الدافع أو الباعث عليه •

ومن ناحية أخرى فالانسان لا يستطيع أن يعيش بمعزل عن غيره من الأفراد ، لذلك كان من الضرورى أن نأخذ المؤثرات الاجتماعية فى الاعتبار

عند تحليل السلوك الفردى . وبذلك نستطيع أن نلخص المؤثرات الرئيسية على السلوك الانسانى فيما يأتى :

١ ـ هناك عدد من الدوافع والقوى الداخلية التى توجه السلوك الانسانى فى اتجاه المحافظة على الحياة والبقاء .

٢ ـ الانسان عضو فى مجتمع كبير ، فهو سيتأثر بطبيعة الثقافة والحضارة التى يعيش فيها ، ويصبح لتلك القوى الاجتماعية تأثير شديد على أساليب وانماط السلوك التى يتبعها .

٣ ـ فى ذات الوقت تجد الفرد يخضع لتأثير الجماعات الصغيرة التى يعيش معها كالعائلة والأقارب وجماعات الأصدقاء وجماعات العمل فلكل من تلك الجماعات عاداتها وتقاليدها التى تؤثر على تفكير الفرد وتحدد له انماط السلوك التى يجدر به اتباعها حتى يستمر فى الاحتفاظ بعضوية تلك الجماعات .

٤ ـ لكل فرد « شخصية » متميزة تختلف عنها فى غيره من الأشخاص ، وتلك الشخصية هى نتاج التفاعل بين حاجات الفرد ورغباته وخبراته والبيئة التى يعيش فيها . وقد يكون الفرد قلقا غير مستقر أو قد يكون طابع شخصيته العدوان والتسلط ، أو قد يصبح انطوائيا أو سلبيا . ويحدد ذلك النوع من الشخصية بعض أنماط السلوك الانسانى ويساعد على تفسير تصرفات الفرد .

٥ ـ وبالاضافة الى ما سبق فان هناك أنماطا عامة للسلوك والتصرف تنمو بحكم الانتماء الى بيئة معينة أو جماعة محددة ، فنجد مثلا سكان الريف يختلفون فى أنماط سلوكهم عن سكان المدينة .

* * *

مفهوم علم الاجتماع

يعزى الى الفيلسوف الفرنسى « أوجست كومت Auguste Comte » أنه أطلق على هذا العلم اسم « علم الاجتماع » وبذل الجهد الكبير فى تحديد علاقته بالعلوم القديمة والقائمة فى ذلك الوقت . وتبدو أصول الفكر

الاجتماعى فى كتابات فلاسفة اليونان بخاصة « افلاطون » و « ارسطو » ، حينما حاولا أن يقيما النظام الاجتماعى المثالى ، فوضع كل منهما صورة أو تخطيطا مثاليا للمجتمع الذى كان يعيش فيه ·· ولعل عرض «ماكيافيلى» فى كتابه « الأمير » للمبادىء والأسس التى تقوم عليهـا الدول الناجحة وللقواعد التى يسترشد بهـا القائد الناجح تعتبر من الكتابات السياسية التى تعرضت للتحليل الموضوعى للقوى الاجتماعية ، ذلك الذى سبق كتابات « فيلر » و « مونتسيكو » اللذين حاولا صياغة قوانين طبيعية لتطور المجتمع · هذا ولم يكن « كوندرسيه » أقل انشغالا من قرنائه فلاسفة التاريخ فى البحث عن قوانين للتقدم البشرى · أما « سان سيمون » فعلى الرغم من أنه يعد مصلحا مثاليا الا أنه أكد أن الاصلاح الاجتماعى يمكن تحقيقه حينما يتم جمع البيانات العلمية الواقعية ، فالمجتمع حقيقة واقعية ويصلح موضوعا للدراسة العلمية لأنه يخضع لقوانين ثابتة(٥) ·

والواقع أن « عبد الرحمن بن خلدون » يعتبر سابقا لجميع العلمـاء والكتاب الغربيين فى اسهاماته بالنسبة لعلم الاجتماع·فلقد رأى «ابن خلدون» أن كتب التاريخ قد اشتملت على كثير من الأخبار غير الصحيحة · وهداه تفكيره الى أن أسباب هذه الطائفة الزائفة من الأخبار يرجع الى الآتى :

الأمور الذاتية التى تتعلق بشخص المؤرخ وميوله وأهوائه ومدى انقياده الى هذه الميول والأهواء ، والجهل بالقوانين التى تخضع لهـا الظواهر الطبيعية كالفلك والكيمياء والفيزياء والحيوان والنبات وتسجيل أخبـار تتنافى معها ، والجهل بالقوانين التى تخضع لها ظواهر الاجتمـاع الانسانى ، مما أدى بالمؤرخين الى تسجيل أخبار تتنافى مع طبيعة العمران والأحوال فى الاجتماع الانسانى · وقد حرص «ابن خلدون» على أن يرسم الطريق أمام الباحثين والمؤرخين لتجنب هذه الأسباب على النحو التـالى :

١ ـ أن يجرد المؤرخ نفسه من الهوى والتحيز وعوامل الانحراف عن الحق ، وأن يقدم على بحوث التاريخ دون رأى مسبق ·

---

(٥) محمد عاطف غيث ، **دراسات فى علم الاجتماع التطبيقى** ، القاهرة ـ دار الكتب الجامعية ، ١٩٧٢ ، ص ٥ ـ ٧ ·

٢ ـ الالمـام بالعلوم الطبيعية وقوانينها واستبعاد كل ما يتنافى معها ، خاصة وأن هذه العلوم قد وصلت ـ حينئذ ـ الى درجة من النضج ، وكشف علماؤها طائفة كبيرة من القوانين التى تخضع لها ظواهر الطبيعة ٠

٣ ـ الالمـام بالقوانين التى تخضع لها ظواهر الاجتماع الانسانى ، طالمـا أنها لا تسير حسب الأهواء والمصادفات ، وانما تحكمها قوانين ثابتة شأنها شأن الظواهر الطبيعية ٠ وللمؤرخين العذر فى الجهل بهذه القوانين لأنه لم يتم الكشف عنها بعد حتى عهد ابن خلدون ٠ ولا يمكن الكشف عن هذه القوانين الا بدراسة الظواهر الاجتماعية دراسة وضعية تسـتهدف توضيح طبيعتها وبيان العلاقات التى تربطها ببعضها وبغيرها وما ينجم عن هذه العلاقات من نتائج فى نشأتها وتطورها واختلافها باختلاف المجتمعات على مر العصـور ٠

واضطلع ابن خلدون بمهمة انشاء هذه الدراسة الجـديدة للظواهر الاجتماعية بنفسه ، وقام على ضوئها بالكشف عن القوانين التى تخضـع لها هذه الظواهر ٠ وتألف عن ذلك علم جديد أسماه بـ « علم العمران » أو « علم الاجتماع الانسانى » ، وقرر بناء على ذلك أنه لم يسبقه الى هذا العلم أحد من قبل(٦) ٠

❋ ❋ ❋

● **تعريف علم الاجتماع :**

كانت عملية تعريف علم الاجتماع ـ ولا تزال ـ تمثل واحدة من المشكلات الجوهرية التى نشأت مع بداية ظهور علم الاجتماع واستمرت مع تطوره ٠ واذا كانت هذه المشكلة لم تجد الاهتمام الكافى والعناية اللازمة من جانب علماء الاجتماع منذ اللحظة الأولى ، الا أنها تحظى اليوم بعناية كبيرة فى تقدير جانب كبير من علماء الاجتماع المحدثين ٠ فهم يميلون الى دراسة « سوسيولوجيا المعرفة Sociology of knowlege » أو ينتمون الى ذلك الفرع أو الميدان الجديد من ميادين علم الاجتماع الذى

---

(٦) على عبد الواحد وافى ، **ابن خلدون** ٠ القاهرة : مكتبة نهضـة مصر ، ١٩٥٥ ، ص ١٠٦ ـ ١١٢ ٠

يتناول بالدراسة والتحليل والنقـــد الأسس المعرفية والمنطقية والواقعية للنظريات والأفكار الواردة فى علم الاجتماع ومن بينهـــا تعريف علم الاجتماع(٧) ٠

ويرجع ذلك الاهتمام بتعريف علم الاجتماع الى اعتقاد مؤداه « أن الاتفاق على تعريف محدد لهذا العلم يسهم فى توفير أسس مشتركة وفى التقريب بين مختلف وجهات النظر التى قد تتصارع على مسرح هـــذا العلم ٠ والواقع أنه قد تعددت تعريفات علم الاجتماع بتعدد المذاهب والنظريات التى اتجهت وجهات متعددة ومتباينة فى تحـــديد الحقيقة الاجتماعية وتفسيرها »(٨) ٠ هذا ما قد يوضحه لنـــا استعراض التراث والتحليل التاريخى ومحاولة فهم المشكلات فى ضوء الاحاطة بخلفيتها ، مع محاولة التدخل لانتقاء الحقائق التى يوفرها لنـــا هذا التراث فى ضـــوء تطورها التاريخى دون تعصب لرأى معين ، مع الحرص على تقـــديم أكبر قدر من الآراء على اختلافها وتباينها(٩) ٠

ونعرض فيما يلى موجزا لوجهات النظر المختلفة بالنسبة لتعريف علم الاجتماع :

١ ـ نلاحظ أن « أوجست كومت » قـــد عنى بتعريف الظـــاهرة الطبيعية أو الكيميائية والبيولوجية وتحديد موضوعات هذه العلوم ، ولكنه لم يقدم تعريفا للظاهرة الاجتماعية أو تحديدا لموضوع علم الاجتماع ، لأن هذا العلم فى نظره يدرس كل الظواهر التى لا تدرسها العلوم الأخرى السابقة عليه فى الظهور ٠ وكان يرى أنه من العبث تحـــديد الظاهرة

---

(٧) غريب سيد أحمد وآخرون ، **المدخل الى علم الاجتماع المعاصر** ٠ القاهرة : دار الكتب الجامعية ، ١٩٧٤ ، ص ٧

(٨) محمد عاطف غيث ، **علم الاجتماع** ٠ القاهرة : دار المعـــارف ، ١٩٦٣ ، ص ١٣٢

(٩) على عبد الرازق حلبى ، **قضايا علم الاجتماع المعـــاصر** ٠ القاهرة : دار المعرفة الجامعية ، ١٩٧٩ ، ص ١١

الاجتماعية ، لأن الظواهر الانسانية كافة ـ بما فى ذلك ظواهر علم النفس ـ هى ظواهر اجتماعية . ولذلك فالانسانية فى نظره هى موضوع العلم ، وهى الحقيقة التى يرى أنها جديرة بالدراسة والبحث(١٠) .

٢ ـ كان « هربرت سبنسر Herbert Spencer » يرى أنه يتعين على علم الاجتماع أن يصف ويفسر نشأة وتطور النظم الاجتماعية كالأسرة والضبط الاجتماعى والعلاقات بين النظم .. وأنه على علم الاجتماع أن يقارن بين المجتمعات على اختلاف أنواعها وعلى اختلاف تطورها ، وأن يتناول ظواهر البناء والوظيفة كما تبدو فى المجتمعات بصفة عامة(١١) .

٣ ـ كان « دوركايم Durkheim » يجعل من الظواهر الاجتماعية الموضوع الرئيسى لعلم الاجتماع ، ومن ثم فانه اجتهد فى تحديد الخواص التى تميز هذه الظواهر الاجتماعية عن غيرها من ظواهر الطبيعة والحياة غير الانسانية (١٢) .

٤ ـ قدم « ماكس فيبر Max Weber » تعريفا عاما لعلم الاجتماع بأنه « العلم الذى يحاول الوصول الى فهم وتفسير للفعل الاجتماعى من أجل التوصل الى تفسير علمى لمجراه ونتائجه »(١٣) .

٥ ـ يحدد « باريتو Pareto » علم الاجتماع بأنه العلم الذى يدرس الظواهر الاجتماعية فى تفاعلها بعضها مع البعض الآخر ، وفى أثر

---

(١٠) مصطفى الخشاب ، **علم الاجتماع ومدارسه** « الكتاب الأول » . القاهرة : لجنة البيان العربى ، ١٩٥٨ ، ص ١٦١

(١١) A. Keles ; **What is Sociology** . (New Delhi : Prentice - Hall, 1971) , pp. 4 - 5.

(١٢) محمد عاطف غيث ، **علم الاجتماع** ، مرجع سابق ، ص ٥٧ .

(١٣) M. Weber ; **Theory of Social and Economic Organization.** (N. Y. Oxford University Press, 1947) , p. 88.

كل منها على الأخرى ، كما يدرس الوظائف التى تؤديها الظواهر والارتباط بينها (١٤) .

٦ ـ أما « تالكوت بارسونز Talcott Parsons » فقد ذهب الى أن علم الاجتماع يركز اهتمامه على الأنساق الاجتماعية من حيث دراستها وتحليلها ، باعتبارها محور علم الاجتماع(١٥) .

٧ ـ ويحدد علم الاجتماع فى رأى « جونسون Johnson » بذلك العلم الذى يتناول الجماعات الاجتماعية بالتحليل ، ويركز على أشكال تنظيمها الداخلى وأساليبه ، والعمليات التى تؤدى الى استقرار هذه الأشكال التنظيمية أو تغييرها ، وكذلك دراسة العلاقات القائمة فيما بين الجماعات(١٦) .

٨ ـ ويعرف « بارون Barron » علم الاجتماع بأنه ذلك العلم الذى يضطلع بمهمة البحث عن المعرفة المتعلقة بأنماط التفاعل الاجتماعى وأثر الأنساق الاجتماعية على الاستجابات السلوكية والفعلية والانفعالية للكائنات الانسانية(١٧) .

٩ ـ يحدد « كارل ماركس Karl Marx » علم الاجتماع بأنه محاولة للوصول الى نظرية متكاملة عن بناء المجتمع وتغيره(١٨) .

وتحدد مجموعة التعاريف السابقة علم الاجتماع أنه دراسة : الفعل الاجتماعى ، والتفاعل الاجتماعى ، والسلوك الانسانى ، والجماعات الاجتماعية ، والمجتمع ، والظواهر الاجتماعية ، والأنساق الاجتماعية ،

---

(١٤) محمد عاطف غيث ، علم الاجتماع (مرجع سابق) ص ١٠٨

(١٥) T. Parsons; **The Social System.** (Glencoe, Ill. : The Free Press, 1951) , p. 552.

(١٦) H. Johnson ; **Sociology** . (N. Y. : Harcourt, 1960) , p. 2 .

(١٧) M. Barron (ed.) ; **Contemporary Sociology** . (N. Y. : Dodd, 1965) , p. 10

(١٨) محمد عاطف غيث ، مرجع سابق ، ص ٤٠

والنظم الاجتماعية ، والتنظيمات الاجتماعية ، والعمليات الاجتماعية ، مع التركيز على بناء هذه الأشكال ووظيفتها · · وتتراوح مختلف التعاريف ما بين التحديد ـ بما يجعل علم الاجتماع متمثلا فى الفعل الاجتماعى ـ والاتساع الشديد ـ الذى يجعل هذا العلم وموضوعه متمثلا فى المجتمع ككل · وهذا الأمر يعكس حقيقة هامة مؤداها أنه من الصعب التوصل الى تعريف دقيق ومتفق عليه لهذا العلم ، وهذا ما يجمع عليه معظم العلماء والباحثين فى علم الاجتماع(١٩) ·

***

● **أهـــداف علم الاجتماع :**

نخلص من المناقشة السابقة بأن علم الاجتماع علم نظرى يستهدف دراسة الحقائق الاجتماعية دراسة علمية وصفية تحليلية بنفس الطريقة التى تدرس بها العلوم الطبيعية وظواهرها · وهذا يعنى أن علم الاجتماع يهتم بالدراسة الموضوعية دون أن يتأثر بوجهات النظر الخاصة ، ودون أن يكون هناك مجال لتدخل الآراء والأهواء والأفكار الشخصية ، ولذلك فان الأغراض التى يرمى اليها أغراض نظرية فى معظمها · ولما كان علم الاجتماع علما انسانيا ، فينبغى الانتفاع بنظرياته وبحوثه فى الارتقاء بأحوال الجنس البشرى ، ومن ثم فلا بد أن تكون له أغراض عملية تطبيقية الى جانب أغراضه العملية النظرية · وفيما يلى مناقشة لهذه الأغراض(٢٠) :

أولا ـ الأغراض النظرية :

تتلخص هذه الأغراض فى النقاط الآتية :

١ ـ دراسة طبيعة الحقائق الاجتماعية وما يتصل بها ، للوقوف على نشأتها والمبادىء العامة للحياة الاجتماعية والدعائم التى ترتكز عليها ·

٢ ـ دراسة تطور الظواهر الاجتماعية على اختلافها باختلاف الأزمنة

---

(١٩) على عبد الرازق حلبى ، **مرجع سابق** · ص ١٤ ـ ١٥

(٢٠) مصطفى الخشاب ، **علم الاجتماع ومدارسه** « الكتاب الثانى » ، القاهرة : دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ، ١٩٦٧ ، ف ٣ ·

والشعوب • وتشمل هذه الدراسة كذلك دراسة الأشكال الاجتماعية وتصنيفها والكشف عن الخصائص التى تنطوى عليها طبيعة كل شكل ، ومحاولة الوقوف على الشروط الضرورية للتغير الاجتماعى والقوى المؤثرة فى تقدم المجتمع •

٣ ـ دراسة العلاقات التى تربط بين الظواهر والنظم الاجتماعية ، والوقوف على مدى التفاعل الذى يحدث فيما بينها وما ينجم عن ذلك من اثار فى حياة الأفراد بصفة خاصة وحياة المجتمع اجمالا •

٤ ـ الكشف عن مبلغ ارتباط التغيرات الاجتماعية بالتطورات الحضارية والثقافية بصفة عامة •

٥ ـ الكشف عن الوظيفة الاجتماعية التى تؤديها الظواهر والنظم الاجتماعية وتطور هذه الوظائف واختلافها باختلاف المجتمعات •

٦ ـ الوصول الى القوانين الاجتماعية التى تخضع لها طوائف الظواهر الاجتماعية والتى تحكمها فى نشأتها وتطورها وعلاقاتها المتبادلة والوظائف التى تؤديها •

ويعتبر الغرضان الأخيران هما أهم الأغراض جميعاً وأجدرها بالدراسة والعناية •• حيث ان الهدف الأساسى الذى يقصده الباحث من دراسة نظام ما أو ظاهرة هو الوقوف على الوظيفة الاجتماعية التى يؤديها النظام أو تحققها الظاهرة فى حياة الفرد والجماعة ، وذلك للبحث فيما اذا كان من الممكن الارتقاء بهذه الوظيفة لاسعاد الفرد وكذا محاونة الوصول الى القوانين العامة التى تضفى على العلم الوجود الحقيقى • ولعل هذه النقطة بالذات هى التى عوقت قيام علم الاجتماع وضيعت علية الفرصة للاستقلال منذ القدم •• ويرجع ذلك الى أن العلماء الذين كانوا يكتبون فى الدراسات الاجتماعية لم يحاولوا الوصول الى القوانين الاجتماعية التى تحكم الظواهر المدروسة اعتقادا منهم أن الظواهر الاجتماعية لا تخضع لفكرة القانون وأنها لا تدرس الا فى ضوء النظريات الخاصة • وكان هذا الاعتقاد هو نقطة الضعف فى بحوثهم •• فلما امتد المنهج الوضعى حتى شمل هذا الظواهر ،

أصبح الوصول الى الكشف عن القوانين الاجتماعية وصياغتها هو المرحـلة الهامة لاستكمال علم الاجتماع بحيث أصبح له خصائص العلم المستقل ٠

ثانيا ـ الأغراض العملية :

لعلم الاجتماع ـ بجانب الناحية النظرية التى سبق ذكرها ـ ناحيـة عملية تطبيقية ، أى أنه يمكن الانتفاع بحقائق هذا العلم فى نواجى الحيـاة العملية والاهتداء فى ضوئه الي ما ينبغى عمله فى الحياة للارتقاء بأحوال المجتمعات وحل مشكلاتها وتحسين مستويات الجنس البشرى بصفة عامة ٠ وشأن علم الاجتماع فى ذلك شأن سائر الدراسات الانسانية ٠٠ فكما أن بحوث علم النفس التى تدرس قوى النفس بوصفها وتحليلها والكشف عن القوانين الخاضعة لها ، قد أقيم على أساسها الفروع التطبيقية فى مجالات تربية الطفل وتنشئته الاجتماعية ، وتصنيف الأمراض النفسية ووسائل علاجها ، واستنباط الوسائل العلمية التى أدت الى وضع الرجل المناسب فى العمل الملائم ، وما أشبه ٠٠ كذلك يمكن أن تقام على قواعد علم الاجتماع بحوث فنية ترشدنا الى ما ينبغى عمله فى محاولة اصلاح المعتل من شئون المجتمع والقضاء على علله والانحرافات التى تنشأ فى ربوعه ٠ وأهم موضوع يستحق العناية هو دراسة مشكلاتنا الاجتماعية ـ ريفية وحضرية ـ دراسة علميـة دقيقة ، حيث ان مثل هذه الدراسة تعتبر مقدمة منطقية ضرورية وقاعدة قوية الدعائم لوضع سياسة الاصلاح الاجتماعى ٠ ومن شأن مثل هذه الدراسـة أن تنير أمامنا الطـريق وتحمينا من الزلل وتبعدنا عن سياسـة الطفـرة والارتجال ٠ ونجد فى مجالات رعاية الأحداث والمعوقين ورعاية الشـباب الكثير من التطبيقات بالافادة من طرق خدمة الفرد وخدمة الجماعة والرعاية الاجتماعية مما هو قائم فعلا على أسس الدراسة العلمية الاجتماعية ٠ ٠

***

التغير الاجتماعى والثقـافى

يقصد بـ « التغير الاجتماعى » أى تغير يطرأ على البناء الاجتماعى أو الوظائف الاجتماعية ٠ وقد يكون هذا التغير تقدميا ـ أى ارتقائيا ـ

كما قد يكون فى موقف أو ظرف آخر نكوصا كما فى حالة الأزمات السياسية والاقتصادية وما أشبه(٢١) ٠

ومن المعروف أن المجتمع يحتوى على عمليات اجتماعية تؤدى الى الحفاظ عليه وتدعيمه ، ومن هذه العمليات عملية « التنشـئة الاجتماعية Socialization » و « الضـبط الاجتماعى Social Control » ٠ ويحتوى البنـاء الاجتماعى أيضا على عمليات تسعى جاهدة لاحداث التغيير فى البنـاء نفسـه ٠٠ فعلى سبيل المثال : يتعمد الآباء فى المجتمع الذى تسوده فكرة التغير أن ينشئوا أبناءهم على قيم السلوك وأنماطه التى تتجه بكليتها نحو البنـاء المستقبلى للمجتمع ، أكثر من اتجاههم نحو الوضع القائم والحفاظ عليه ٠٠ ومن ثم يمكن القول بأن الآباء لا يقومون بتعليم أبنائهم كل ما تعلموه،هم من آبائهم ٠ فهم ، وان كانوا يعملون على نقـل التراث والثقافة الى أبنائهم والحفاظ عليها ، الا أنهم يحاولون ـ بنفس القدر والجهد ـ أن يعيدوا تشكيل الحياة الاجتماعية والنسق الاجتماعى من جـديد ٠

وعلى الرغم من أن عمليات التغير الاجتماعى تحدث تحولا وتبدلا فى النسق الاجتماعى ، الا أنها قد تعمل للحفاظ على النسـق وتدعيمه ٠ قد يحتاج هـذا النسق الى أن يكيف بناءه فى الظروف الجديدة ويتواءم معها لكى يحافظ على بقائه ٠

فالتغير الاجتماعى اذن هو العملية التى يحدث بمقتضاها تحول فى بنية النسق الاجتماعى ووظيفته ٠ ومن أمثلة التغير الاجتماعى : الثورات القومية ، واختراع أساليب فنية صناعية جديدة ، وانشاء مجالس تطوير القرى وتنميتها ، ومشروعات تنظيم الأسرة ٠ وبعد هـذا يطرأ التحول على بنية النسق ووظائفه ، حيث ان البناء الاجتماعى للنسق يتكون من الأشخاص الكثيرين المتضمنين فيه ومراكز الجماعة التى تشكله ٠

---

(٢١) عبد الله الخريجى ، **التغير الاجتماعى والثقافى** ٠ جـدة : رامتان ، ١٩٨٣ ، ص ١٢٥ ـ ١٢٦

ويعتبر « التغير الثقافى » ذا مدلول أوسع بكثير وأشمل من مدلول «التغير الاجتماعى» ، وان كان الاثنان يستخدمان معا للاشارة الى التغيرات الاجتماعية التى تحدث فى أحد المجتمعات • ويدل « التغير الثقافى » على كل تغير يحدث فى الجوانب المادية وغير المادية للثقافة •• كان يحدث فى اللغة ، أو الفن ، أو العلم ، أو المعتقدات ، أو العادات فى المأكل والمشرب والملبس ، أو وسائل المواصلات والنقل ، أو فى النمط الفيزيقى للمسكن ، أو فى الصناعة ، أو فى شكل من أشكال الحياة الاجتماعية(٢٢) •

فالثقافة هى مجموع السلوك المكتسب الذى يتم تناقله اجتماعيا ، وعلى ذلك فهى تضم الكثير من العناصر • ويعتبر بعض العلماء أى تغير يطرأ على عنصر من التكوينات المادية والعقلية والاجتماعية تغيرا ثقافيا • وعلى هذا فان التغير الثقافى يعنى أى تغير يمكن أن يؤثر فى مضمون ثقافة معينة أو بنائها ، ويعتمد هذا النوع من التغير على « الانتشار Difusion » أو « الاختراع Invention » •

فالتغير الثقافى اذن ظاهرة أعم وأشمل من التغير الاجتماعى ، كما أن هذا التغير الثقافى لا تخلو منه جماعة بشرية • وتتضح هذه الحقيقة من خلال دراسة التغير اثناء حدوثه ، أو عن طريق تحليل الثقافات غير التاريخية • ونجد أن الطابع الدينامى للاختلافات الاقليمية يؤكد هذه الظاهرة •

* * *

التنمية الاجتماعية

« التنمية الاجتماعية » هى مشكلة العصر •• مشكلة المجتمعات •• هى التحدى الكبير الذى يواجهه الساسة والعلماء من أجل تحريك المجتمعات ودفعها فى طريق التقدم والازدهار •••

ولقد أصبح مصطلح « البلاد النامية » من أشهر المصطلحات اليوم

---

(٢٢) **المرجع السابق** ، ص ١٣٢

فى كتابات المشتغلين بالعلوم الاجتماعية على اختلاف تخصصاتهم . وهذا المصطلح يأخذ البعض عليه شيئا من الملاحظات .. فهو من حيث معناه اللغوى الظاهرى مصطلح غير سليم ، لأن البلاد النامية فعلا ـ أى التى قطعت شوطا بعيداً من النمو ـ هى البلاد المتقدمة اقتصاديا واجتماعيا ، فهى التى تتم بها عملية التنمية بسرعة كبيرة تفوق كثيرا سرعة التنمية الدائرة فى البلاد التى يطلق عليها الآن « البلاد النامية Developing Countries ، والتى كانت تسمى قبل ذلك « البلاد المتخلفة Unaerdeveloped Countries » ، أى البلاد ذات المستوى الأدنى من النمو .

وبصرف النظر عن الجدل اللفظى ، فمصطلح « الدول النامية » يدل حاليا على تلك البلاد والمناطق والشعوب التى لم تشارك بشكل ايجابى فى عملية النمو الاقتصادى والاجتماعى الضخمة التى حققتها الشعوب المتطورة خلال الفترة من الثورة الصناعية حتى الحرب العالمية الثانية . وترتب على ذلك انخفاض مستوى انتاجيتها وتدنى قدرتها على اقامة علاقات أو تنظيم برامج على مستوى اجتماعى كبير(٢٣) .

* * *

● اسباب التخلف :

يمكن تحديد الأسباب الأولية للتخلف فى الدول النامية فيما يأتى(٢٤) :

أولا : ان انسان الدول النامية لم يكتسب بعد القدرات العلمية والتنظيمية التى كونها انسان المجتمعات الصناعية المتقدمة على أمتداد القرون الثلاثة الماضية ، وهى القدرات التى مكنته من السيطرة على البيئة الطبيعية والتحكم فيها واستغلالها وتنمية نظم اجتماعية لتحقيق الرفاهية المادية . والأخطر من هذا ان انسان البلاد النامية لم يضع

---

(٢٣) عبد الله الخريجى ومحمد الجوهرى ، **التنمية الاجتماعية** . جدة : رامتان ، ١٩٨٦ ، ص ١٣ ـ ١٤

(٢٤) المرجع السابق ، ف ٤

تحقيق هـذا الهدف نصب عينية ، ويرجع البعض ذلك الى أن سـلوك هـذا الانسان لم يكن على امتداد تلك الفترة متأثرا بقيم عقلانية ومادية وانما كان متأثرا بقيم تقليدية متخلفة ٠

وترتب على هـذا أن السلوك الاقتصادى فى البلاد النامية ظل جامدا فى طابعه العام ، بمعنى أن يقتصر النشاط الاقتصادى على تلبية احتياجات الشخص التى تعتبر ضرورية ومعقولة فى اطار التقاليد السـائدة ٠ ويمكن القول بأن النشـاط الاقتصادى فى المجتمعات الجامدة ـ اى قبل بداية جهود التنمية ـ يتميز بالخصائص الآتيـة :

١ ـ أنه نشاط تلقائى وليس عقلانيا واعيا ، بمعنى أنه لا يهتم بحساب العلاقة بين المنصرف والعائد من نشاط معين ٠

٢ ـ ان النشاط موجه الى العمل فى ظل التقاليد المتوارثة ، مستهدفا تأمين الوجود الفردى العائلى ٠ فهو ليس نشاطا ديناميا ولا يتميز بروح المغـامرة والاقدام التى كان يتميز بها رجال الأعمـال فى فجر العصر الراسـمالى ٠

٣ ـ ان هـذا النشاط يسير بطريقة روتينية جامدة ، أى يتبع أساليب العمل وانماط السلوك التى كان يسير عليها الأقدمون دون تحوير أو ابتكار ٠ هـذا على خلاف النشاط الاقتصادى فى المجتمع المتقدم الذى يسـعى دائما الى افضل وسـيلة لخدمة الهدف المنشـود ، مما يدفعه الى ابتكار الحلول والبحث عن الجديد الأكثر كفاءة وأقل تكلفة ٠

ثانيا : أن تقسيم العمل لم يتطور بالقدر المطلوب فى أغلب المناطق المختلفـة ، حيث ان الانتاج فى هـذه المجتمعات يتم فى الغالب بهدف الاعاشة فى نطاق مجتمع العائلة اى للاستهلاك العائلى المباشر ، أو بهـدف البيع فى سـوق محلى محدود ٠ وقد ترتب على هـذا أن اقتصاديات معظم الدول النامية تتصف بالضعف بشكل عام ، كما تتميز بسوء التوزيع وعـدم التناسب بين المناطق المختلفـة داخل الدولة (ومن أبرز تلك الفـروق ما نلاحظها بين القرية والمدينة فى الدول النامية) ، وكذلك عدم تناسب

قوى الانتاج بين الطبقات الاجتماعية (ومن ابرز تلك الملامح الفروق الحادة فى الدخـول والثروات) ، وكذلك عـدم تناسب درجة النمو والازدهار بين القطاعات الاقتصادية المختلفة (حيث نجد بعض القطاعات الحديثة المتطورة ، واخرى ما زالت تعيش مرحلة بدائية شديدة التخلف) . هـذا علاوة على ان سيطرة اساليب الانتاج التقليدية وضعف وسائل النقل وامكانات التوزيع يؤدى الى ضعف امكانات التسويق ، ويرتبط بذلك كله ويترتب عليه وجود تضارب فى أسواق السلع والعمالة ورأس المـال ، بالاضافة الى التباين فى مستويات الأسـعار .. وهـذا كله يعنى اختلالا فى ميكانيزم السوق بشكله الذى عرفته البلاد الصناعية المتقدمة ، حيث ان اضطراب جهاز الأسـعار ، وشـبكات التوزيع ، ومناطق الانتـاج ، كل ذلك يعوق وجود وحدة اقتصادية متجانسة داخل البلد النامى .

ثالثا : يلاحظ أن الاطار الاجتماعى القائم فى البلاد النامية **يعوق** عملية النمو الاقتصادى ، خاصة فى الدول المستقلة .. فهناك اختلال واضح فى توزيع الثروة والدخول وبالتالى توزيع القوة بصفة عامة داخل تلك المجتمعات . فنجد ان الطبقات التى تستأثر بأكبر نصيب من الملكيـة ذات طبيعة اقطاعية فى جوهرها ، وهى تستأثر فى نفس الوقت بالنصيب الأوفى من القوة السياسية . ولـما كانت تلك الطبقات ذات طبيعة اقطاعية فهذا يعنى انها جامدة من الناحية الاقتصادية وذات طابع طفيلى غير منتج لا يساعد على تطوير عوامل الانتاج أو تجديدها وتوسيعها ، وتتلخص وظيفتها الأساسية فى العمل من أجل الحفاظ على بناء القوة وبناء الدخول القائم بالفعل والحيلولة دون تغييره أو تطويره ، وهى فى ذات الوقت حريصة اشد الحرص على عدم تغيير البنـاء الطبقى الاجتماعى القائم بحال من الأحوال ، كما تتميز بحساسية شديدة تجاه كل جديد ينال من ذلك البنـاء بالتعديل أو التطوير .

* * *

● مفهـوم التنميـة :

هناك اكثر من اتجاه واكثر من مفهوم يرتبط بمصطلح « التنمية » ، خاصة « التنمية الاجتماعية » . ويمكن فهم التنمية بشكل عام كعملية تغير

ثقافى دينامية ـ اى متصلة وواعية ـ موجهة ، تتم فى اطار اجتماعى معين . وترتبط عملية التنمية بازدياد أعداد المشاركين من أبناء الجماعة فى دفع هـذا التغير وتوجيهه ، وكذلك فى الانتفاع بنتائجه وثمراته . وتنطوى التنمية أيضا على التوسع الشامل فى كل مجالات النشاط الانسانى .. اى المجالات الروحية ، والفكرية ، والتكنولوجية ، والاقتصادية ، والاجتماعية(٢٥) .

ولعل من النتائج الأولية للتعريف السابق أنه لا يجوز أن نقصر التنمية مطلقا على النمو الاقتصادى ، وانما يجب أن تشتمل كذلك على تغير ثقافى عام وكذلك على تغيرات محددة فى البناء الاجتماعى القائم . ولا شك فى أن كل عنصر من هذين العنصرين يؤثر فى البناء الاجتماعى القائم ، كما أن كلا من العنصرين يؤثر فى الآخر بشكل متبادل .. فالنمو الاقتصادى لا يمكن أن يستمر فى المدى البعيد دون تغير فى الاتجاه نحو الديموقراطية الاجتماعية ، فكلاهما يعمل على خدمة الآخر .

* * *

● عملية التنمية :

يقصد بـ « عملية التنمية » مجموع ظواهر التغير الثقافى الدينامى الواعى والموجه ، وخاصة تعبئة وتنشيط العناصر الثقافية التى كانت ثابتة أو جامدة ـ نسبيا ـ فيما مضى ، وهى العناصر الروحية والفكرية والمادية ، وتخفيف رطأة أساليب السلوك التقليدية واعادة صياغتها أو التخلص من بعضها نهائيا اذا ما لزم الأمر .

ويمكن أن نميز ثلاثة مستويات للتعبئة داخل عملية التنمية ، تحددها فيما يلى :

المستوى الأول : هو المستوى التكنولوجى .. ويتمثل فى تغيير أساليب الانتاج ، والنقل والاتصال ، والتوزيع ، وذلك بهدف الوصول الى علاقة اكثر ملاءمة بين المدخلات والمخرجات ـ أى التكلفة والعائد .

---

(٢٥) المرجع السابق ، ص ١٤٠ ـ ١٤١

المستوى الثانى : هو المستوى الاقتصادى ·· ويتمثل فى التوصل الى طرق اكثر انتاجية وكفاءة فى مجالات التنظيم ، والتخطيط ، وتوزيع العــائد ·

المستوى الثالث : **هو المستوى الاجتماعى** ، وهو يتشعب الى النقاط الفرعية **التاليــة :**

١ ـ تحريك النظام الاجتماعى وتعبئته بصفة عامة ، بما فى ذلك توسيع مجالات العلاقات والوعى والمســئونية ، والتغيرات التى تطرأ على وظائف الكيان الاجتماعى وبنائه ، وتنمية وحدات اجتماعية أكبر حجما واكثر تعقيدا ترتكز على اساس التكامل الداخلى الفعال ـ اى التكيف فيمــا بين افراد تلك الوحــدات الاجتماعيــة ، وعلى اســاس النمــو فى اعداد الســكان ·

٢ ـ الحراك الأفقى ـ اى الجغرافى ـ او المكانى ·· الذى يتمثل فى هجرة العناصر السكانية المختلفة وانتقالها من مكان الى آخر ·

٣ ـ الحراك الراسى ، اى الانتقال من طبقة اجتماعية الى طبقة اخرى اعلى او اسفل السلم الاجتماعى ، وكذلك تغير العوامل المؤثرة على البنــاء الطبقى مثل : توزيع الســلطة والقوة ، والهيبة والمكانة ، والتعليم ، والملكية ، والدخل ·

* * *

مفهــوم علم الاجتماع الاســلامى

● الاســلام عقيدة وشريعة(٢٦) :

« الاســلام » هو دين الله الذى أوحى بتعاليمه فى اصوله وشرائعه الى النبى محمد ﷺ ، وكلفه بتبليغه للناس كافة ودعوتهم اليــه ·· وقــد تلقى فيه الرسول الكريم عن ربه القرآن الكريم ، فبلغه كما تلقاه ، وبين

(٢٦) محمــود شــلتوت ، **الاســلام عقيــدة وشريعــة** (ط ٨) · **القاهرة : دار الشروق** ، ١٩٧٥ ، ص ٧ ـ ١٣

بأمر الله وارشاده مجمله ، وطبق بالعمل نصوصه ، ثم تلقاه عنه الناس جيلا بعد جيل ، كما تلقاه هو عن ربه ، حتى وصل الينا ــ كما نزل ــ متواترا لا ريب فيه ٠

وقد قامت الحجة القاطعة عند من نظر فى القرآن ، وعرف أسلوبه ، وتدبر معناه ومحتوياته ، ثم أحاط بنشأة النبى محمد ﷺ وتقلب فيها ــ على أنه لا يمكن أن يكون من صنع محمد ، ولا من صنع بشر تلقاه عنه ٠٠ وبذلك آمن من يخضع قلبه للحق بأنه من الله سبحانه ، أوحاه الى محمد الذى اصطفاه رسـولا ، وبلغه النبى الأمين الى الناس ٠ وكان القرآن بذلك عند من آمنوا به مصدرا لعقائد الدين ، ولأصول أحكامه وشرائعه ٠

وقد سـجل الله سبحانه فى القرآن ذاته عجز البشر عن أن يأتوا بمثله ، ودل عليه واقعهم الذى فشلت فيه محاولة الاتيان بمثله ، وجابه المعرضين عنه بالعجز الدائم المستمر ، فقال تعالى :

● **« وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شـهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين ٠ فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النـار التى وقودها الناس والحجارة ، أعدت للكافرين » ٠**

(البقرة : ٢٣ ــ ٢٤)

● **« قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » ٠** (الاسراء : ٨١)

وقد اتصلت بالقرآن الكريم ــ بعد أن التحق محمد بربه ــ أفهام العلماء والأئمة فيما لم يكن من آياته نصا فى معنى واحد ، وكان المسلمون فى عهد الرسـول فى غنى عن هـذا برجوعهم اليه وتعرفهم المراد منـه ٠ ومن هـذا الجانب اتسع ميدان الفكر الانسانى ، وكثرت الآراء والمذاهب فى النظريات والعمليات ، لا على أنها دين يلتزم ، وانما باعتبارها من الآراء والأفهام فيما هو من القرآن محتمل للآراء والأفهام ، يرد فيها كل ذى رأى منها رأيه الى الدلالة التى فهمها هو من النص القرآنى ، مستعينا بما صح عنده من أقوال الرسول أو أفعاله أو من القواعد العامة التى ترمى

اليها روح الدين عامة . وهـذا الصنيع لم يكن من هؤلاء الأئمة وفى معتقدهم الا اجتهادا فرديا ، لا يوجب واحد منهم على أحد من الناس أن يتبعه ، بل تركوا لغيرهم ممن له أهلية الفهم حرية التفكير والنظر .. ومن هنا كثرت الآراء والمذاهب فيما يتصل بالفروع التابعة للعقائـــد الأصليـــة ، وفيما يتصل بالعمليات التابعة لأصول الشرائع والأحكام (مثل الفروع الاجتهادية كمسح ربع الرأس أو كله فى الوضوء) .

أما العقائد الأصلية كالايمان بالله واليوم الآخر ، وأصول الشريعة كوجوب الصلاة والزكاة وحرمة النفس والعرض والمـال ، فان نصوصها جاءت فى القرآن بينة واضحة لا تحتمل اجتهادا أو افهاما .

وان دلت طبيعة الاسلام هـذه على شىء ، فانما تدل على أنه دين يتسع للحرية الفكرية العاقلة ، وأنه لا يقف ـ فيما وراء عقائده الأصلية وأصول تشريعه ـ على لون واحد من التفكير أو منهج واحد من التشريع . وقد كان ـ بتلك الحرية ـ دينا يساير جميع أنواع الثقافات الصحيحة ، والحضارات النافعة التى يتفتق عنها العقل البشرى فى صـلاح البشريـــة وتقدمها مهما ارتقى العقل وتطورت الحياة .

ولقد تلقى النبى الكريم عن ربه الأصل الجامع للاسلام فى عقائده وتشريعه، وهو القرآن الكريم.وكان القرآن هو المصدر الأول فى تعرف التعاليم الأساسية للاسلام . ومن القرآن عرف أن الاسلام له شعبتان أساسيتان ، فلا توجد حقيقته ولا يتحقق معناه الا اذا أخذت الشعبتان حظهما من التحقق والوجود فى عقل الانسان وقلبه وحياته ، وهاتان الشعبتان هما : « العقيدة » و « الشريعة » .

١ ـ العقيـدة :

العقيدة هى الجانب النظرى الذى يطلب الايمان به وقبل كل شىء ايمانا لا يرقى اليـه شك ، ولا تؤثر فيه شـبهة . ومن طبيعتها تضافر النصوص الواضـحة على تقريرها ، واجماع المسلمين عليهـا من يوم أن ابتدأت الدعوة ، مع ما حدث بينهم من اختلاف بعد ذلك فيما وراءها .

وهى أول ما دعا اليه الرسول الكريم ﷺ ، وطلب من الناس الايمان به فى المرحلة الأولى من مراحل الدعوة ، وهى دعوة كل رسول جاء من قبل الله ، كما دل على ذلك القرآن الكريم فى حديثه عن الأنبياء والمرسلين .

٢ ـ الشريعـة :

الشريعة هى النظم التى شرعها الله او شرع أصولها ليأخذ الانسان بها نفسه فى علاقته بربه (وسبيلها أداء الواجبات الدينية كالصلاة والصوم والزكاة) ، وعلاقته بأخيه المسلم (وسبيلها تبادل المحبة والأحكام الخاصة بتكوين الأسرة والميراث) ، وعلاقته بأخيه الانسان (وسبيلها التعـاون فى تقدم الحياة العامة والسلم العام) ، وعلاقته بالكون (وسبيلها حرية البحث والنظر فى الكائنات واستخدام آثارها فى رقى الانسـان) ، وعلاقته بالحيـاة (وسبيلها التمتع بلذائذ الحيـاة الحلال دون اسراف أو تقشف) .

ولقد عبر القرآن الكريم عن العقيدة بـ « الايمان » ، وعن الشريعـة بـ « العمل الصالح » ، وجاء ذلك فى كثير من آياته الصريحة . قال تعالى :

● « ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا . خالدين فيها لا يبغون عنها حولا » . (الكهف : ١٠٧ ـ ١٠٨)

● « من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ، ولنجزينهم اجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » . (النحل : ٩٧)

● « والعصر . ان الانسان لفى خسر . الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » . (سورة العصر)

● « ان الذين قالوا ربنا اللـه ثم استقاموا فلا خـوف عليهم ولا هم يحزنون » . (الأحقاف : ١٣)

* * *

● **مصادر التفكير الاجتماعى الاسـلامى :**

لا شك أن موضوع مصادر الفكر الاجتماعى الاسلامى من الموضوعات

الصعبة والمعقدة ، ولا تعود تلك الصعوبة أو التعقيد هنا الى عدم كفاية المصادر ، وانما تعود الصعوبة والتعقيد الى ارتباط تلك المصادر بنص الدين الاسلامى وروحه من جهة ، وبتلك الاجتهادات الشرعية التى تعرضت بالشرح والتفسير لنصوص القرآن الكريم أو للأحاديث النبوية الشريفة من جهة أخرى .. اننا سنتعرض فيما يلى لمصادر الفكر الاسلامى بصفة عامة ولمصادر الفكر الاجتماعى الاسلامى بصفة خاصة ،باعتبار أن هناك وحدة فى الأصل أو المنشأ . واننا فى تناولنا لتلك المصادر لن نتناولها باعتبارها أدلة شرعية ، ولكن نتناولها من منطلق اسهامات تلك المصادر فى تسيير مختلف أمور الحياة المجتمعية للأمة الاسلامية .

ومن هذا المنطلق فلن يكون غريبا اذا ما اعتبرنا أن مصادر الفكر السوسيولوجى الاسلامى هى نفسها تلك الأدلة الشرعية التى يرجع اليها فى استنباط أحكام الفقه الاسلامى ، وهى باتفاق علماء الأصول عشرة مصادر رتبت حسب أهميتها على الوجه الآتى : الكتاب ، السنة ، الاجماع ، قول الصحابى ، القياس ، الاستحسان ، المصلحة المرسلة ، العرف ، الشرائع السابقة ، وأخيرا : الاستصحاب(٢٧) .

وكما سبق القول فان الأدلة العشرة السابقة تعتبر كلها أدلة شرعية يعتد بها فى استنباط أحكام الفقه الاسلامى ، بصرف النظر عن أن تلك الأدلة ليست كلها محل اتفاق علماء المسلمين خصوصا ما يتعلق منها بالأدلة العقلية(٢٨) . وسوف نضيف الى تلك المصادر « **التفلسف والتشيع** » باعتبارها لعبت دورا أساسيا فى تأصيل الفكر الاجتماعى الاسلامى ، وليس باعتبارها من الأدلة الشرعية .

١ ـ الكتاب :

ويقصد به القرآن الكريم ، وهو المنزل بطريق الوحى بألفاظه

---

(٢٧) صلاح مصطفى الفوال ، **المقدمة لعلم الاجتماع العربى الاسلامى** . القاهرة : دار الفكر العربى ، ١٩٨٢ ، ص ٧٥ ـ ٧٦

(٢٨) زكريا البرى ، **أصول الفقه الاسلامى : الأدلة الشرعية** (ط ٤) . القاهرة : دار النهضة العربية ، ١٩٧١ ، ص ١٣ ـ ١٥

العربية ومعانيه على رسول الله ﷺ • ولقد نقل القرآن الكريم عن طريق التواتر ، ويعتبر أساس الشريعة وأول أصولها ، علاوة على أنه يتعبد به ويتقرب الى الله تعالى بتلاوته فى تمعن وروية •

وللقرآن الكريم العديد من الخصائص والمميزات التى تدخل كلها فى نطاق دراسة « علم الأصول »(٢٩) ، الا أننا سنلقى الضوء على بعض تلك الخصائص التى أثرت فى الفكر السوسيولوجى الاسلامى وذلك على النحو التالى :

(أ) تنظيم الكتاب للحياة المجتمعية للأمة الاسلامية :

تضمنت نصوص القرآن الكريم التشريعات التى تنظم أحكامها مختلف العلاقات الانسانية بشكل محكم الدقة ، بما يكفل خير الأمة الاسلامية وصلاحها • ولم تكن تلك التشريعات التى حوتها نصوص القرآن الكريم من ذلك النوع الشامل والمفصل ، بل كانت أشبه ما تكون بقواعد ومبادىء عامة تمت صياغتها بطريقة كلية ، اللهم الا فيما يتعلق بآيات المواريث والحدود التى كانت ذات دلالة قطعية ولم تترك مجالا لأى اجتهادات أو تفسير •

ولقد نزل الوحى بآيات القرآن الكريم على مدى أكثر من عشرين عاما ، وعلى قدر حاجة المسلمين وطاقتهم على الاستيعاب وطبقا لبعض المواقف التى كانوا يواجهونها •

ان القرآن الكريم قد اشتمل على أحكام كل من « العبادات » ـ كالصلاة ، والصوم ، والزكاة ، والحج ـ وكذلك « المعاملات » ـ فى مجالات الأسرة ، والعلاقات بين الأفراد ، وفى الأخلاقيات ، وفى الوقاية من الأمراض الاجتماعية (مثل القتل والسرقة والزنا والنفاق) ، وفى تشريع الأموال ، وفى موقف القتال دفاعا عن المجتمع •

---

(٢٩) زكريا البرى ، مرجع سابق ، ص ١٦ ـ ٣٥

(ب) اشتمال القرآن على بعض السير والأحداث الاجتماعية :

تضمنت النصوص القرآنية العديد من أخبار الأحداث التى وقعت فى العصور الغابرة ، وكذلك بعض الأحوال الاجتماعية للعديد من الأمم السالفة ـ كأخبار عاد وثمود وقوم لوط ـ كما تضمنت الكثير من أخبار الرسل السابقين على سيدنا رسول الله ـ كأخبار نوح ، وابراهيم أبو الأنبياء ، وموسى وهارون ، وعيسى ابن مريم ، وسليمان ، وغيرهم من الأنبياء عليهم جميعا أزكى السلام • ولا شك أن ذلك الاخبار تناول العديد من الجوانب الاجتماعية لمجتمعات أولئك الرسل •

(جـ) تنبؤ القرآن ببعض الأمور المستقبلية :

بمثل ما تحدثت النصوص القرآنية عن الماضى السحيق ، فقد تنبأت أيضا ببعض الحوادث التى ستحدث مستقبلا • والثابت أن تلك الحوادث قد وقعت بنفس الكيفية التى أخبر عنها القرآن الكريم •• فقد حدث ما تنبأ به القرآن الكريم فى الكثير من المواقف نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر : نصر المسلمين يوم غزوة بدر الكبرى ، فتح مكة ، انتصار الروم على الفرس ، ضرب الذلة على أشرار اليهود فى جميع الأزمان ••• الخ •

(د) علميــة القرآن :

تضمن القرآن العديد من الحقائق العلمية والأسرار الكونية التى لم يكشف عنها العلم الا مؤخرا • وهذه الحقائق التى اخبر عنها القرآن ـ وكانت من قبل أسرارا ـ كثيرة جدا ولا يتسع المجال هنا لذكرها • ان ما يهمنا هو الأسلوب العلمى الذى انتهجه القرآن للاقناع ، باعتبار أن القرآن هو شريعة كل زمان ومكان •• مع الأخذ فى الاعتبار أن القرآن لم يكن يستهدف سرد الحقائق العلمية الكونية كحقائق مجردة بقدر ما كان يرمى الى هداية الناس وتزيين الايمان الى نفوسهم ، بما يمكنهم من اقامة مجتمع صالح ، فضلا عن عبادة الله على أسس وطيدة صحيحة •

واذا نظرنا الى ما جاء فى آيات القرآن الكريم نجد أنها توضح فروع العلم والمعرفة على النحو الذى الذى انقسمت اليه فى هذا العصر من طبيعة جوية وطبيعة أرضية وكيمياء وحيوان ونبات مما يدرس فى أرقى جامعات الأرض(٣٠) . يقول الله تعالى :

« ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا الوانها ، ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف الوانها وغرابيب سود . ومن الناس والدواب والأنعام مختلف الوانه كذلك ، انما يخشى الله من عباده العلماء ، ان الله عزيز غفور » .

(فاطر : ٢٧ - ٢٨)

ان القرآن عندما يذكر تفصيلات العلم على هذا النحو يعقب بقوله: **« انما يخشى الله من عباده العلماء »** .. فأى دليل أوضح ، وأى بيان أفصح من هذا للتدليل على أن سلم الرقى الى الله تعالى هو نفسه سلم المعرفة الصحيحة والعلم القويم ممثلا فى دراسات الجو والنبات والصخور والمعادن والحيوان والانسان .. ثم أى تكريم للعلم والعلماء أسمى من هذا ، أو فى قوله تعالى : **« بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم .. »** .

(العنكبوت : ٤٩)

ولا يفوتنا فى هذا المقام ذكر أن أول ما نزل من القرآن الكريم على الاطلاق كان ايذانا ببزوغ فجر العلم وحثا على طلبه ، قال تعالى :

« اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الانسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الانسان ما لم يعلم » .

(العلق : ١ - ٥)

ولقد خاطب القرآن العقول ، ووجه الحديث الى أهل العلم والمعرفة فى مواضع عديدة ، منها قوله تعالى :

---

(٣٠) جون مونسما (ترجمة الدمرداش عبد المجيد سرحان) ، **الله يتجلى فى عصر العلم** . القاهرة : دار احياء الكتب العربية ، ١٩٦١ ، ص ١٦٥ - ١٦٨

● « .. قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنـا .. » .
(الأنعام : ١٤٨)

● « ومن آياته خلق السـموات والأرض واختـلاف السـنتكم والوانكم ، ان فى ذلك لآيات للعالمين » . (الروم : ٢٢)

● « ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا وينزل من السماء ماء فيحيى بـه الأرض بعد موتها ، ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون » .
(الروم : ٢٤)

(هـ) القرآن كمنهج للهداية والاصلاح :

لقد حث الله تعالى الانسان على التفكير فى الكون ، والنظر فى الظواهر الكونية المختلفة ، وتأمل بديع صنعه ومحكم نظامه . كمـا حثه على تحصيل العلم ومعرفة سنن الله وقوانينه فى جميع ميادين العـلوم المختلفة . ونحن نجد هذه الدعوة الى الملاحظة والتفكير والبحث والتحصيل العلمى فى أكثر من موضع فى القرآن الكريم(٣١) :

● « أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها ، فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور » .
(الحج : ٤٦)

● « أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت . والى السماء كيف رفعت . والى الجبال كيف نصبت . والى الأرض كيف سطحت . فذكر انما أنت مذكر » . (الغاشية : ١٧ ـ ٢١)

● « أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء .. » . (الأعراف : ١٨٥)

● « ان فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من مـاء

---

(٣١) محمد عثمان نجاتى ، القرآن وعلم النفس . القاهرة : دار الشروق ، ١٩٨٢ ، ص ١٢٤ ـ ١٢٧

فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون » .   (البقرة : ١٦٤)

● « فلينظر الانسان الى طعامه . أنا صببنا الماء صبا . ثم شققنا الأرض شقا . فأنبتنا فيها حبا . وعنبا وقضبا . وزيتونا ونخلا . وحدائق غلبا . وفاكهة وأبا . متاعا لكم ولأنعامكم » .
(عبس : ٢٤ – ٣٢)

ويتضح حرص القرآن الكريم على دعوة الناس الى التفكير من ورود كثير من الآيات التى تتضمن مثل هذه العبارات : « أفلا يعقلون » ، « أفلا يتفكرون » ، « لعلكم تعقلون » ، « لعلكم تتفكرون » ، « أفلا يتدبرون » ، « لقوم يتفكرون » ، « لقوم يعقلون » . ولقد أوضح القرآن أهمية التفكير فى حياة الانسان ، ورفع من قيمة الانسان الذى يستخدم عقله وتفكيره ، وحط من شان الذى لا يستخدم عقله وتفكيره بأن جعله أدنى درجة من الحيوان . قال تعالى :

● « ان شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون » .
(الأنفال : ٢٢)

● أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ، ان هم الا كالأنعام ، بل هم أضل سبيلا » .   (الفرقان : ٤٤)

أما عن منهج القرآن من حيث الهداية والاصلاح ، فاننا نجد أن أفضل طريقة للتخلص من انفعال ما – كانفعال الخوف مثلا – هى أن نقوم تدريجيا باحلال انفعال معارض لانفعال الخوف ، كانفعال السرور أو الحب مثلا ، محل انفعال الخوف حتى نصل فى النهاية الى التخلص من الخوف . وبهذه الطريقة يمكن أن نتخلص من عاداتنا السيئة ، بأن نحل محلها عادات معارضة ، وهو أسلوب يتبعه بعض علماء النفس المحدثين فى العلاج النفسى(٣٢) .

---

(٣٢) محمد عثمان نجاتى ، مرجع سابق ، ص ١٧٠ – ١٧٥

ولقد كان للعرب قبل الاسلام بعض العادات السيئة المستقرة فى سلوكهم ، ولم يكن من السهل فى المرحلة الأولى من الدعوة الإسلامية أن يطلب من المسلمين التخلى عن بعض عاداتهم السيئة القوية التى ألفوها مدة طويلة من الزمن ، ولذلك فقد اتبع الاسلام فى علاج هذه العادات السيئة أسلوبين :

الأسلوب الأول : هو « تأجيل » علاج هذه العادات حتى يستقر الايمان فى قلوب المسلمين ، بحيث يمكن الاستعانة بقوة الايمان كدافع قوى يسهل عملية التخلص من العادات السيئة المستحكمة ، وتعلم عادات جديدة بدلا منها . ولهذا السبب كانت معظم آيات القرآن التى نزلت بمكة فى المرحلة الأولى من الدعوة الاسلامية تتعلق أساسا بالدعوة الى عقيدة التوحيد . وكان الرسول - عليه أفضل الصلاة والسلام - يتعهد من يؤمنون بدعوته بالتربية الروحية لترسيخ الايمان والتقوى فى نفوسهم . ولا شك أن ذلك كان مرحلة هامة وضرورية فى الاعداد النفسى للمسلمين ، بحيث أصبحوا فى حالة تهيؤ تام لتغيير سلوكهم وعاداتهم وأفكارهم ونظام حياتهم تغييرا جذريا شاملا . كما جعلهم أيضا فى حالة استعداد لقبول الآيات التى نزلت فيما بعد للنهى عن عادات كانت شائعة فيما بينهم ، ما كانوا فى أول عهدهم بالاسلام مستعدين لتقبلها كالنهى عن شرب الخمر والربا . ولكن بعد أن رسخ الايمان فى قلوب المسلمين ، كان ذلك الايمان دافعا قويا الى الطاعة التامة لله وللرسول ، والى تقبلهم عن رضا كل ما يؤمرون به حتى ولو كان ذلك يتطلب منهم الامتناع عن عادات قديمة كانت قد استقرت فى سلوكهم من قبل لسنوات طويلة . وعلى ذلك فحينما نزلت آيات تحريم الخمر امتنع المسلمون جميعا عن شربه ، وقاموا بسكب كل ما لديهم منه فى شوارع المدينة .

والأسلوب الثانى الذى استخدمه القرآن فى علاج المسلمين من عاداتهم السيئة المستقرة القوية كان عبارة عن « التهيئة المتدرجة » لنفوس المسلمين للتخلص من هذه العادات ، وذلك عن طريق التكوين التدريجى لاستجابة معارضة لتلك الاستجابة المطلوب التخلص منها . وقد اتبع القرآن هذه

الطريقة فى علاج مشكلة شرب الخمر ·· فقد عمد القرآن الكريم فى أول الأمر الى تنفير المسلمين من شرب الخمر ، دون أن يقوم بتحريمها تحريما تاما ، وبعدئذ تدرج بهم الى التحريم التام · فكانت أول آية نزلت فى الخمر تشير الى أن مضارها أكثر من منافعها ، وفى هذا تنفير للمسلمين منها ، وحث على الامتناع عن شربها · قال تعالى : **« يسألونك عن الخمر والميسر ، قل فيها اثم كبير ومنافع للناس واثمهما أكبر من نفعهما »** ·
(البقرة : ٢١٩)

وقد قام بعض الصحابة فعلا بترك شرب الخمر بعد نزول هذه الآية ·

ثم تدرج القرآن بعد ذلك الى درجة أشد حزما فى تنفير المسلمين من شرب الخمر ، وفى حثهم على الامتناع عن تناولها ، حينما كان بعض الصحابة يذهبون الى الصلاة وهم سكارى فيخطئون فى قراءة القرآن · فحرم عليهم كتاب الله أن يقربوا الصلاة وهم سكارى · وهذا فى الواقع تحريم لشرب الخمر فى معظم أوقات اليوم · قال تعالى : **« يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ·· »** · (النساء : ٤٣)

لقد كان هذا الامتناع عن شرب الخمر خمس أوقات فى اليوم ، وهى تشمل معظم ساعات اليوم تقريبا ، انما كان بمثابة تدريب للمسلمين على الاقلاع عن شرب الخمر · وقد جعلهم هذا متهيئين نفسيا للانتقال الى المرحلة التالية وهى الامتناع نهائيا عن تعاطى الخمر ، وذلك عندما نزلت الآية التالية التى حرمت الخمر تحريما تاما ، قال تعالى : **« يا أيها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون · انما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة ، فهل انتم منتهون »** · (المائدة ٩٠ ــ ٩١)

* * *

٢ ـ السـنة النبوية :

« السـنة » فى اللغة هى « الطريقة » ، محمودة كانت أو مذمومة ، جاء فى الحديث النبوى الكريم : « من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها الى يوم القيامة ، ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها الى يوم القيامة » . (رواه مسلم)

وهى فى اصطلاح المحدثين : ما أثر عن النبى ﷺ من « قول » أو « فعل » أو « تقرير » أو « صفة خلقية » أو « سيرة » .

وفى اصطلاح الأصوليين : ما نقل عن النبى ﷺ من « قول » أو « فعل » أو « تقرير » .

فمثال القول : ما تحدث به النبى ﷺ فى مختلف المناسـبات مما يتعلق بتشريع الأحكام ، كقوله عليه الصلاة والسلام : « انما الأعمال بالنيات » . (رواه البخارى ومسلم)

ومثال الفعل : ما نقله الصحابة من افعال النبى ﷺ فى شـئون العبادة وغيرها .. كأداء الصلوات ، ومناسك الحج ، وآداب الصيام .

ومثال التقرير : ما اقره الرسول ﷺ من افعال صدرت عن بعض أصحابه بسكوت منه مع دلالة الرضا ، أو باظهار استحسان وتأييد(٣٣) .

فالسنة بألفاظها من عند الرسول ، ولكن معانيها ملهمة من عند الله .. لذلك فالسنة ـ باجماع كل الفقهاء ـ تعتبر المصدر الثانى للتشريع الاسلامى. واجماع الفقهاء بحجية السنة ليس اجتهادا منهم ، ولكنه أمر نزل به الوحى متمثلا فى الآيات الكريمة الآتية :

- « ومـا آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنـه فانتهوا .. » .
(الحشر : ٧)

---

(٣٣) عز الدين بليق ، منهاج الصالحين من أحاديث وسـنة خاتم الأنبياء والمرسلين . بيروت : دار الفتح للطباعـة والنشر ، ١٩٧٨ ، ص ١٣ ـ ١٤

● « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجوا الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا » • (الأحزاب : ٣١)

● « من يطع الرسول فقد أطاع الله ، ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظا ••• » (النساء : ٨٠)

● « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ، فان تنازعتم فى شىء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، ذلك خير وأحسن تأويلا » • (النساء : ٥٩)

● « انما كان قول المؤمنين اذا دعوا الى الله ورسـوله ليحكم بينهم أن يقولوا سـمعنا وأطعنـا ، وأولئـك هم المفلحـون » •

(النور : ٥١)

وهناك خلافات جوهرية فيما بين القرآن والسنة ، لعل من أهمها أن السنة كانت اجتهاداً من الرسول ﷺ فى أمر من الأمور لم يرد فيـه نص قرآنى ، أو تفسير لمجمل النص القرآنى ، أو توضيح لكيفية أداء فريضة •• فان كان اجتهاد الرسول الكريم فى محله ـ وغالبا ما كان فى محله ـ سكت القرآن عنه ، والا فالوحى يهبط بالرأى الربانى فيمـا اجتهد فيه الرسول صلوات الله وسلامه عليه(٣٤) •

٣ ـ الاجتهاد :

المقصود بـ« الاجتهاد » هنا هو اجتهاد فى الرأى ، سواء فيما يتصل بتفسير القرآن الكريم أو الأحاديث النبوية الشريفة ، أو فيما يتصل بابداء الرأى حول أمر لم يرد فيه نص قرآنى أو لم تتناوله السنة النبوية •• ونظرا لقـلة أو لندرة ما تركته النصوص القرآنية أو السنة النبوية بغير رأى ، فقد حاول الاجتهاد أن يتعمق فى مختلف الظروف المحيطة بالواقعة أو الأحداث محل الاجتهاد محللا ومفسرا حتى يصل الى الرأى الصواب •

---

(٣٤) صلاح مصطفى الفوال ، مرجع سابق • ص ٧٨

ومن الطبيعى ان تتضمن تلك الظروف موضع التحليل أو التفسير نظما وأوضاعا مجتمعية عديدة قائمة بالفعل أو مستهدفة فى المستقبل ٠

وفى عهد سيدنا رسول الله كان هو المجتهد الأول ، ولكن بعد أن أدى رسالته وانتقل الى الرفيق الأعلى ٠٠ وامتداد الفتح الاسلامى فى عهد الصحابة ليضم شعوبا عديدة كفارس والشام ومصر - وهى شعوب وبلدان ذات حضارة تمتد الى أقدم العصور - فان الأمر استلزم الاجتهاد حتى يمكن مواجهة تلك الظروف الجديدة والمتغيرة لأحوال المسلمين ٠ وتصدى للاجتهاد فى ذلك الوقت كبار الصحابة ، وهم الذين اختصوا بدراسة علم الرسول والتلقى عنه فضلا عن ملازمتهم له ٠ وكان من الطبيعى أن تكون فتاوى الصحابة مرتكزة على ما أخذوه عن الرسول الكريم ، سواء أكان وحيا يوحى به صراحة كالقرآن الكريم أو ضمنا كالسنة النبوية ٠

ولم يكن الاجتهاد قاصرا على الصحابة وحدهم ، وانما كان حقا لكل علماء المسلمين ، وارتكز على عدة عوامل أهمها(٣٥) :

(أ) مدى تمكن المجتهد من مختلف مصادر الشريعة الاسلامية واحكامها وقدرته على الالمام بكل أسرارها ، حتى لا يجتهد فيما لا يصح فيه اجتهاد ٠

(ب) الظروف المجتمعية المتغيرة التى استوجبت الاجتهاد ، بما لها من جوانب سياسية واجتماعية واقتصادية وثقافية ٠

(جـ) سمعة المجتهد وانتماءاته المجتمعية ، لأن سمعته كثقة هى التى تجعل لاجتهاده قيمة ، وانتماءاته هى التى تحدد لنا اتجاهات ذلك الاجتهاد ومراميه ٠

وبالاضافة الى اجتهاد الصحابة فهناك « الاجماع » و « القياس » ٠٠ ويقصد بـ « الاجماع » اتفاق جميع المجتهدين من المسلمين فى عصر من العصور ، بعد عهد الرسول ﷺ ، على حكم من الأحكام الشرعية

---

(٣٥) صلاح مصطفى الفوال ، **مرجع سابق** ، ص ٨٣

العملية(٣٦) • ويشترط لصحة الاجماع أن يكون مستندا الى دليل شرعى من الكتاب أو السنة أو القياس ، وأن يكون باتفاق جميع المجتهدين فى امور الدين وقت حدوث المسألة المطروحة وبحثها • وعلى ذلك فان الاجماع اصبح من حيث التطبيق شبه مستحيل الآن الا فيما قد سلف •

ويعنى « القياس » الحاق فرع بأصل لمساواته له فى علة هذا الحكم • وللقياس اركان أربعة هى : « أصل » يقاس عليه وورد فيه نص من الكتاب أو السنة أو أجمع عليه ، و « فرع » يقاس أو يطلب فيه الحكم بطريق القياس ، و « الحكم » الذى صدر على الأصل والذى يراد مساواة الفرع فيه ، وأخيرا « علة الحكم » ويشترط أن تكون واحدة فى الأصل والفرع •

٤ ـ المصادر الفرعية أو التبعية :

وتضم الاستحسان ، والمصالح المرسلة ، والعرف ، والاستصحاب • وسميت هذه المصادر بالفرعية أو التابعة أو التبعية لأنها تابعة عن المصادر الأربعة الرئيسية وهى : الكتاب ، والسنة ، والاجماع ، والقياس ، وتعتبر متممة لها • وهذه المصادر الفرعية أو التابعة غير معترف بها من كل الطوائف والمذاهب الاسلامية ، ولكل منها حجته فى الرفض أو القبول(٣٧)•

٥ ـ الشرائع السابقة :

جاءت الشريعة الاسلامية متممة للشرائع السماوية التى سبقتها ، ولم تنسخ من تلك الشرائع الا ما نزل منها لأسباب خاصة أو لزمان معين • وكثيرا ما يذكر القرآن الكريم أو تروى السنة النبوية بعضا من الأحكام التى أوردتها الديانات السابقة على الاسلام كاليهودية أو المسيحية • ومع ذكر تلك الأحكام قد يصاحبها ما يؤيدها أو ما يدل على نسخها ، وقد لا يصاحبها شىء من ذلك • والذى أكد أو نسخ من تلك الأحكام متفق

---

(٣٦) زكريا البرى ، **مرجع سابق** ، ص ٥٦

(٣٧) صوفى أبو طالب ، **تطبيق الشريعة الاسلامية فى البلاد العربية**، القاهرة : دار النهضة العربية ، ١٩٧٥ ، ص ٢٩ ـ ٥٢

عليه ، أما الذى لم يرد فيه نص يؤكده أو ينسخه فقد اختلف بشأنه الفقهاء بين مطالب للأخذ به وبين رافض لذلك ، ولكل حجته(٣٨) ٠

٦ ـ التفلسف والتشيع :

نتيجة لاختلاف المسلمين بعد استشهاد ثالث الخلفاء الراشدين عثمان ابن عفان رضى الله عنه ، وتولى على بن ابى طالب كرم الله وجهه امور خلافة المسلمين ، ومنازعة معاوية بن ابى سفيان له ، وما صاحب ذلك كله من صراعات فكرية ما لبثت أن تحولت الى صراعات دامية ٠٠ نتيجة لذلك كله ظهرت العديد من الفرق والأحزاب التى تشايع فريقا دون فريق ٠

وليس المهم هنا هو مدى صحة ادعاء كل فريق ، ولكن الذى يعنينا فى هذا المجال هو ان كل فريق انما كان يعبر عن واقع اجتماعى يحياه ، هذا الى جانب أن كل فريق استخلص لنفسه من الكتاب والسنة ما يؤيد وجهة نظره ٠ وكان كل فريق حتى يثبت دعاواه لا بد وأن ينطلق من رؤية خاصة فيما يقوله أو يدعو اليه ، ونشأت كرد فعل لذلك العديد من الفرق كالشيعة والخوارج والمعتزلة وغيرها ٠

* * *

● **النظام الاجتماعى الاسلامى :**

ان النظام الاجتماعى الاسلامى الذى نشأ وازدهر حتى عم ثلاثة أرباع الكرة الأرضية ، كان يستند الى نظرية اجتماعية اسلامية تنطوى على العناصر الآتية(٣٩) :

١ ـ **امتياز الاسلام بالصفة الانسانية ٠**
٢ ـ **امتياز الاسلام بالعمومية الاجتماعية ٠**
٣ ـ **امتياز الاسلام بالجاذبية الاجتماعية ٠**
٤ ـ **امتياز الاسلام بالموضوعية ٠**

---

(٣٨) زكريا البرى ، **مرجع سابق** ، ص ١٧٤ ـ ١٨٠
(٣٩) سيد عبد الحميد مرسى ، **الدين للحياة** « سلسلة دراسات نفسية اسلامية (٥) » ٠ القاهرة : مكتبة وهبة ، ١٩٨٦ ، ص ٩٠ ـ ٩٨

٥ ـ امتياز الاسلام بالالزام الاجتماعى .

٦ ـ امتياز الاسلام بالترابط الاجتماعى .

* * *

● **أهداف علم الاجتماع الاســـلامى :**

« علم الاجتماع الاسلامى » علم قائم بذاته ، ينطلق من منطلقات اسلامية فى مجتمعات اسلامية ، يدرس ما يتردد فيها من ظواهر وعلاقات اجتماعية تسود فيها وتنتشر بين افراد مجتمعاتها ، بحيث يكون لها صفة التكرار .. وانطلاقا من هذا المفهوم كان لعلم الاجتماع الاسلامى أهدافه التى يرمى اليها من خلال دراسته ، وأهم هذه الأهداف هى(٤٠) :

١ ـ اظهار ما فى الدين الاسلامى بعامة ، والقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة بخاصة ، من سنن الاجتماع ، وقواعد العمران ، ومبـادىء الظواهر والنظم الاجتماعية التى تحكم أحوال البشر وتدفعهم لترسيخ هذه العلاقات وتوطيدها .

٢ ـ احياء تراث المفكرين الاجتماعيين من المسلمين ، وتجلية دورهم الطليعى فى انشاء العديد من العلوم الحديثة .. أمثال : الفـارابى ، والغزالى ، وابن مسكويه ، والبيرونى ، وابن خلدون ، وغيرهم من الرواد الأوائل فى المجالات الانثروبولوجية والسوسيولوجية ، مما يجعلنا نقف على اصالة تفكير هؤلاء الرواد فى الفكر الاجتماعى والذى أقاموه على أسس من الدراسات والرحلات الميدانية التى طوفوا بها الآفاق .

٣ ـ اظهار الأسلوب العلمى فى الدين الاسلامى ، من خلال وضـع شريعته لقواعد الاجتماع الانسانى ونظمه ، ومدى التكامل العضوى فى هذه النظم والعلاقات الاجتماعية الاسلامية .

٤ ـ توضيح دور الدين الاسلامى كأداة بناءة للضبط الاجتماعى ،

---

(٤٠) زكى محمد اسماعيل ، **نحو علم الاجتماع الاسلامى** . القاهرة : دار المطبوعات الجديدة ، ١٩٨١ ، ص ٥٣ ـ ٦٧

وذلك من خلال تشريعاته ومعاملاته من ناحية ، وباعتباره أداة للتطوير والتغيير الاجتماعي من ناحية أخرى .

٥ ـ جعل الدراسة المقارنة أساسا في دراسة علم الاجتماع الاسلامى ؛ وذلك انطلاقا من القاعدة المنطقية التى تقول : « وبضدها تتمايز الأشياء » لا سيما وأن المقارنة هى العنصر الأساسى فى كل دراسة علمية منهجية .

٦ ـ البحث فى نشوء وتطور الظواهر والنظم والعلاقات الاجتماعية الاسلامية ، وأسباب استمرارها وانتشارها والقوانين التى تحكمها ، وذلك من خلال نظرة اسلامية عميقة .

٧ ـ الوصول بالمنهج العلمى المستخدم كأداة للبحث فى علم الاجتماع الاسلامى الى أهم قوانين الاجتماع البشرى .. وذلك من خلال السنن الاسلامية التى تحكم العلاقات الاجتماعية فى المجتمعات الاسلامية .

٨ ـ الافادة من الاطار النظري لعلم الاجتماع الاسلامى فى مجال التطبيق ، خاصة فى معالجة الظواهر غير السوية فى الاسلام كشرب الخمر أو الاتجار بها أو التعامل بالربا ، وذلك عن طريق التوجيه والارشاد الاعلامى التدريجى ، لتغيير مثل تلك الظواهر ، اقتداء بأسلوب القرآن الكريم فى أوامره بتغيير عادات العرب التى ورثوها من عهد الجاهلية .

٩ ـ التصدي للقضايا العديدة التي تثار في مجال علم الاجتماع المعاصر من منطلقات مادية الحادية .. كالقضية القائلة بأن الدين من صنع المجتمع ، أو انه ظاهرة نشأت بنشأة المجتمعات دون أى تحديد لمفهوم الدين وطبيعته .. الأمر الذى يوحى بانكار الرسالات السماوية برمتها ، وللأنبياء والرسل الذين حملوا تلك الرسالات الهادية للبشر .

١٠ ـ اثراء البحوث الميدانية فى المجتمعات الاسلامية المعاصرة .. وذلك من حيث عوامل التغير الاجتماعى بها فى حركتها أو ركودها ، وتقدمها أو تخلفها ، ومدى استجابتها لتعاليم الاسلام ، ودراسة التيارات الفكرية الدخيلة عليها ومدى انتشارها وخطورة آثارها على المجتمع الاسلامى بعامة والشباب المسلم بخاصة وكيفية التصدى لها ومواجهتها .

وكذا دراسة موضوعات الأسرة والملكية والانتاج فى ضوء الاتجاه الاسلامى دراسة منهجية ميدانية ، بالاضافة الى دراسة رواسب العصور السابقة والاستعمار الدخيل بالدول الاسلامية ، والعادات والتقاليد غير الاسلامية كالشعوذة والسحر والاعتقاد فى الخرافات وانتشار البدع ومدى محاربة الاسلام لها .. حتى تكون هذه الدراسات المنهجية وسيلة للوصول الى نتائج عامة ، تمهيدا لعملية التغيير نحو الأفضل ، وذلك باتباع تعاليم الاسلام السمحة التى تصلح فى تطبيقها على الوجه الأكمل لكل زمان ومكان .

***

● **موضوع علم الاجتماع الاسلامى ومجالاته :**

ان علم الاجتماع الاسلامى - انطلاقا من أهدافه التى ذكرناها فى الفقرة السابقة - يتناول بالدراسة والعرض والتحليل والتفسير عددا من الموضوعات التى تدخل دائرة اختصاصه وأهمها(٤١) :

١ - تناول المعطيات والقضايا الأساسية التى تعتبر مدخلا للنظرية الاجتماعية الاسلامية ، على أن يكون هذا من خلال العرض والتحليل والتفسير السوسيولوجى ، حيث توضح الدراسة دور الدين الاسلامى باعتباره ظاهرة دينية فريدة امتازت بالحراك الدينامى ولها دورها القيادى فى المجتمع .. على أن يحاول علم الاجتماع الاسلامى تطويع المدخل السوسيولوجى لكشف المقومات الأساسية التى أرست بها الدعوة الاسلامية بناء المجتمع ، والأسلوب الذى جاء به الاسلام لترشيد حياة الأفراد ووضع منهج سعادتهم ، وما قرره من مفاهيم العدالة الاجتماعية والاخاء والمساواة والقضاء على الظلم الاجتماعى . قال تعالى :

« **ان هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ..** » (الاسراء : ٩)

٢ - يركز علم الاجتماع الاسلامى على دراسة البناء الاجتماعى الاسلامى من حيث ارتباط نظمه ووظائفه البنائية الثقافية ببعضها البعض فى

---

(٤١) زكى محمد اسماعيل ، مرجع سابق ، ص ٧٢ - ٨٢

نسق بنائى متكامل ٠٠ بمعنى ان تدرس الظواهر والنظم الاجتماعية الاسلامية ـ من خلال بنائها الاجتماعي ـ دراسة وصفية تحليلية ترتبط ببعضها البعض ويفسر بعضها البعض الآخر فى نسق متكامل ، بحيث لا يمكن دراسة نظام ما بعيدا عن النظم الاجتماعية الأخرى ٠٠ فالنظام السياسى الاسلامى يرتبط بالنظام الاقتصادى الاسلامى ، على أساس أن كلا من النظامين يرتبط بالشريعة الاسلامية ويستمد منها مقوماته ودعائمه الأساسية ٠ كما أن الحاكم السياسى فى الاسلام مسئول عن النظام الاقتصادى وجباية الأموال والعدل فى التوزيع الاقتصادى وتوفير سبل العيش للشعب وغيرها فى المجتمع الاسلامى ٠

٣ ـ التركيز على الدور الطليعى للرواد الأوائل من العلماء المسلمين الذين أهتموا بدراسة الاتجاهات والنظم الاجتماعية من منطلق موضوعى ، وابراز الدور الذى قام به كل منهم فى اثراء الفكر الاجتماعى الاسلامى ، باعتبارهم كانوا نقطة الانطلاق فى نشأة الفكر المنهجى الاجتماعى الاسلامى٠

٤ ـ ربط دراسة النظم والأنساق الاجتماعية فى المجتمع الاسلامى وأنه مهما تعددت جماعاتهم وشعوبهم فانهم يجتمعون على عبادة والثروات الباطنية والصناعات الوطنية والكثافة السكانية ، حتى تكون دراسة المجتمع الاسلامى دراسة شاملة متكاملة ٠٠ فالبيئة والثقافة أمران متصلان ومتفاعلان فيما بينهما ، وان اختلف تأثير كل منهما على الآخر باختلاف طبيعة المجتمع نفسه من حيث تقدمه أو تخلفه ٠

٥ ـ دراسة الطرق الصوفية التى انتشرت فى معظم أنحاء المجتمع الاسلامى دراسة منهجية علمية ٠٠ لا من حيث تقييم هذه الطرق ، وانما دراستها دراسة سوسيولوجية من حيث ظواهرها الاجتماعية والأثر المتبادل بينها وبين الثقافة العامة فى مجتمع ما من المجتمعات الاسلامية ٠

٦ ـ الاهتمام بدراسة الأقليات الاسلامية اينما وجدت دراسة منهجية سوسيولوجية ٠٠ فلما كان المسلمون أمة واحدة ، كما قال تعالى :

« ان هذه أمتكم أمة واحدة وانا ربكم فاعبدون » ٠ (الأنبياء : ٩٢)

وأنه مهما تعددت جماعاتهم وشعوبهم فانهم يجتمعون على عبادة رب واحد ويدينون بدين واحد ويتبعون رسالة رسول واحد ، تجمعهم وحدة الفعل فيما يتصل بخير أنفسهم وخير جماعتهم ، بعضهم أولياء بعض .. « .. **يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله** » (التوبة : ٧١)

الأمر الذى يجعل قوة الايمان وعمق العقيدة أقوى من قرابة الدم فى الامتثال للنصح ووجوب الطاعة . قال تعالى : « **يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم واخوانكم أولياء ان استحبوا الكفر على الايمان ، ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون** » . (**التوبة : ٢٣**)

انطلاقا من هذا المفهوم كان على علم الاجتماع الاسلامى الاهتمام بدراسة الأقليات الاسلامية ، من حيث تعداد سكانها ، وقوة العلاقات الاجتماعية فيما بينها وبين سكان المجتمعات التى تعايشها ، والمشكلات الاجتماعية التى تتعرض لها ، وسمات العقيدة الاسلامية التى يدينون بها من حيث العبادات وكيفية مباشرتها واقامة الشعائر .

٧ ـ دراسة الظواهر الثقافية فى المجتمع الاسلامى والتى تباشر باسم الاسلام ، كالاحتفال بالموالد والاعتقاد فى الأولياء ، وزيارة الأضرحة ، وتقديم النذور ، واقامة الزار ، والاعتقاد فى السحر ، الى غير ذلك من الأنماط الثقافية التى تنتشر فى بعض المجتمعات الاسلامية .

* * *

● مجال علم الاجتماع الاسلامى :

من خلال العرض السابق لمفهوم علم الاجتماع الاسلامى وأهدافه وموضوعاته التى تلتقى جميعها عند دراسة النظم والظواهر الاجتماعية فى المجتمعات الاسلامية دراسة بنائية وظيفية متكاملة ، يتضح أن علم الاجتماع الاسلامى يمكن أن يتناول مجالات عديدة من القضايا المتسقة

فيما بينهــا بحيث يمكن التحــدث عن ميــادين عــديدة لعــلم الاجتماع الاســلامى منها(٤٢) :

١ ـ علم الاجتماع العائلى الاسلامى :

وتدور موضوعاته حول البناء الأسرى فى الاسلام ، من حيث نظرة الاسلام الى العائلة وتكوينها ، وطبيعة تشريع الزواج وأهميته والحقوق والواجبات المترتبة عليه لدى كل من الزوجين ، والطبقات التى يحرم بينها التزاوج والقيود التى ترجع الى المصاهرة أو الرضاع ، وتعــــدد الزوجات والقيود التى تحد من ذلك • وموقف الاسلام من التوتر العائلى ، والطلاق فى الاسلام وحكمة اباحته وقيوده ، والدعائم التى يقوم عليها نظام الأسرة فى الاسلام ، وتربية الأبناء وما لهم من حقوق وعليهم من واجبات ، ومدى ما وضعه الاسلام من قيود وضوابط عديدة تحقق للأسرة الاستقرار الشامل باعتبارها اللبنة الأساسية فى المجتمع •

٢ ـ علم الاجتماع الحربى الاسلامى أو « علم اجتماع الجهاد » :

ويتناول دوافع الحرب أو « الجهاد » فى الاسلام ، كما يشمل دراسة المغزى الاجتماعى لغزوات الرسول عليه الصلاة والسلام ، وسبب انتصار المسلمين الأولين الذين سعوا الى الجهاد ابتغاء احدى الحسنيين : النصر أو الشهــادة : « **قل هل تربصــون بنا الا احــدى الحسنيين ••** » •
(**التوبة** : ٥٢)

كما يشتمل الموضوع على نظرة مقارنة بين طبيعة الجهــــاد فى الاســــلام وظاهرة الحرب كظاهرة اجتماعية كامنة فى طبيعة المجتمع الانسانى لهــا دوافعها العميقة • وتمتد دراسة طبيعة الجهاد الاســــلامى الى الجهاد فى عالمنا الاسلامى المعاصر ودوافعه الأكيدة ، خاصة تلك التى تتصل بتحرير الأوطان الاسلامية كفلسطين والمسجد الأقصا وأفغانستان ، وطبيعة الجهاد لدى الأقليات الاسلامية المنتشرة فى أنحاء العالم •

---

(٤٢) المرجع السابق ، ص ٨٢ ـ ٨٦

٣ ـ علم اجتماع المسـجد :

ويعتبر من أهم فروع الاجتماع الاسلامى ، لا باعتبار المسجد نشـأ كدار عبادة فحسب ، وانما للدور الطليعى القيادى للمسجد فى الحياة الاجتماعية فى الاسلام ٠٠ فالمسجد فى عهد الرسول عليه الصلاة والسلام قـام مقـام مجلس الشورى اليوم ، كما تشاور فيه الخلفاء الراشدون فى شئون الحرب والمعاهدات والصلح(٤٣)٠وكانت المساجد فى عهـد الازدهار الاسلامى تقوم بدور المعاهد والمدارس والمبرات والنوادى الثقافية فى عصرنا الراهن ٠ كما قامت المساجد بدور الجمعيات الخيرية لجمع الصدقات والزكاة ، وكمستشفيات عسكرية ، ودور للقضاء والصلح بين النـاس ، ولضيافة الوفود ٠

ولا يقتصر علم اجتماع المسجد على الخلفية التاريخية لايضـاح المعطيات الروحية والاجتماعية لرسالة المسجد ، وانما يتناول موقف المسجد المعاصر واثره فى جمع كلمة المسلمين وتأكيد الصلات بينهم ، وما ينشأ من الظواهر الاجتماعية عند تجمع المسلمين للصلاة فى أيام الجمع والأعياد والصلوات الطارئة كصلاة الاستسقاء وغيرها ٠ كما ينبغى أن تشمل الموضوعات الدراسات الميدانية السوسيولوجية المتعلقة بالمساجد ودورها فى رفع الوعى الاجتماعى الاسلامى من حيث ما بدأت تزخر بـه المكتبات الاسـلامية وما يلحق بها من المراكز الصحية والتعليمية ، ومكاتب تحفيظ القرآن ، وتخريج الدعاة والوعاظ والمرشدين ، الى غير ذلك من الرسالة الثقافية الروحية الشـاملة ٠

❋ ❋ ❋

---

(٤٣) محمد محمد أبو شهبة ، « رسالة المسجد فى صدر الاسلام » ، مجـلة البحوث الاسـلامية ٠ الريـاض : ادارة البحوث العلميـة والافتاء والدعوة والارشاد ، ١٣٩٦ هـ ، ص ٤٨٥ ـ ٤٩٢ ٠

الفصل الثانى

رواد الفكر الإسلامى

● مدخـــــل :

سنتناول فى هذا الفصل الحديث عن عدد من رواد الفكر الاجتماعى الاسلامى ، وسنحاول أن نبرز أهم الملامح السوسيولوجية لفكر أولئك الرواد . وسوف نعرض لفكر واسهامات كل من :

١ ـ الفـــارابى :

معلم الانسانية الثانى بفكره الاجتماعى المتميز ، الذى اختلطت فيه الحكمة اليونانية بالأصالة الاسلامية .

٢ ـ الغـــزالى :

امام الصوفية الأول وعلمها ، أبو حامد الغزالى ، وسوف نحاول أن نغوص فى أعماق فكره الصافى ومنهجه الأخاذ .

٣ ـ ابن مســـــكويه :

الفقيه العالم بمثالياته وأخلاقياته وبصمات الفكر اليونانى الواضحة عليه .

٤ ـ البـــيرونى :

أحد عمالقة الفكر الانسانى ، وهو نموذج مشرق للعقل العربى المبدع من خلال حسن فهمه وتعبيره عن الواقع الاجتماعى الذى عاشه .

٥ ـ ابن خـــلدون :

عملاق آخر من عمالقة الفكر الانسانى ، ورائد علم الاجتماع ، بمنهجيته وعلمه الذى انتزع التقدير والاعجاب ، وقد سبق زمنه بالابداع فى التفكير .

الفـــــارابى

هو « أبو نصر محمد الفارابى » (٢٥٧ ـ ٣٣٩ هـ) .. تتمثل اسهاماته السوسيولوجية من خلال كتابه « آراء أهل المدينة الفاضلة »(١) حيث ضمن ذلك الكتاب العديد من آرائه الاجتماعية .

والواقع أن آراء الفارابى الاجتماعية قد اختلطت لديه بالكثير من الآراء الفلسفية والفقهية ، خصوصا ما اتصل منها بالفلسفة اليونانية والاسلامية ، الا أن هذه الآراء ـ ان دلت على شىء ـ انما تدل على اجتهاد سوسيولوجى مبكر اتجه نحو دراسة المجتمع والعمل على صلاحه ، وفقا لأسس مثالية تزاوجت خلالها الفلسفة بالدين ، ومثلت آراء « أفلاطون » حجر الزاوية فيها(٢) .

ولقد تعرض الفارابى فى كتابه المذكور للنقاط الآتية :

١ ـ ضرورة التجمع الانسانى :

أوضح الفارابى ـ من خلال ايمانه بالكثير من آراء افلاطون وأرسطو ـ أن الاجتماع الانسانى ضرورى ، ويرجع ذلك ـ فى رأيه ـ الى أن الانسان قد فطر على حاجته الى الاجتماع والتعاون .. « فكل واحد من الناس مفطور على أنه محتاج فى قوامه وفى أن يبلغ أفضل كمالاته الى أشياء كثيرة لا يمكنه أن يقوم بها كلها وحده ، بل يحتاج الى قوم يقوم له كل واحد منهم بشىء مما يحتاج اليه .. ولا يتأتى ذلك الا باجتماعات جماعة كثيرة يقوم كل واحد ببعض ما يحتاج أليه قوامه »(٣) .

---

(١) أبو نصر محمد الفارابى ، آراء أهل المدينة الفاضلة (ط ٢) . القاهرة : مكتبة ومطبعة محمد صبيح ، ١٩٤٨
(٢) صلاح مصطفى الفوال ، مرجع سابق ، ص ١١٣ .
(٣) أبو نصر محمد الفارابى ، مرجع سابق ، ص ٧٧ ـ ٧٨ .

٢ ـ أشكال التجمع الانسانى :

تناول الفارابى أشكال التجمع على أساس فريد .. حيث أوضح أن من هـذه الأشكال ما يمكن أن يوصف بأنه اجتماعات انسانية كاملة ، ومنها ما يصفه بأنه غير كامل ، ثم رتب تلك المجتمعات الكاملة تدريجيا الى ثلاثة مستويات تتراوح ما بين العظمى والوسطى والصغرى . وقد ارتكز الفارابى فى تقسيمه لأشكال التجمعات الانسانية على حجم كل منها ومقدرته على سد حاجات أعضائه . ويرى الفارابى أن « المجتمعات العظمى » فى اجتماعات الجماعة كلها على المستوى الانسانى فى المعمورة ، أما « المجتمعات الوسطى » فيمثلها اجتماع أمة على المستوى القومى فى جزء من المعمورة ، ونمثل « المجتمعات الصغرى » اجتماع أهل مدينة على المستوى الاقليمى أو المحلى .

أما عن المجتمعات غير الكاملة فيصنفها الفارابى أيضا الى ثلاثة مستويات .. أكملها اجتماع أهل القرية وأهل الحلة (الجيرة أو الحى) ، ويليها اجتماع فى السكة (الشارع) ، أما المستوى الثالث فيمثله اجتماع فى المنزل .

٣ ـ طبيعة المدن :

المدن عند الفارابى اما « مدن فاضلة » أو « مدن غير فاضلة » .. والفيصل بين هـذه وتلك ـ كما يقول الفارابى ـ أن يكون هدف الاجتماع الانسانى خلالها هو « التعاون على الأشياء التى تنال بها السعادة ، واذا ما تحققت تلك السعادة القائمة على الحقيقة فتكون تلك هى « المدينة الفاضلة » .

(أ) المدينة الفاضلة :

شبهها الفارابى بأعضاء الجسد الواحد الكامل والسليم ، حيث تتعاون كل الأجزاء لحفظ الحياة واستمرارها تحت رئاسة عضو أساسى هو « القلب » الذى تعاونه بعض الأعضاء ، ومنها ما يدانيه مرتبة وما يقل عنه مراتب ، كذلك حال المدينة الفاضلة .. تتكون من أجزاء مختلفة

ومتمايزة ، ويشكل الرئيس رأس هـذه المدينة وزعيمها ومصدر الحيـاة فيها ٠٠ وتكون المدينة فاضلة ـ فى رأى الفارابى ـ اذا ما أدى كل فرد فيها دوره كما يجب ، فضلا عن شـيوع علاقات التوافق والتعاون بين مختلف هيئاتها ، هـذا علاوة على ضرورة أن يتوافر فى رئيس المدينـة الفاضلة العديد من الشروط منهـا الفطرى ومنهـا المكتسب ٠ فقد حدد الفارابى الشروط التى يجب أن تتوافر فيمن يتولى رئاسة المدينة الفاضلة فى اثنى عشر شرطا أو فضيلة منها ست فضائل مطبوعة أو موروثة ، ومنها ست أخرى مكتسـبة ٠

وعن الصفات المطبوعة / الموروثة فى الرئيس ، فيجب أن يكون تام الأعضاء ، وأن يكون سليم العقل ـ بمعنى جودة الفهم وجودة الحفظ وجودة الفطنة والذكاء ـ وأن يكون حسن العبارة ، محبا للعلم ، وعلى خلق حميدة تتمثل ـ فى رأى الفارابى ـ فى الآتى : عدم الشراهة باللذات الدنيوية ، وحب الصدق ، وعفة النفس ، والزهد فى أعراض الدنيـا ، وحب العدل ، وأخيرا قوة العزيمة مع الاقدام ٠

أما عن الصفات المكتسبة فهى : أن يكون حكيما فيلسوفا ، وأن يكون عالمـا بالشرائع والسنن والسير ، وأن يكون قادرا على القياس حتى يعينه ذلك على الاسـتفادة من تراث السـلف ، وأن يكون قادرا على الابتكار ، وأن تكون لديه القدرة على تعليم الناس ، وأن تتوفر لديه القوة البدنية التى تمكنه من أن يكون القائد الأعلى للمحاربين فى مدينته ٠

(ب) المدينـة غير الفاضلة :

وهى بالضرورة مدن لا تتوفر لهـا نفس مواصفات المـدن الفاضلة سـواء من حيث طبيعة التكوين أو من حيث الرئاسـة ، وقد قسـمها الفارابى الى خمسـة مراتب أسـاسية هى : مدن الجاهلية المسـتقلة ، والمـدن الفاسقة ، والمـدن المتبدلة ، والمـدن الضالة ، والنوابت ٠ وقد رتبها الفارابى بحسب درجـة بعدها عن السـعادة ، وهى سـعادة العقل وفعل الخير والقرب من الله ٠

ـ فأهل « مدينة الجاهلية » لم يعرفوا السـعادة يوما ، ولم يعرفوا من الخيرات الا الحسى منها ، وعاشوا فى بوهيمية بدنية ، ولم يعرفوا الله ولم يتقربوا اليه .

ـ أما أهل « المدينة الفاسقة » فهم يعرفون السعادة والخير والله ، ولكن لا تتعدى هـذه المعرفة حدود المعرفة النظرية ، بينما أفعالهم هى نفس أفعال مدينة الجاهلية .. أى أنهم يعملون بغير ما يعتقدون .

ـ أما « المدينة المتبدلة » فقد بدل الله بهم من حال الى حال .. أى كانوا أهل مدينة فاضلة ثم انحرفوا نتيجة لشيوع تيارات شاذة وانحرافات بدلت معتقداتهم وأفعالهم ، وحولتهم من الفضيلة الى الرذيلة .

ـ أما « المدينة الضـالة » فأهلهـا أهل ضـلال وخداع وغرور ، لا يؤمنون بالله ولا بالعقل ولا بالسـعادة ، وقد ضيعتهم الأفكار الفاسدة .

ـ وأخيرا نصل الى « النوابت » التى شبهها الفارابى بالأشواك أو الحشائش التى تنبت وسط الزرع وتضره . ولا شك أن تلك « النوابت » الشاذة ما هى الا بؤر للفسـاد والجريمة داخل مجتمع المدينة الفاضلة وغيرها من المـدن .

٤ ـ عوامل توحد المجتمع :

تناول الفارابى ـ من خـلال حديثه عن المدينة الفاضلة ـ مقومات توحد المجتمع ، وصنفها فى عوامل عرقية (كوحدة الجنس والسـلالة والانحدار من أب واحد) ، وعوامل ثقافية (كالاشـتراك فى اللغـة واللسـان) ، وعوامل طبيعية (كالاشـتراك فى البيئات الطبيعية) ، وعوامل اجتماعية (كالاشـتراك فى النسب « المصاهرة ») ، وأخيرا عوامل نفسية (كتشابه الخلق والشيم الطبيعية) .

٥ ـ نشأة السلطة ووظيفتها فى المجتمع :

تعرض الفارابى للسلطة من حيث نشأتها ووظيفتها فى المجتمع ، واعتبرها قانونا ينهض فى المجتمع ليمنع العدوان والظلم وليحقق العدل .

وقد ضرب لذلك العديد من الأمثلة من واقع الحياة الاجتماعية ، خصوصا ما يتعلق منها بعمليات البيع والشراء والأمانة فى رد الودائع والكف عن الجور (الظلم) ، وابرز اهمية الخوف الناتج عن وجود السلطة فى استمرار التزام الناس بالخصال الحميدة ٠

٦ ـ عوامل انحلال المجتمع وتفككه :

لقد تعرض الفارابى أيضا للعوامل التى تؤدى الى تحلل المجتمع وفنائه ٠٠ ولعل من ابرز عوامل فساد المدن هو بعدها عن أسباب الفضيلة ، وعدم قدرتها على تحقيق السعادة بالمفهوم الذى قصده الفارابى ، علاوة على عدم توافر الرئيس القادر على الريادة والقيادة ، فضلا عن غياب رابطة القهر والقوة التى تمثلها السلطة ٠

* * *

● تعقيب :

يلاحظ على آراء الفارابى وافكاره ما ياتى(٤) :

١ ـ انه كان شديد الاعجاب والتقليد لـ « افلاطون » ، سواء من حيث الأفكار المعروضة أو المنهج المستخدم فى الاستدلال المعروف باسم « تحليل المعانى » ، وهى طريقة طبقها كل من افلاطون وارسطو ٠

٢ ـ لقد شكل اتجاها متميزا فى الفكر السوسيولوجى الاسلامى ، وهو ما يعرف بالاتجاه « اليوتوبى » أو المثالى ، ومن ابرز عيوب ذلك الاتجاه انه ليس قابلا وممكنا للتطبيق على الاطلاق فى أى نوع من المجتمعات المعاصرة ٠

٣ ـ لقد كان مدفوعا للمغالاة فى مثاليته كرد فعل للحياة المجتمعية المضطربة ـ اجتماعيا وسياسيا واخلاقيا ـ التى عايشها والتى وجد منها الا خلاص سوى بالرجوع أو العودة الى المثالية التامة فى مدينة فاضلة ، على راسها حاكم له من صفات الأنبياء أكثر مما له من صفات سائر البشر ٠

---

(٤) صلاح مصطفى الفوال ، **مرجع سابق** ، ص ١١٧ ـ ١١٨ ٠

٤ ـ على الرغم من كل ما ذكر عنه وعن فلسفته الاجتماعية ، فانه دون شك سعى لأن يعود المجتمع الاسلامى الى سابق مجده وعهده من حيث الصفاء والنقاء والفضيلة والسعادة ، من خلال ما أرساه من قواعد المدينة الفاضلة ، أو يمكن القول بأنه دق ناقوس الخطر حتى يتنبه ولى الأمر ويتخذ أولى خطوات الاصلاح فى المجتمع .

٥ ـ لقد أرسى الفارابى دعائم الاتجاه العضوى السوسيولوجى عندما شبه المجتمع بالكائن الحى ، واقام مماثلة عضوية بين وظائف أعضاء الانسان ككائن حى وبين وظائف المجتمع البشرى .

٦ ـ يمكن القول دون مغالاة أن الفارابى أثر فى الفكر الاجتماعى الاسلامى الى حد بعيد .. ويكفيه فخراً أنه لقب بالمعلم الثانى بعد « أرسطو » ، وأن تلاميذه نهجوا على منهجه لفترات طويلة عمقت دلك الاتجاه « اليوتوبى » ونمته وأثرته .

* * *

الامام الغـزالى

كان للامام « ابو حامد الغزالى » أسلوب فريد فى الكتابة ، فهو الى جانب اعتماده على « الخطابيات » ـ أى اعتماده على استخدام الآيات والأحاديث النبوية فى الترغيب والترهيب كما كان يلجأ الى رواية القصص والأساطير التى تخلب لب القارىء ـ كان يعمل على اعطاء فكرة وافية عن الموضوع الذى سيتناوله من وجهة نظر من سبق أن تناولوا هـذا الموضوع . ولقد وصف الدكتور زكى مبارك منهج الغزالى بأنه « منهج لا نسرف اذا كررنا أنه جميل »(٥) .

اننا سنتناول الاسـهامات السوسيولوجية للامام الغزالى من خـلال عدة نقاط هى(٦) :

---

(٥) زكى مبارك ، الأخلاق عند الغزالى . القاهرة : دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ، ١٩٦٨ ، ص ٨٦

(٦) صلاح مصطفى الفوال ، مرجع سابق ، ص ١٢٢ ـ ١٣٢ .

ـ الفعل الانســـانى لديه ٠
ـ منهجه فى التنشئة الاجتماعية ٠
ـ الحقوق والواجبات كما يراها ٠
ـ أصل المجتمع الانسانى فى رأيه ٠

● **الفعل الانســانى عند الغزالى :**

يقوم الفعل الانسانى عند الغزالى على مبدأ أخلاقى ، وينطلق من قاعدة الخير والشر ٠٠ فالعمل الذى يجب أن يعمل أو يحسن أن يعمل هو الخير ، أما العمل الذى يجب ألا يعمل أو ينبغى ألا يعمل فهو الشر ٠ كما أن لكل من الخير والشر درجات عند الامام الغزالى ، لذلك فانه قسم الأفعال الانسانية الى :

ـ « حرام » ٠٠ وهو المقول فيه : « اتركوه ولا تفعلوه » ٠
ـ « واجب » ٠٠ وهو المقول فيه : « افعلوه ولا تتركوه » ٠
ـ « مباح » ٠٠ وهو المقول فيه : « ان شئتم افعلوه ، وان شئتم فاتركوه » ٠

ويقول الدكتور زكى مبارك فى هـذا الخصوص : ان الامام الغزالى ربما قسم العمل الى : حسن ، وقبيح ، ومباح ٠٠ حيث قسمت الأفعال الحسنة والقبيحة الى ثلاثة مستويات هى :

الأول : أن الأفعــال تنقســم الى ما يوافق غرض الفــاعل ، والى ما يخالفه ٠٠ فالموافق يسمى حسنا ، والمخالف يسمى قبحا ، والثالث ـ أى غير الحسن والقبيح ـ يسمى عبثا ٠

الثانى : الحسن ، وهو ما حسنه الشرع بالثناء على فاعله ٠٠ ويقول الامام الغزالى : « ويكون المــأمور به شرعا ـ ندبا كان أو ايجابا ـ حسنا ، والمباح لا يكون حسنا » ٠

الثالث : الحسن ٠٠ ما لفاعله أن يفعله ، فيكون المباح حســنا مع المــأمورات ٠

ويضيف الدكتور زكى مبارك أن المقصود من هذه الاصطلاحات الثلاثة هو ما حسنه الشرع أو قبحه ، وهنا يجزم الغزالى بأن العمل لا يكون حسنا لذاته ولا قبيحا لذاته(٧) ٠

* * *

ويحذر الامام الغزالى من أن يوصم الفعل الانسانى بالقبح على طول الخط ، وانما يجب أن يرتكز ذلك على قاعدة أخلاقية مستمدة من أوامر ونواهى الشريعة الاسلامية ، ونبه الى أمرين أساسيين :

١ ـ أن الأفعال الحسنة هى تلك التى توافق غرض الفاعل ـ أى تحققه ـ ولكن يبقى الفعل الحسن دائما هو ذلك الفعل الذى يساير قواعد الشريعة الاسلامية ، والذى وعد فاعله بالثواب فى الآخرة ٠

٢ ـ أن بعض الأفعال قد توصم زورا وبهتانا بالقبح وان تكن غير ذلك لأن الانسان :

ـ يطلق اسم القبح على ما يخالف غرضه وان كان يوافق غرض غيره ٠

ـ قد يخدعه ظنه أو عدم فهمه للأفعال كما يجب ، فيطلق القبح كسمة على بعض الأفعال دون تبصر بها ٠

والفعل الانسانى عند الغزالى يجب أن توجهه ارادة واعية بما تعمل ومدركة لحدوده ، ويقول الامام الغزالى فى هذا الشأن :

« ان النية والارادة والقصد ، عبارات متواردة على معنى واحد وهو حالة وصفة القلب ، ويكتنفها أمران : علم وعمل ٠٠ والعلم يتقدم لأنه أصل وشرط ، والعمل يتبع لأنه ثمرة وفرع ٠٠ وذلك لأن كل عمل ـ أعنى كل حركة وسكون اختيارى ـ لا يتم الا بثلاثة أمور : علم ، وارادة ، وقدرة ، لأنه لا يريد الانسان ما لا يعلمه ، فلا بد وأن يعلم ، ولا يعمل ما لم يرد ـ فلا بد من ارادة » ٠ ثم يشرح معنى الارادة فيقول : « معنى

---

(٧) زكى مبارك ، مرجع سابق ، ص ١٠٤ ـ ١٠٥

الارادة انبعاث القلب الى ما يراه موافقا للغرض ، اما فى الحال ، واما فى المآل .. »(٨) .

ولما كانت الارادة هى محور الفعل الانسانى عند الامام الغزالى ، فلا بد من تربيتها حتى تتخذ دائما طريق الحق . وتربية الارادة يكون بتكرار طاعة الميل المحمود ، وتكرار مجاهدة الميل المذموم .. ومحل ذلك كله القلب ، لأنه محل النية ومصدر الارادة ، لذلك فان القلب ـ كما يقول الامام الغزالى ـ هو المطلوب تنويره بالطاعة ، والمحظور تسويده بالسيئات(٩) .

هذا وقد تعرض الامام الغزالى لموضوع « الجبر والاختيار » ومدى تأثير ذلك على الارادة باعتبارها مصدر الأفعال الانسانية . وهو يرى أن الارادة الانسانية ليست حرة حرية مطلقة ، كما أنها ليست مقيدة تقييدا مطلقا .. « ان فعل العبد وان كان كسبا له ، لا يخرج عن كونه مرادا لله سبحانه .. »(١٠) .

❋ ❋ ❋

● **منهج الامام الغزالى فى التنشئة الاجتماعية :**

للامام الغزالى فكر خاص فى موضوع الأخلاق الحسنة سنمر عليه سريعا حتى نصل الى فكره الخاص بعملية التنشئة الاجتماعية ..

فالأخلاق الحسنة كما عرفها الغزالى « عبارة عن هيئة فى النفس راسخة ، عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر ومن غير حاجة الى فكر وروية ، فان كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلا وشرعا ، سميت تلك الهيئة خلقا حسنا ، وان كان الصادر عنها

---

(٨) أبو حامد الغزالى ، **احياء علوم الدين** . القاهرة : دار احياء الكتب العربية ، ١٩٥٧ جـ٤ : ص ٣٨١ .

(٩) **المرجع السابق** ، جـ ٣ : ص ٣٣ ـ ٣٥ .

(١٠) **المرجع السابق** ، جـ ١ ص ١٢٠ .

الأفعال القبيحة سميت الهيئة التى هى المصدر خلقا سيئا ·· اذن فالخلق عبارة عن هيئة النفس وصورتها الباطنة »(١١) ·

ويرى الامام الغزالى أن بعض الناس حسن الخلق بالفطرة كالأنبياء والرسل ، لذلك فهم بالطبيعة أخلاقهم حسنة · وما دون هؤلاء يمكن أن تكون أخلاقهم حسنة بالاكتساب ، اى عن طريق التخلق ·· بمعنى حمل النفس على الأعمال التى يقتضيها الخلق المطلوب ·

ومعنى هذا أن تغيير الخلق ممكن · واستند الغزالى فى هذا الشأن الى الحديث الشريف : « حسنوا أخلاقكم » · والتحسين الذى يحمل معنى التغيير لو لم يكن ممكنا ـ فى رأى الغزالى ـ ما أمرنا به الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه ·· فالغزالى يؤمن بقبول الأخلاق للتغيير ، وهو ينتقد من يزعم أن الأخلاق لا تتغير ، اعتمادا على أن الأخلاق مقتضى المزاج والطبع ، وأن الخلق صورة الباطن كما أن الخلق صورة الظاهر ، وكما أن الخلق لا يتغير فكذلك الخلق(١٢) ، والمجاهدة بزعمهم لا تفيد · ويدعم الغزالى رأيه باشارته الى أن كل كائن حى يمكن أن يتغير خلقه ، حتى أن الحيوانات يمكن تبديل خلقها من الاستيحاش الى الاستئناس(١٣) ·

ويوضح الغزالى ذلك بأنه ليس المقصود من تغيير الخلق استئصال الأخلاق المذمومة من النفس كما ظن البعض ، بل المقصود سلاستها وقودها بالرياضة ، وذلك لفائدة الصفات الانسانية كلها للانسان(١٤) ·

أما كيف يتم هذا التغيير ، فان الغزالى يشير الى أنه يكون على مراحل ، ولذلك فانه يتناوله فى عدة أبحاث أهمها :

---

(١١) المرجع السابق ، جـ ٣ ، ص ٥٦ ـ ٥٧ ·

(١٢) الخلق : الأولى بفتح الخاء ، والثانية بضمها ·

(١٣) عبد الكريم العثمان ، الدراسات النفسية عند المسلمين والغزالى بوجه خاص · (ط ٢) · القاهرة : مكتبة وهبة ، ١٩٨١ ، ص ٣٧٩ ـ ٣٨٠ ·

(١٤) أبو حامد الغزالى ، مرجع سابق ، جـ ٣ ص ٥٥

ـ معرفة الأخلاق المذمومة ٠
ـ وسـائل العلاج العـامة ٠
ـ طرق التعديل والعلاج الـخاصة بكل نوع من الأخلاق المذمومة ٠
ـ معرفة الانسـان عيوب نفسـه ٠
ـ تقدير الـحالة الـخاصة لكل فرد على حدة ٠

* * *

● كيف تتم عملية التنشئة الاجتماعية :

لخص الغزالى منهجه فى تربية الطفل على صورة واجبات الوالد نحو ولده ، فأوضح انه يجب عليه(١٥) :

ـ تأديب ابنـه وتهذيبه وتعليمه محاسن الأخلاق وحفظه من قرناء السـوء ٠

ـ أنه لا يحبب اليه الزينة وأسباب الرفاهية ، لئلا يتعود التنعم فيعسر تقويمه بعد ذلك ، وأن يعوده على اللباس المحتشم الوقور ٠

ـ الاعتماد فى تربيته على الثواب والعقاب والمدح أمام الناس ٠ ولا يكون العقاب لكل أمر ، بل الأفضل التغافل والتغاضى عن بعض الأمور ، ولا يكون العقاب علنا حتى لا تزيد جسارة الطفل ٠ وليكن العقاب قليلا مجزيا لئلا يهون على الطفل وقع الملام وسماع التأنيب ٠

ـ تعويده على الحركة والرياضة والاحتشام ، ونهيه عن بعض الأعمال غير المستحسنة فى المجالس ٠

ـ منعه من الافتخار على اقرانه بما يملكه هو أو والداه ، وتعويده التواضع وطيب الحديث ، وتعويده العطاء لا الأخذ ولو كان فقيرا ٠

ـ تعويده على الصبر ، والاقلال من الكلام الا لحاجة أو ضرورة وبقدر ما يتطلب قضاءها ٠

ـ تخويفه من السرقة واكل الحرام ، ومنعه من القسم صادقا او كاذبا ، وغير ذلك من الأخلاق المذمومة ٠

---

(١٥) المرجع السابق ، ج ٣ ص ٧٠ ـ ٧٢ ٠

– أن يأذن له باللعب بعد الدراسة ، حتى يتجدد نشاطه وذكاؤه ، وكى لا يستثقل العلم ٠

– واذا بلغ سن التمييز فينبغى ألا يتساهل معه فى كل ما يستلزمه أمر الشرع ٠

وعملية التربية أو التنشئة هنا ليست قاصرة على الصغار وحدهم ، بل هى تمتد عند الغزالى لتضم كل « متعلم » أى كل متلقى للعلم ٠٠ اذ عليه واجبات نحو معلمه ونحو العلم الذى يأخذه عنه ٠٠ ومن أبرز هـذه الواجبات أن يكون ذلك المتعلم طاهر النفس ، غير متعلق بالأمور الدنيوية ، وأن يكون مطيعاً لمعلمه الى حد الاذعان ، متابعا لفنه ، آخذا عن معلمه الفنون بالترتيب لا دفعة واحدة ، غير خائض فى فن دون أن يستوفى الفن الذى قبله ٠

* * *

● **الحقوق والواجبات :**

يمثل رأى الغزالى فى هـذا الشأن أحـد ملامح الدين الاسـلامى ذاته ٠٠ فقد حدد واجبات الفرد نحو نفسه وتجاه ربه ، ونحو أخيه وأبنائه ووالديه وجاره ، وأوضـح كذلك آداب التاجر والصانع والمسـافر ٠ وكان يسـتخدم كلمة « حق » بمعنى « واجب » ، وكثيرا ما كان يستغنى عنهما بكلمة « أدب » ٠

والمتتبع للحقوق والواجبات ـ كما قررها الغزالى ـ يجدها هى نفسها ما تدعو اليه الشريعة الاسلامية ، وان كان قد أضاف اليها فيما يتعلق بواجب الفرد نحو نفسه ضرورة أن يستيقظ الفرد قبل طلوع الفجر ، وأن ينام على يمينه ٠

ويؤخذ على الغزالى أنه نظر الى المرأة نظرة مجحفة عندما اعتبرها أقل من الرجل ، فضلا عن قناعته بأن النسـاء يغلب عليهن « سـوء الخلق وركاكة العقل » ، الا أنه مع ذلك طالب بحسن معاملة المرأة وحفظ حقوقها والانفاق عليها ، والعدل بينها وبين غيرها من الزوجات بشرط أن تكون المرأة فى طاعة الرجل ٠

* * *

● أصـل المجتمع الانســانى :

عالج الامام الغزالى أصول المجتمع الانسانى وتطوره ٠٠ ولم يكن هدفه الأساسى وضع نظرية تفسر أصل المجتمع وتوضح كيفية تطوره ، بقدر ما كان يستهدف تأكيد حقيقة مؤداها أن الهدف الأسمى للانســان هو سـعيه الدائب وراء معرفة الله ٠ ولكن الانسان يولد فى مجتمع ينشأ بالضرورة نتيجة لعجز الفرد عن توفير العيش لنفسه معتمدا على امكاناته وحده ، وأن الله سبحانه وتعالى قد فرض حتمية المجتمع فى خلقه للطبيعة الانسانية كما هى عاجزة أولا عن تلبية معظم الاحتياجات البشرية بمفردها ، وراغبة ثانيا فى التجمع ضمانا لبقاء الفرد وسلامته ٠

ولكن مع ظهور المجتمع تنشأ مجموعة جديدة من المشاكل ، سواء فى العلاقات أو فى غيرها من صور التكامل والتعاون الانسانى ، ومع تتابع نمو المجتمع تبرز حاجات ومشكلات جديدة تتطلب أيضا المزيد من الفهم والجهد لمواجهتها والتغلب عليها ٠٠ وهكذا يكون « نمو التعقيد أمر حتمى فى نمو المجتمع الانسانى » ، وعليه فان المجتمع الانسانى – فى رأى الغزالى – لا بد وأن يستمر فى التعقيد الى أن يشاء الله(١٦) ٠

ويمكن أن نلخص رأى الغزالى فيما يختص بأصل المجتمع الانسانى فى النقاط الآتيــة :

١ – ان غاية الانسان هى معرفة الله ٠٠ وهـــذا القول ليس غريبا على الامام الغــزالى باعتبــاره قطب الصــوفية الأول وصاحب منهـج مبدع فيهــا ٠

٢ – أن المجتمع فى نشأته شيء حتمى ٠٠ أراده الله أولا ، واستوجبه عجز الانسان الفرد عن تلبية احتياجاته معتمدا على ذاته وحدها ، ولأن المجتمع هو الضمان الوحيد لبقاء الفرد وسلامته ٠

٣ – التعقيد سـمة المجتمع الانسانى ٠٠ حيث يبدأ بسيطا ثم ما يلبث أن تعقده الحاجات والمشكلات ، وكل حاجة أو مشكلة جديدة تتطلب الحل ٠

---

(١٦) صلاح مصطفى الفوال ، **مرجع سابق** ، ص ١٢٨ – ١٢٩ ٠

٤ – ان الطريق لحل المشكلات ‥ سواء تلك الناجمة عن العلاقات داخل المجتمع ، أو تلك التى تنشـــأ لرد فعل لمختلف عمليات التكامل والتعاون الانسانى ، والطريق كذلك لمواجهة المشكلات المتزايدة والناتجة عن اطراد نمو المجتمع ‥ ان الطريق لحل هــذه المشكلات كلها هو :

(أ) العمل على فهم تلك المشكلات ، ولا يتأتى ذلك الفهم بغير دراســة وتدبر وتبصر واعمــال العقــل لكل ما يحيط بالمشــكلة من علل وأســباب .

(ب) بذل الجهد لمواجهة تلك المشكلات والتغلب عليها حتى يكون المجتمع قادرا على تمكين الانسان من تحقيق هدفه الأسمى وهو معرفة الله .

٥ – ان المجتمع الانسانى مستمر فى التعقيد الى ما لا نهاية .

ويمكن القول – دون مغالاة – ان افكار الغزالى تلك ســابقة على آراء رواد الفكر السوسيولوجى المحدثين أمثال «هربرت سبنسر» وغيره الذين يقررون أن المجتمع يبدأ بسيطا ثم يتجه الى التعقيد ، وكذا آراء العلمــاء السلوكيين الذين فسروا سلوك الانسان فى اطار ما سمى بمفهوم « الانسان المركب (المعقد) Complex Man » (١٧) .

* * *

● تعقيب :

كان الغزالى يحاول دائمــا أن يرد الدين الى الضمير الانسانى ، كما يحاول ابقاءه مسألة تحقق حياة ، وذلك لمــا يقوم بين الخلق والخالق من صلات مباشرة ، تتمثل فى خلقة الانسان التى لا تخلو عن الأصــل الربانى ، الذى يسمح لها بالارتقاء الدائم والاتصــال بكل ما هو رائع وجميل ‥ وهكذا فان الدين عند الغزالى لا يغدو مجرد طقوس ومظاهر خارجية ، وانما يتحول الى ما هو أعمق من ذلك ، فيصبح الوسيلة التى

---

(١٧) E. Schin ; Organizational Psychology. Englewood — Cliffs, N. J. : Prentice — Hall, 1965 , pp. 60 - 62.

تسمح للانسان أن يطهر باطنه ، كما تسمح له أن يعقد صلة دائمة بينه وبين الله فى كل لحظة أو عمل أو فكرة أو شعور ٠

ويبدو لنا هـذا الاتجاه واضحا اذا لاحظنا الأمور التالية :

١ ـ عنايته بتوجيه الانسان الى دراسة النفس ، لأن معرفة الانسان لنفسه هى التى تؤدى الى معرفة الله ٠٠ ولذلك جعل الغزالى علم النفس عامة ، وعلم أحوال النفس خاصة ، من العلوم الأساسية ٠

٢ ـ دراسته للفقه والعبادات بطريقة جديدة ، وبأسلوب يتحقق فيه ارتباط الظاهر والباطن فى كل شأن ، سواء أكان ذلك فى العبادات أو فى المعاملات ، أو بمعنى آخر ، سواء أكان ذلك فى علاقة الانسان بنفسه ، أو بربه ، أو بالناس ٠

٣ ـ دعوته الملحة الى انارة القلب برقابة الله المستمرة ، لأن الله مطلع على الانسان فى كل حال ، ومشاهد لهواجس الضمير وخفايا الخواطر ٠

٤ ـ بعث الشعور بتقوى الله والخوف منه وخشيته ٠٠ والخوف المقصود هنا ليس ذلك الخوف الشديد المثبط ، الذى يملأ النفس يأسا ، وانما هو ذلك الذى يحرر الانسان من كل مظاهر الخوف الأخرى الدنيوية ٠

٥ ـ اثارة القلب بحب الله ، والتطلع اليه ورجاؤه ، واغناؤه بالعواطف الراقية نحوه ، كعواطف الشكر والعرفان ٠

٦ ـ بعث روح الاطمئنان الى الله والثقة فيه والتوكل عليه والرضا بقدره فى السراء والضراء ، ولكن ليس على الصورة التى تجعل من الانسان متواكلا ضعيف النفس(١٨) ٠

هـذا بالاضافة الى ما تتميز به بحوثه فى الأخلاق عامة ، وتعديل السلوك خاصة ، مما يدل على خبرة واسعة بالنفوس ، بالاضافة الى

---

(١٨) عبد الكريم العثمان ، **مرجع سابق** ، ص ٣٨٧ ـ ٣٩٢ ٠

استعمال الشعور الدينى كعامل فى انسجام الشخصية وتكاملها • وكم تحمل هذه البحوث من آراء متطورة لا تختلف عن كثير من نظريات التربية الحديثة ، على قلة مصادر البحث المتوفرة فى عهده •

* * *

ابن مسكويه

هو « أبو على أحمد بن محمد بن يعقوب » ، وقدم فى كتابه « تهذيب الأخلاق »(١٩) العديد من الآراء الاجتماعية الجديرة بالاهتمام ، والتى تعتبر دراسة فى السلوك الانسانى لا تقل أهمية عن تلك الدراسات التى قدمها العديد من السوسيولوجيين المحدثين •

ويمكن أن نعرض أهم الآراء الاجتماعية لابن مسكويه فى النقاط الآتية(٢٠) :

١ ـ تعتبر دراسة ابن مسكويه عن « الأخلاق » دراسة للقيم التى تشكل عنده أساسا للحياة الاجتماعية من جهة ، والتى تعتبر من جهة أخرى مقياسا لكمال الانسان •

٢ ـ « الأخلاق كسلوك » ، هى مصدر الأفعال الجميلة غير المتكلفة •• وليس معنى هذا ـ فى رأى ابن مسكويه ـ أن تلك الأفعال عفوية ، بل هى أفعال واعية بالدوافع والأهداف •

٣ ـ أوضح ابن مسكويه أن « الأخلاق كمصدر للفعل الانسانى » انما تنبع عن النفس لا عن الجسد ، ومن هنا فان الصراع لا بد أن يحتدم بين الخير والشر خلال النفس البشرية حتى تتطهر بالقضاء على الرذيلة ، مع ملاحظة أن الصراع هنا صراع قيمى حتى تتحقق فى النهاية تلك الأفعال الجميلة أو الأخلاقية •

٤ ـ يؤمن ابن مسكويه بأن الأخلاق ـ التى هى مصدر الأفعال

---

(١٩) ابن مسكويه ، تهذيب الأخلاق • القاهرة ، ١٣٢٦ هـ •
(٢٠) صلاح مصطفى الفوال ، مرجع سابق ، ص ١٤٩ ـ ١٥٥ •

الانسانية – يمكن أن « تكتسب » اما بالتعليم أو من خلال عملية التنشئة الاجتماعية ، خصوصا من خلال عملية المحاكاة (التقليد) ٠

٥ – أوضح ابن مسكويه أن الأخلاق – كمصادر للأفعال الانسانية – قابلة « للتغيير » ٠ وكذلك حدد أنماط الفضيلة – كمشتق من الأخلاق الحميدة – بأربعة أنماط هى : العفة ، والشجاعة ، والعدالة ، والكرم ٠

٦ – فرق ابن مسكويه بين قيم « الخير » و « السعادة » ، واعتبر أن الأولى قيمة عامة باعتبار أن الخير يعم المجتمع بأسره ، بينما السعادة قيمة ترتبط بعاملين : أولهما أنها حالة فردية تختلف من فرد لآخر ، وثانيهما أن الاحساس بها نسبى يختلف من شخص لآخر ٠

٧ – اتفق ابن مسكويه مع غيره ممن سبقه بأن « الاجتماع الانسانى » ضرورة اجتماعية خلقية ، أو هو « خاصية الاجتماعية » – على حد تعبيره ٠ لكنه اعتبر أن الأخلاق هى عماد ذلك الاجتماع لأن الانسان لا يبلغ حد الكمال الا مع أبناء جنسه وبمعونتهم ٠

٨ – « المجتمع » – فى رأى ابن مسكويه – هو الاطار الذى يجب أن يحتوى كلا من الأخلاق والأفعال الانسانية ، لأن كل قيم التعاون والمحبة والاخاء لا يمكن أن تظهر أو تثمر الا فى اطار الجماعة ، ومن هنا كان المجتمع ضرورة ، بل وضرورة أخلاقية كما يقول ابن مسكويه ٠

٩ – لجأ ابن مسكويه الى تشبيه المجتمع « بالكائن العضوى » ، وهو فى ذلك متأثر بـ « الفارابى » ، وسابق من حيث فكرة المماثلة العضوية التى اعتنقها العديد من السوسيولوجيين المعاصرين ٠ وكان يرى فى المجتمع كائنا حيا تتضامن اعضاؤه من أجل تحقيق الخير والسعادة ، وان ذلك التضامن يرتكز – فى رأيه – الى « الدين » و « العدالة » ٠٠ « فالدين » يتمثل فى اقامة الشعائر الاسلامية ٠٠ فصلاة الجماعة بالمسجد تقوى من الشعور الجمعى وتقضى على الفردية ، كما أن صوم رمضان والزكاة وصلاة الجمعة والعيدين والحج كلها أمور تجمع الناس وتقوى لديهم مشاعر الايثار والمحبة والتعاون والاخاء ، ويعتبر أن اقامة الشعائر الدينية تكسب

الفرد الأخلاق الحميدة وتنميها لديه ، ومن هنا فان الدين واقامة شعائره ـ فى رأى ابن مسكويه ـ « رياضة خلقية للنفوس الآدمية » ٠٠ أما « العدل » فهو أساس المساواة بين المسلمين ، والتى هى محصلة الألفة ، وحسن الجوار ، والصداقة ، وصلة الرحم ، وحسن القضاء ، والتودد ، والعبادة ٠

١٠ ـ يؤمن ابن مسكويه بأن « العدل ضرورة اجتماعية » لصلاح حال المجتمع ٠٠ وأنه على الحاكم أن يلتزم به ويجعله شرعة الناس ٠ ويرى أن التزام الحاكم بالعدالة هو الأساس الأول لاقامة المساواة بين الناس ٠

١١ ـ تحدث ابن مسكويه عن عوامل « التفكك فى المجتمع » وانعدام التضامن بين أعضائه ، وحددها فى عدم اتباع مقومات قيام المجتمع وبقائه ٠٠ وهى عدم توفر العدل من خلال عدم اتباع ناموس الله ، وعدم توفر الحاكم الذى يطبق شريعة الله ، وعدم اتباع العدل فى مختلف المعاملات بين أفراد المجتمع ٠٠ وهى كلها أمور تؤدى الى فساد الحياة وانحلال القيم ، بما يستتبع ذلك كله من خلل فى البناء الاجتماعى ٠

١٢ ـ ربط ابن مسكويه بين البيئة الطبيعية وبين العديد من الخواص والصفات الموروثة والمكتسبة ، وأبرز التأثيرات المختلفة لاعتدال المناخ أو جنوحه على خصال موروثه كالذكاء وحسن الفهم والهمة ، وأخرى مكتسبة كالثقافة والتيقظ للأمور والحذق فى الصناعات ٠٠ وهو فى هذا المجال سابق لغيره ممن تناولوا هذا الموضوع ٠

١٣ ـ رتب ابن مسكوية « النفس البشرية » الى مراتب ، فقسمها الى أربع مراتب :

(أ) الأولى : تقوم بينها وبين الحيوان صلة قوية ٠٠ فأصحاب هذه الرتبة أشبه بالبهائم ، وهم ليسوا بأهل حكمة ولا يقبلونها ، وهم يحيون حياة بهيمية ساءت خلالها أمورهم وأحوالهم ، وصاروا بغير نفع ولا جدوى من اصلاحهم لأن العبودية هى أصلح الأمور لهم حيث يستخدمون فيما تستخدم فيه البهائم ٠

(ب) الثانية : يحتلها قوم ذوو ذكاء وفهم ويقظة وعلم ببواطن الأمور ، وحذق فى الصناعات ، وقدرة على الخوض فى أعماق العلوم وعلى استيعاب مختلف المعارف ، وقدرة على الابتكار ٠

(جـ) الثالثة : يحتلها قوم من الحكماء ، اكتسبوا مكانتهم تلك من خلال الفضائل التى جعلتهم حكماء ٠

(د) الرابعة : لا يرتقيها الا الأنبياء بما لهم من صفات وخصال هى فوق صفات سائر البشر وخصالهم ٠

١٤ ـ يؤمن ابن مسكويه بأن المشاركة ـ سواء الوجدانية منها أو الفعلية ـ هى أساس تحقيق التكافل والتعاون بين مختلف افراد المجتمع ٠٠ واعتبر أن تلك المشاركة ليست منة ، بل هى تصل عنده الى حد الواجب ٠ ويحدد أشكال وصور هذه المشاركة فى أنها بالمال والنفس ، وأن تقدم بمبادرة فورية دون انتظار لطلبها ٠٠ وأن تكون المشاركة فى السراء والضراء ٠

ويمكن القول بأن الفكر الاجتماعى لابن مسكويه جاء فى بعض خواصه نتاجا طبيعيا لهيمنة الفكر اليونانى عليه ، حيث شابهت آراء ابن مسكويه آراء أرسطو ـ خاصة فيما يختص بالنفس البشرية ـ بكل ما شابها من دعاوى العنصرية والطبقية التى تبعد كثيرا عن روح المثالية التى اتسمت بها بقية آرائه المستلهمة من روح الاسلام ٠

* * *

البيرونى

لم يكن « أبو الريحان محمد بن أحمد البيرونى » عالما سوسيولوجيا عربيا أو اقليميا فقط ، بل انه تجاوز ذلك كله الى العالمية ٠٠ من حيث الانتشار ، ومن حيث ما وسعته قدرته على البحث والابتكار فى شتى نواحى المعرفة الانسانية ٠٠ وبحيث توافر على دراسة عبقريته علماء عديدون من شتى الأمم ٠٠ وقالوا عنه ما يأتى(٢١) :

---

(٢١) صلاح مصطفى الفوال : مرجع سابق ، ص ١٥٩ ـ ١٦٠

ـ « انه أعظم عقلية عرفها التاريخ » (المستشرق الألمانى ادوارد سخاو) .

ـ « ان البيرونى كان باحثا فيلسوفا رياضيا جغرافيا ، من أصحاب الثقافة الواسعة ، بل من أعظم علماء الاسلام ، ومن أكابر علماء العالم ، بل أكثر من ذلك ، فقد سمى النصف الثانى من القرن الحادى عشر الميلادى بعصر البيرونى » (سارتون فى مقدمة كتابه : تاريخ العلم) .

ـ « ان البيرونى كان ألمع علماء زمانه فى الرياضيات ، وان الغربيين مدينون له بمعلوماتهم عن الهند ومآثرها فى العلوم » (سميث فى كتابه : تاريخ الرياضيات) .

ـ « ان الشيخ أبا الريحان البيرونى أعظم مفكر ظهر على وجه البسيطة » (المستشرق الألمانى ادوارد سخاو) .

ـ « ان البيرونى عبقرى مبدع ذو بصيرة نفاذة » (المستشرق جوزيف شخت) .

ـ « ان آراء البيرونى لا زالت جديرة بعناية قراء اليوم ، وتشغل مؤلفاته مكانة ممتازة من حيث وفرة موادها وما فيها من الاعتناء بتطبيق الأصول العلمية » (المستشرق الروسى بارنولد) .

ولقد امتدت عالمية « البيرونى » لتشمل العديد من الدول التى تدعى شرف انتسابها اليه أو تقول انه احد مواطنيها .. فالاتحاد السوفييتى يعتبره أحد مواطنيه وأقام له تمثالا فى متحف جامعة موسكو تقديرا له ، كما سميت كلية الدراسات الشرقية بجامعة طشقند بـ «كلية البيرونى» ، وتوافر عدد غير قليل من الباحثين الروس على تحقيق تراث البيرونى . والأتراك ينازعون الروس ادعاءاتهم بشرف إنتسابهم الى البيرونى ، حيث يعتبرونه تركمانى الأصل . كما أن الفرس ينازعون هؤلاء وهؤلاء شرف انتماء البيرونى اليهم ، وهو حقيقة من أصل

فارسى ، ولكنه حسم هذه القضية بنفسه عندما اختار العربية لسانا والاسلام دينا .

اذن فـ « البيرونى » عربى اللسان .. مسلم العقيدة .. عالمى الفكر والمكانة .. وكان متمكنا من أصول اللغة العربية عالما بأسرارها وقواعدها وآدابها ، وكان يجيد الى جوارها اللغة الفارسية واللغة السنسيكرتية – لغة الهند – واليونانية والعبرية .. تتلمذ على يد أساتذة عصره فى الرياضيات والفلك والطب والتقاويم والتاريخ ، واتصل بالعديد من فلاسفة عصره وحاورهم ومنهم « ابن سينا » ، كما تأثر بآراء كل من الفارابى والكندى والمسعودى ، وتأثر أيضا بالثقافة اليونانية وتطلع الى الكشف عن مصادر أخرى للحكمة عساها أن تكون موجودة فى الشرق ، فسافر الى الهند ودرس لغتها وديانتها والفلسفات والمعتقدات السائدة فيها ودرس المجتمع الهندى دراسة وافية وعرض العديد من مظاهر البناء الاجتماعى الهندى بما يضمه من نظم وظواهر اجتماعية وأنماط ثقافية .

وكان البيرونى – الى جانب علمه وسعة اطلاعه – يتمتع بسمات الناقد الجرىء خارق الذكاء الذى ينقد الأمور ويبدى رأيه فيها بحرية وشجاعة ممزوجة بالاخلاص والتسامح .. وكلها صفات جعلت البيرونى عملة نادرة ، تتألق بفخر البيرونى بكل أساتذته الذين تعلم منهم وأخذ عنهم ، ورد الفضل الى أهله فى كل بحث علمى جديد .. هذا علاوة على ما يتميز به البيرونى من زهد شديد وتقوى ، جعلا عنده العلم أرفع درجات العبادة وأقصر الطرق لمعرفة الله والاعتراف بقدرته وعزته سبحانه .

* * *

● منهج البحث البيرونى :

أهم ما يميز منهج البحث البيرونى هو(٢٢) :

١ – الاعتماد على الملاحظة المباشرة والمشاركة أحيانا .

---

(٢٢) المرجع السابق ، ص ٦٤

٢ ـ الاعتماد على التجارب المعملية والميدانية ٠

٣ ـ استخدام العقل فى الاسـتنباط أو التعليل ٠

٤ ـ رفض أية وسـائل غير حسـية للوصول الى المعرفة ٠

٥ ـ رفض التقليـد ٠

٦ ـ الرجوع الى المصادر الأصلية ٠

٧ ـ التأكد من صحة الآراء وعـدم فسادها قبل الجهر بها ٠

٨ ـ الاعتماد على أسـاليب القياس الكمى والاسـتقصاء الحسى كلما كان ذلك ممكنـا ٠

٩ ـ الاستمرار فى البحث والمواظبة عليـه ، لأن نجاح الانسـان موهبـة من الله تعالى ولا يمكن أن يتحقق ذلك الا « بالمواظبة الدءوب على الممارسـة » ٠

* * *

● **الاسـهامات المنهجية السوسيولوجية للبيرونى :**

تتلخص أهم الاسـهامات المنهجيـة للبيرونى من وجهـة النظر السوسيولوجية فى الآتى :

١ ـ أرسى البيرونى قواعـد المنهج التاريخى والمقارن متبعا الخطوات الآتيـة :

(أ) الاتصـال بمصادره المختلفة ممن توسم فيهم أن يكونوا عونا له فيما ينشـده من معلومات ٠

(ب) القيام بمقارنة المعلومات التى نحصل عليها من مختلف المصادر ، واستبعاد ما اعتمد منها على الهوى والتعصب ٠

(جـ) القيام بنقد تلك المعلومات والأخـذ بما يثبت صحته منها ، على أن يكون ذلك كله مقبولا ومعقولا وبعيدا عن كل شك أو ريبة ٠

ويصف البيرونى منهجه التاريخى فيقول : « على أن الأصل الذى أصلته ، والطريق الذى مهدته ، ليس بقريب المـأخذ ٠٠ بل كأنه من بعده وصعوبته يشـبه أن يكون غير موصول اليـه ، لكثرة الأباطيـل التى تدخل فى جملة الأخبـار والأحاديث وليست كلهـا داخلة فى حـد

الاقناع ، فتميز وتهذب ، ولكن ما كان منها فى حد الامكان جرى مجرى الخبر الحق ، اذا لم تشهد ببطلانه شواهدأخرى »(٢٣) .

٢ ـ تميز البيرونى عن غيره من المؤرخين بأنه طبق طريقة فريدة فى البحث التاريخى زاوج خلالها ما بين الفلك والتاريخ ، حيث كان يقدم لذكر الأحداث التاريخية بمقدمات فلكية ، عن طريق استخدام الجداول ذات الرموز الفلكية التى تضم تواريخ الأمم المختلفة .

٣ ـ كان البيرونى يقدم لموضوعاته بمقدمة قصيرة تتناول الخطوط العريضة لما سوف تتضمنه دراسته ، ثم ما يلبث أن يسهب ويفيض بعد ذلك .

٤ ـ أرسى البيرونى دعائم « الملاحظة المشاركة » بشكل خاص والملاحظة العلمية بشكل عام خلال قيامه بتأليف كتاب « الهند الكبير » ، وقد تحدث فى مقدمة هذا الكتاب بما يأتى : « ليس الخبر كالعيان ، لأن العيان ادراك عين الناظر عين المنظور اليه فى زمان وجوده وفى مكان حصوله » .. و « الخبر » هو الاخبار أو السماع ، لكن « العيان » يعنى المشاهدة والمعايشة والملاحظة للظاهرة أو الموضوع الجارى بحثه فى نفس زمان ومكان حدوثها .

٥ ـ أرسى البيرونى قواعد استخدام المنهج الكمى واللجوء الى الاستنباط والتعليل أثناء التعامل مع مختلف الظواهر الاجتماعية .. ودعا كل صاحب رأى الى أن يقول ما هو واثق من صحته وما هو قادر على تحمل نتيجته فقط بغير اسفاف .

٦ ـ يعتبر البيرونى الأب المؤسس للانثروبولوجيا ، لأن الذى فعله ابان القرن الحادى عشر الميلادى ـ أثناء دراسته للمجتمع الهندى ـ هو نفس الشىء الذى فعله علماء الغرب فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلادى ، مع اختلاف الهدف بين البيرونى وعلماء الغرب .. فالبيرونى

---

(٢٣) البيرونى : الآثار الباقية من القرون الماضية ، تحقيق ادوارد سخاو ، ليبزج ، ١٩٢٣ .

دفعه حب العلم والوازع الدينى القوى الى أن ينقل للحضــارة الهندية وعنها حتى يفتح نافذة للفكر الاســلامى ، ويفتح فى ذات الوقت بابا أمام هذه البلاد حديثة العهد بالاســـلام حتى تنهل من ينابيعه الفياضــــة بما يصحح ايمانهم ويقوى من عزائمهم كى يعزوا بالاســـلام وينتشر بينهم ٠٠ أما علماء الغرب فيمكن القول بأن جهودهم الانثروبولوجيــة التى قامـوا بها لمــا استعمروه من بلدان ، فانها لم تكن خالصــة لوجه الله أو لوجــه العلم بقدر ما كانت لأهداف أخرى استعمارية ٠

واذا تعمقنا فى دراساته الانثروبولوجية نجده قد قام بما يأتى :

(أ) درس اللغة الهندية ، وقارنها باللغة العربية ، كما درس مختلف مجالات الثقافة من الفنون والآداب الهندية الســائدة آنذاك ٠

(ب) درس الديانة الهندية ، وكذلك الفلسفات والمعتقدات السائدة ، علاوة على ما سمعه من أســـاطير تتصل بالدين ، وتعرض لآرائهم فى التصوف ، وأرجع الديانة الهندية الى أصول يونانية ومسيحية ٠

(جـ) عرض العديد من مظاهر البناء الاجتماعى الهندى بما يضمه من نظم وظواهر اجتماعية وأنماط ثقافية ، كما قــدم دراســة مقارنة لها بما يماثلها لدى المجتمعات العربية والفارســية واليونانية ، وهى مجتمعات عايشها أو قرأ عنها ٠

(د) تعرض للعلاقات داخل المجتمع الهندى ٠٠ وأوضح مثال لذلك دراســة البيرونى عن الطبقــات فى المجتمع الهندى ، وتحليله لأســباب وجود ذلك النظام واستمراره بأن أرجعه الى جذور ســياســية ودينيــة واجتماعية وثقافية ٠

(هـ) شرح البيرونى أصــل كثير من الدول الغابرة فى كتــــابه « الآثار الباقيــة من القرون الخاليــة » كبلاد آشور وبابل والقبط واليونان والفرس قبل الاســــلام ٠

وعلى ذلك فان البيرونى تعرض لمختلف الموضوعات التى يتناولها

الاتجاه الانثروبولوجى المعاصر بكل اهتماماته ، بما يضع البيرونى فى مكانته اللائقة به كأب مؤسس للانثروبولوجيا كاتجاه سوسيولوجى ومنهج علمى للبحث الاجتماعى .

* * *

ابن خلدون

● **حيــاته :**

عاش « ابن خلدون » فى القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) ، وكان هذا العصر عهد تحول وانتقال :

- تفكك وانحلال فى العالم العربى .
- انبعاث ويقظة فى العالم الغربى (أوروبا) .

فلقد كان معظم بلاد الأندلس فى هذا العصر قد خرج من حوزة العرب ، وأصبح تحت سيطرة الأسبان ، بما فى ذلك أهم مراكز الحضارة الأندلسية كطليطلة وقرطبة واشبيلية . وكانت جماعات كثيرة من سكانها العرب قد جلت عنها الى المغرب ، ولم يبق تحت حكم العرب هناك سوى قطعة صغيرة فى الجنوب الغربى من الأندلس . وكان يحكم هذه البقية الباقية من الأندلس « بنو الأحمر » ، الا أن أمراء هذه الأسرة نفسها كثيرا ما كانوا يتنافسون على الحكم ويتخاصمون فيه الى حد الاقتتال .. وكثيرا ما كان الأمراء والحكام الذين يفشلون فى ثوراتهم يلجأون الى المغرب العربى ، وان كانوا من الأندلسيين . وكانت بلاد المغرب حينئذ مجزأة الى ثلاث دول ، تحكمها ثلاث أسر ، وكانت هذه الدول الثلاث فى نزاع مستمر بعضها مع البعض الآخر .

ولقد دخل « ابن خلدون » فى صميم هذا الجو السياسى المحموم ، فعاشه وعانى منه مدة ربع قرن ، واتصل بأشخاصه اتصالا وثيقا ، وافاد منه ومن أحداثه الشىء الكثير . وفى عصر « ابن خلدون » ظهرت على مسرح الأحداث حركتان قويتان :

ـ احداهما فتوحات « تيمورلنك » ، ذلك الذى كأنما توجهت به النكبات على العرب ٠

ـ وثانيهما قيام الدولة العثمانية ، وبقيامها انتهى تاريخ الخلافة العربية ، وانتقل مركز الاسلام غربا ٠

ولقد ولد ابن خلدون فى تونس سنة ٣٧٢ هجرية (١٣٣٢ ميلادية) وكان أبوه من رجال العلم والأدب ، فعنى بتربيته عناية فائقة ، وهيأ له الدرس على اقدر الأساتذة فى تونس أنذاك ، حيث تلقى على أيديهم : القرآن الكريم ، ومبادىء النحو ، والأدب ، والشعر ، والفقه ، والحديث ، والعلوم العقلية (كالمنطق والفلسفة) ٠ ولما بلغ العشرين تولى الكتابة فى ديوان السلطان ، وخرج مع السلطان فى حربه لملاقاة أمير قسطنطينية (بالجزائر) ، ولما انهزم جيش سلطان تونس فر ابن خلدون الى المغرب (مراكش) ٠

وفى المغرب عاشر القبائل والتقى بسلطان المغرب وعاش معه فى مقر السلطنة فى فاس ٠ ولكنه اشترك فى مؤامرة ضد السلطان وأمر السلطان بسجنه ومكث فى السجن قرابة السنتين ، وبعد ذلك رحل الى الأندلس واشترك فى أمورها السياسية ٠ وبعد ثلاث سنوات رحل الى المغرب وتقلد الوزارة ، ولكن بسبب تغير الأوضاع السياسية رحل الى « بسكرة » فى المغرب الأوسط ٠ واضطر ابن خلدون للعودة الى فاس ، وقد بدأت حياته السياسية تنهار ، وعاد الى تلمسان ، ثم خرج منها قاصدا الجزائر ٠ وأقام بقلعة سلامة المنعزلة بالجزائر ، حيث اقام بها أربعة أعوام وتفرغ للدرس والعلم والتأليف ٠ وعاد الى تونس بعد ست وعشرين سنة من مغادرته اياها ، واشتغل بالتدريس والتأليف ٠ ولما بلغ الخمسين مضى على ظهر سفينة الى الاسكندرية ٠

ولما حل بالقاهرة ـ وكانت شهرته قد سبقته ـ اقبل طلاب العلم عليه اقبالا شديدا ، وجلس للتدريس فى الجامع الأزهر ٠ وقد سافر الى مكة المكرمة للحج ، ثم الى القدس ، ثم الى دمشق ، ثم عاد

الى مصر وتولى القضـاء • وقد توفى عام ١٤٠٦ ميلادية ودفن فى القاهرة وكان عمره ٧٤ سـنة •

وهكذا نرى أن سـيرة حياة ابن خلدون السـياسـية مشـوبة بكل ما يؤخـذ على الحياة السياسية فى عصره •• فهى صـورة لهذا العصر بما فيه من مؤامرات ودسـائس ، ولما تميز به السـاسة من تهالك على النفع واسـتخفاف بالعهود والمواثيق ، وتخلخل فى القيم والأخلاق •• ولقد انجرف ابن خلدون فى هـذا التيـار السـياسى وغاص فيـه حتى الأذنين ، فانتهى ـ كما ينتهى كل من يزاول مثل هـذه الحياة ـ بالفشـل فى هذا المجال •

واذا كان لأحداث عصره من حسـنة •• فهى تلك الخبرة العميقـة التى اكتسـبها من معايشـته لها ولأصحابها ، فأصبح قادرا على التحليـل والاستنتاج ، بعـد الاستقراء ، وبالتالى صياغة الآراء والنظريات العامة من الأحوال والأحداث الخاصة(٢٤) •

***

● **اسهامات ابن خلدون السوسيولوجية :**

لقد كان ابن خلدون سـابقا لعصره وأوانه •• فلقـد حدد معـالم وملامح وموضوع ومنهج « علم الاجتماع » •• وقـد قال فى مقدمته وهو يؤكد اسـتقلالية علمه الوليـد : « وكأن هـذا علم مسـتقل بنفسـه ، فانه ذو موضـوع وهو العمران البشرى والاجتماع الانسانى •• » •

وتتضح الاسهامات السوسيولوجيـة لابن خلدون من خلال النقـاط الآتيـة(٢٥) :

ـ اسس ابن خلدون علمه الوليـد ، ليتمكن عن طريقه المؤرخون

---

(٢٤) خليل شرف الدين : ابن خلدون • بيروت : مكتبة الهـلال ، (د • ت) ، ص ٣٩ ـ ٤١

(٢٥) صلاح مصطفى الفوال : مرجع سابق • ص ١٧٤ ـ ١٧٨

من فهم الأحداث الماضية وتفسيرها من خلال الكشف عن قوانينها واسبابها التى تدل على أن تلك الأحداث الماضية تتفق وطابع العمران البشرى ·· ومن هنا يمكن القول ان هدف ابن خلدون من تأسيس « علم العمران والاجتماع البشرى » كان هدفا نظريا بحتا ، سعى من خلاله لتوفير مختلف سبل المعرفة التى تيسر للمؤرخين فهما أعمق لمختلف الظواهر التاريخية التى هم بصدد دراستها والكتابة عنها ·

٢ ـ ذهب ابن خلدون الى أن « المعرفة » التى هى هدف علمه الوليد ، انما تتحقق عن طريق الاستقراء الفطرى ، الذى هو فى حقيقته استقراء علمى تنقصه التجارب العملية ووسائل البحث الحديثة ، التى استعان ابن خلدون عوضا عنها بالحس واستخدام المنطق وقياس الذاهب بالحاضر ـ على حد تعبيره ·

و « المنهج الاستقرائى الفطرى » الذى استخدمه ابن خلدون منذ القرن الرابع عشر الميلادى لم يكن وليد الصدفة ، وانما كان شيئا محدد المعالم فى مخيلته ، لأنه وصف ذلك المنهج بقوله : « هذه المعانى التى يحصل بها ذلك لا تبتعد عن الحس كل البعد ولا يتعمق فيها الناظر ، بل كلها تدرك بالتجربة وبها تستفاد لأنها معانى جزئية تتعلق بالمحسوسات ، وصدقها وكذبها يظهر قريبا فى الواقع ، فيستفيد صاحبها العلم بها من ذلك » ·· كما حدد خطوات هذا المنهج فى نقاط معينة تبدأ من المعرفة التجريبية الى محاولة تطبيقها والتحقق من صدقها ، عن طريق اخضاع تلك المعرفة للواقع الذى هو المحك الأساسى فى صدقها أو كذبها ·

٣ ـ على الرغم من أن ابن خلدون قد أسس علم العمران أو الاجتماع حتى تتوفر للمؤرخين المعرفة بمختلف ظواهر العمران ، أو حتى يمكن دراسة التاريخ دراسة علمية تقوم على المنهج الاستقرائى بعيدا عن الاكتفاء بمجرد النقل أو السماع ·· فانه قد أكد استقلالية علم الاجتماع عندما تحرر من الطابع الفلسفى الذى ميز الدراسات الاجتماعية

فى عصره • كما انه لم يضـع علمه على أسس مثالية كتلك التى صبغت فكر كل من « افلاطون » و « الفارابى » خلال دراستيهما الشـــهيرتين عن « جمهورية افلاطون » و « اهل المدينة الفاضلة » •

٤ ـ حدد ابن خلدون بعض موضـوعات الدراســة فى علم الاجتماع عندما اكد أنه على المؤرخ أن يحصــل على قدر من الثقافة من خــلال دراســته لمختلف الظواهر الموجودة فى المجتمع ، لأن « القانون فى تمييز الحق من الباطل فى الأخبار يكمن فى النظر فى الاجتماع البشرى الذى هو العمران » •• وكان ابن خلدون اكثر تحديدا لميادين علم الاجتماع عندما قال : « ان المؤرخ يحتاج الى العلم بقواعد السياســة وطبائع الموجودات واختلاف الأمم والبقاع والأمصار فى الســير والأخلاق والنحل والمذاهب وســائر الأحوال ، والقيــام على أصــول الدول والملل ومبادىء ظهورها وأســباب حدوثها ودواعى كونها » •

كما أن ابن خلدون قــد صنف خلال مقدمته الشــهيرة مختلف أنواع الظواهر الاجتماعية تصنيفا جعل كل واحــدة أو مجموعة من تلك الظواهر اســاســا صالحا للدراســة والبحث لعدد من علوم الاجتماع الحديثة •• كعلم الاجتماع الســياسى ، والانثروبولوجيــا ، وعلم الاجتماع الدينى ، وعلم الاجتماع الاقتصــادى ، وعلم الاجتماع الحضرى ، وعلم الاجتماع البدوى ، وعلم اجتماع الأخلاق (القيم) •

٥ ـ على الرغم من تأكيد ابن خلدون لاستقلالية علمه الوليــد ، الا أنه حــدد الصــلات الضرورية المشتركة بينه وبين غيره من العلوم التى تشــاركه بحث الظواهر المجتمعية •• فالى جانب الصــلة الواضحــة بين كل من التاريخ والاجتماع ، نجد أن ابن خلدون قــد اكد الصــلة القائمة بين علم الاجتماع وعلم النفس • كما اكد أيضــا أهمية البيئـــة والعوامل الاقتصــادية والجغرافيــة والحضــارية فى تفســـير الظواهر الاجتماعية وفهمها •• وتحتوى مقدمة ابن خلدون على العديد من النصوص

الصريحة التى تؤكد صلات علمه الوليد بغيره من العلوم ، خلال علاقة تساندية فى فهم مختلف الظواهر الاجتماعية وتفسيرها ٠

٦ ـ كان ابن خلدون يرى أن المجتمع ان هو الا كيان طبيعى تسيره مجموعة من القوانين العامة ، ومن هنا كان لا بد من الكشف عن تلك العوامل التى تؤثر فى ذلك المجتمع سواء من حيث نشأته أو تطوره أو ثباته واستقراره ٠

٧ ـ أكد ابن خلدون ان المجتمع البشرى تتنازعه مجموعتان من الظواهر ، وهما : مجموعة الظواهر الطبيعية ، ومجموعة الظواهر الاجتماعية ٠ ويقرر أن المجتمع ليس هو منشىء الظواهر الطبيعية ، وانما هى موجودة وتتمتع باستقلال ذاتى ولكنها تؤثر فى المجتمع ، وعليه أن يكيف نفسه طبقا لنتائجها ومؤثراتها ٠٠ وذلك على العكس من الظواهر الاجتماعية ، فان نشأتها تعود للمجتمع ذاته ، فضلا عن تميزها بالتساند والتشابك ٠ ويؤكد ابن خلدون أن كلا من الظواهر الطبيعية والظواهر الاجتماعية تربطهما علاقة اتحادية ، تمتزج خلالها مختلف النتائج والآثار المترتبة على أيهما فى كيان معقد ، بحيث لا يمكننا ان نحلل عناصر أية ظاهرة مجتمعية الى أسباب وعوامل اجتماعية فقط ٠

* * *

● قواعد منهج ابن خلدون فى البحث :

حدد ابن خلدون الكثير من قواعد المنهج الذى يجب أن ينتهجه المؤرخ من خلال نظره فى « الاجتماع البشرى الذى هو العمران » ٠ وهو لم يكتف بنقد سابقيه لاعتمادهم على مجرد النقل وتشيعهم للعديد من الآراء والمذاهب علاوة على جهلهم ـ كمؤرخين ـ بطبائع الأحوال فى العمران ٠٠ فهو لم يكتف بمجرد نقدهم وانما قدم البديل منهجا واضحا للبحث يكاد يكون على أصالته حتى اليوم ، حيث حدد واجبات المؤرخ والباحث فى تناولهما لظواهر العمران على النحو الآتى :

١ ـ يجب الاعتماد على الملاحظة المباشرة وما تؤدى اليه التجربة ٠
٢ ـ يجب تفسير الظواهر وتحليلها واستخدام منطق « التعليل » ٠
٣ ـ يجب الاعتماد على منطق المقارنة أو منهج البحث المقارن ٠
٤ ـ يجب قياس الأخبار على أصول العادة وطبائع العمران ٠
٥ ـ يجب دراسة تطور الظواهر والنظم العمرانية ٠

وقد ارتكز ابن خلدون فى دراسته للظواهر الاجتماعية على ركيزتين أساسيتين : أولاهما أخضاع تلك الظواهر لملاحظات حسية وتاريخية ، بمعنى أنه كان يقوم بدراسة استطلاعية لتلك الظواهر معتمدا على مشاهداته واستقرائه لما يحويه التاريخ ، علاوة على معايشته الذاتية للعديد من تلك الظواهر ٠٠ والخطوة الثانية تتمثل فى العديد من العمليات العقلية التى كان يجريها على تلك المواد الأولية التى تحصل عليها ، مستهدفا الكشف عما يحكم تلك الظواهر من قوانين ٠

* * *

رواد آخرون على الطريق

مما لا شك فيه أن هناك رواد آخرون على درب الفكر السوسيولوجى العربى والاسلامى بخلاف من ذكرنا ٠٠ وسنذكر بعضهم هنا فى عجالة ، ولكن سيبقى دوما من لم يسعدنا الحظ أو يسعفنا الوقت حتى نذكره وذلك لضيق المجال(٢٦) ٠

١ ـ ابن حزم :

وهو صاحب النظرة الاصلاحية الجريئة لاصلاح المجتمع الاسلامى من خلال دعوته الى ضرورة فرض التكافل الاجتماعى على المجتمع المسلم ، ولو أدى الأمر الى اجبار الأفراد على ذلك ٠ ومن أقواله المأثورة فى هذا الشأن : « وفرض على الأغنياء من أهل كل بلد أن يقوموا بفقرائهم ، ويجبرهم السلطان على ذلك ان لم تقم الزكوات ـ جمع زكاة ـ بهم » ٠

---

(٢٦) صلاح مصطفى الفوال : مرجع سابق ٠ ص ١٨٧ ـ ١٩٨

ـ ومن آرائه ايضا دعوته لأن تتولى المرأة شئون الحكم ، كما فرض عليها الجهاد واعتبره واجبا عليها كالرجل تماما • وحتى تتولى المرأة الحكم وتجاهد فى سبيل الله لا بد لها من أن تتفقه فى أمور الدين ، لا سيما ما يتعلق منها بالطهارة والصلاة والصوم والحلال والحرام وما أشبه •

ـ كما أطلق « ابن حزم » صيحته المشهورة عندما طالب الباحثين بألا يركب أحدهم مطية سواه فى البحث ، لأن التقليد حرام ما دام الباحث يملك أدواتِ الاجتهاد والعقل ، لأن لجوء العالم الى التقليد يجعله ـ على حد تعبير ابن حزم ـ هو والعامى سواء بسواء •

وقد توفى ابن حزم العالم والفقيه والفيلسوف الأندلسى عام ٤٥٦ هجرية •

* * *

٢ ـ ابن سينا :

ومن هؤلاء الرواد الشيخ « ابن سينا » ، ذلك الموسوعة العلمية العظيمة •• فقد قرأ واستوعب ، ولكنه ابدا لم يتأثر ولم يقلد ، بل اخذ ما اخذ عن سابقيه بعد اقتناع ان ما اخذه يوافق الشرع اولا والعقل ثانيا • ويكفيه فخرا انه القائل : « حسبنا ما كتب من شروح لمذاهب القدماء وقد آن لنا ان نضع فلسفة خاصة بنا » • ويكفيه شرفا ان كتابه المسمى « القانون فى الطب » ظل المرجع الوحيد للباحثين والدارسين فى جامعات الأندلس وفى جميع جامعات أوروبا لسنوات طويلة • وقد توفى عام ٤٢٨ هجرية •

ومما يؤثر للشيخ « ابن سينا » منهجه فى « التنشئة الاجتماعية » •• فمن رأيه أنه « ينبغى لغنم الصبى أن يجنبه (مؤدبه) يفاع الأخلاق وينكب عنه معايب العادات ، بالترهيب والترغيب والايناس والايحاش ، وبالاعراض والاقبال ، وبالحمد مرة وبالتوبيخ أخرى ما كان كافيا » • ولا بد للطفل من معلم له مواصفات خاصة ، حيث يقول ابن سينا : « ينبغى ان يكون مؤدب الطفل عاقلا ذا دين ، بصيرا برياضة الأخلاق ، حاذقا

بتخريج الصبيان ، وقورا رزينا بعيدا عن الخفة والسخف ، قليل التبذل والاسترسال بحضرة الصبى ، غير كل ولا جامد ، بل حلوا لبيبا ، ذا مروءة ونظافة ونزاهة ، قد عرف آداب المجالسة وآداب المؤاكلة والمحادثة والمعاشرة » .

واذا ما شب الصبى ورام حرفة يمتهنها فلا بد ان يختار أو تختار له المهنة التى تتلاءم مع قدرته ، وفى ذلك يقول « ابن سينا » : « انه ليس كل صناعة يرومها الصبى ممكنة له مؤاتية ، ولكن ما شاكل طبعه وناسبه .. لذلك ينبغى لمؤدب الصبى اذا رام اختيار الصناعة ـ أن يزن أولا طبع الصبى ، ويسبر قريحته ، ويختبر ذكاءه ، فيختار له الصناعات بحسب ذلك ، فاذا اختار له احدى الصناعات تعرف قدر ميله اليها ورغبته فيها(٢٧) .



٣ ـ ابن الهيثم :

وهو يعتبر مع « ابن سينا » و « البيرونى » من أعظم العقليات العلمية العربية فى مجال العلوم الطبيعية على الاطلاق ، خاصة فيما يتعلق بالبصريات . وما يهمنا هنا هو المنهج المتميز الذى استخدمه « ابن الهيثم » فى البحث ، والذى يعتبر فيه غير مقلد ولا مسبوق .

فلقد أرسى « ابن الهيثم » قواعد « المنهج التجريبى » الذى وصفه بقوله : « يبتدىء فى البحث باستقراء الموجودات وتصفح أحوال المبصرات ، وتميز خواص الجزئيات ، ويلتقط باستقراء ما يخص البصر فى حال الابصار ، وما هو مطرد لا يتغير ، وظاهر لا يشتبه فى كيفية الاحساس . ثم نترقى فى البحث والمقاييس على التدريج والتدريب على انتقاد المقدمات والتحفظ فى الغلط فى النتائج ، ونجعل غرضنا

---

(٢٧) هذا الرأى الذى نادى به الشيخ « ابن سينا » منذ حوالى الألف عام يتفق تماما مع النظريات الحديثة لعلم النفس المهنى التى تركز على وضع الرجل المناسب فى العمل الملائم .

فى جميع ما نســـتقر به ونتصفحه اســتعمال العــدل لا اتباع الهوى ، ونتحرى فى ســـائر ما نجيزه وننتقده طلبـــا للحق الذى يثلج به الصدر ، ونصل بالتدريج واللطف الى الغاية التى عندها يقع اليقين ، وتظهر مع النقد والتحفظ بالحقيقة التى يزول معها الخــلاف وتنحســـم به مــواد الشــبهات » ٠

وقد توفى « ابن الهيثم » عام ٤٣٠ هجرية ٠

* * *

٤ ـ المســـعودى :

« المسعودى » هو صاحب « مروج الذهب » بكل ما حواه من أخبار العرب الأقدمين وســيرهم وعاداتهم وتقاليدهم ، علاوة على ما قدمه من أخبار الأمم والشعوب التى جاورت العالم الاســلامى ابان القرن الرابع الهجرى الموافق للقرن العاشر الميلادى ٠ ويرى كثير من العلمــــاء أن « المسعودى » خلال كتابه « مروج الذهب ومعادن الجوهر » هو الوحيد الذى تحدث عن الشــعوب التى جاورت ديار الاســلام ، وأن حديثه كان خلاصة وافيـــة للمعرفة العلميـــة فى عصره ، كمــا يرون أيضــــا أن المسعودى عالج أكثر الموضوعات التى تعرض لها معالجة صاحب البصيرة النيرة النفاذة والملاحظة الدقيقة الواعيــة ٠

وقد يأخذ البعض على « المسعودى » خلال كتابه « مروج الذهب » أنه لم يستطع أن يقصى عنـــه الأساطير وضمن كتابه الكثير منها ٠ ولكن هذه النقطة تدل على تفتح عقلية المســعودى وصدق حدسه السوسيولوجى الذى جعل من « مروج الذهب » ليس فقط مجرد كتاب أســفار ورحلات وأخبـــار ، بل جعلته أيضـــا كتاب علم وحياة ٠

وقد توفى « المسعودى » عام ٣٤٥ هجرية ٠

* * *

٥ ـ ابن بطوطـــة :

هو ذلك الرحالة الشـهير الذى جاب اقطارا عديدة منها مصر والشام والعراق وفارس والجزيرة العربية والسـودان واليمن والمغرب والأندلس ، فضـلا عن بلاد الروم والهند والصـين · ويرى كثير من الجغرافيين أن « ابن بطوطـة » لم يكن جغرافيـا ·· فهو لم يهتم بالأقطار الا قليلا ، وحتى المدن انما وصفها باعتبار ما يقطنها من الناس ، ولذلك فهو يفيـد فى التاريخ والاجتماع أكثر مما يفيد فى الجغرافيا ··

ويبدو أن قول الجغرافيين فى ابن بطوطـة صحيح ، وحتى لا يكون هذا القول بغير سند سنقدم فيما يلى بعض النماذج لكتابات ابن بطوطة :

(أ) قال فى مصر : « وهى أم البلاد ، وقرارة فرعـون ذى الأوتاد ، ذات الأقاليم العريضـة ، والبلاد الأريضـة ، المتناهية فى كثرة العمـارة ، المتباهية فى الحسن والنضارة ، مجمع الوارد والصـادر ، ومحط رحل الضعيف والقادر ، وبها ما شـئت من عالم وجاهل ، وجاد وهازل، ومنكر ومعروف ، حليم وسفيه ، ووضيع ونبيه ، وشريف ومشروف، تموج موج البحر بسكانها ، وتكاد تضيق بهم على سـعة مكانها · شـبابها يجد على طول الخط ، وكوكب تعديلها لا يبرح عن منزل السـعد · قهرت قاهرتها الأمم ، وتملكت ملوكها نواحى العرب والعجم · ولها خصوصـية النيـل التى جل خطرها ، وأغناها عن أن يسـتمد القطر قطرها · وأهل مصر ذو طرب وسرور » ·

(ب) وقال فى أهل مكة المكرمة الكثير ، منها : « لأهل مكة الأفعال الجميلة ، والمكارم المقـامة ، والأخلاق الحسـنة ، والايثار للضـعفاء والمنقطعين ، وحسن الجوار للغرباء » ·· ثم عرض « ابن بطوطـة » للعديد من صـور التكافل الاجتماعى الاسـلامى الذى يغمر مجتمع مكة ، وأوضح كيف كان يطعم الفقير والمسكين ، وكيف كان يكرم اليتيم ويؤثر على النفس أحيانا · ويشرح صـفات أهل مكة المكرمة ما تعلق منها بالأمانة والنظافة والظرف والتعلق بالبيت العتيق ومداومة الطواف به ·

(جـ) وعنـد زيارة « ابن بطوطة » لليمن ، يقدم وصـفا دقيقا لمدينة « زبيـد » من حيث الطبيعة والمناخ والعمارة والنـاس ، ووصفها بأنها « أملح بلاد اليمن وأجملها » ، ولأهلها لطافة الشـمائل وحسـن الأخلاق وجمال الصور ، ولنسـائها الحسن الفائق مع الأخلاق الحسـنة والمكارم .. وتلتقط عين « ابن بطوطة » الخبيرة بعض صـور الزواج هنـاك حيث ان « للغريب عندهن مزية ، ولا يمتنعن عن تزوجه كما تفعله نسـاء بلادنا » . وتحدث عن حرص المراة اليمنية على زوجها الغريب ورعايتها له ولأولاده وقناعتها منـه بالقليـل من النفقة ، لكن نسـاء اليمن على الرغم من ذلك كله « لا يخرجن عن بلدهن ابدا » مهمـا كانت المغريات .

(د) وتحدث ابن بطوطة عن « السـودان » فقال : « فمن أفعالهم الحسـنة قلة الظلم ، فهم أبعـد الناس عنـه ، ومنها شـمول الأمن بلادهم ، ومنها عدم تعرضهم لمـال من يموت ببلادهم من البيض ، ولو كان من القناطير المقنطرة » .. كما شرح عاداتهم وكيفية التعليم عنـدهم ، خصوصا الدين . لكنه أخـذ عليهم « أن الخـدم والجوارى والبنـات الصـغار يظهرون للناس عرايا » .

وهكذا يمكن أن نطوف مع أسـفار « ابن بطوطة » ورحلاته لنغوص فى أعماق المجتمعات التى كتب عنها ، ونسـتخرج منها ما نشـاء من عادات ونظم وتقاليد وقيم تؤكد كلها ما ذهب اليه الجغرافيون من أن « ابن بطوطة » يعتبر أكثر انتماءا الى الاجتماع والتاريخ منـه الى الجغرافيـا .

وقد ولد « ابن بطوطـة » فى طنجة بالمغرب عام ٧٠٣ هجرية وتوفى عام ٧٧٠ هجرية الموافق لعام ١٣٦٩ ميلادية .

***

● الخلاصـــــة :

لم تعرف الدنيا كتـابا دينيا عنى بالعلم مثلما عنى القرآن الكريم ٠٠ فقـد طلب فى أول آية منه الى النبى محمد ﷺ أن يقرأ ، أى أن يتخذ الى العلم أهم وسـائله ، وهذه القراءة ـ كما ذكر القرآن ـ هى باسم الرب الخالق : « **اقرأ باسم ربك الذى خلق** » ٠ (العلق : ١)

تلك القراءة التى كانت أول كلمـة فى رسـالة النبى الكريم ـ هى أمر الرب الأكرم ٠٠ الأعظم احسـانا وبرا ، والذى من كرمه أن علم الانسـان ما لم يعلم ٠ فلقـد أعظم الرب الخالق ـ سـبحانه ـ عنـد الانســان قدر العلم وأداته وهى القلم ، وحبب العلم اليه ، وزينه فى قلبه ، وأبان مناهجه ، وكشـف له مغلقاته ، ويسر له صعوباته ، وذلل له قطوفه(٢٨) : « **اقرأ وربك الأكرم ٠ الذى علم بالقلم ٠ علم الانسان ما لم يعلم** » ٠ (العلق : ٣ ـ ٥)

وقد أمر الله تعالى نبيه محمدا ﷺ أن يسـتزيده من العلم ، قال سبحانه : « **٠٠ وقل رب زدنى علما** » ٠ (طه : ١١٤)

أى ادع الله أيها النبى أن يزيدك علما الى علمك ٠

وقـد أراد الله جل شـــأنه أن يكون تفوق آدم أبى البشر ـ فى العلم بالذات ـ سـبب تقدمه فى الفضل على الملائكة ، وسـبب جعـل الله اياه خليفة فى الأرض : « **واذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الأرض خليفة ، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ، قال انى أعلم ما لا تعلمون ٠ وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكـة فقال أنبئونى بأســماء هؤلاء ان كنتم صـادقين ٠ قالوا سبحانك لا علم لنـا الا ما علمتنـا ، انك أنت العليم الحكيم ٠ قال يا آدم**

---

(٢٨) لبيب السعيد : **الدراسـة الأولى فى مناهج البحث الاجتماعى فى القرآن الكريم وعند علمـائه ومفسريه** ٠ جـدة : دار عكاظ للطباعة والنشر ، ١٩٨٠ ، ص ٣٥ ـ ٣٦

انبئهم باسمائهم ، فلما انباهم باسمائهم قال الم اقل لكم انى اعلم غيب السموات والأرض واعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون » •
(البقرة : ٣٠ – ٣٣)

ومدح الله نبيه يوسف عليه السلام بأنه أوتى علما : « ولما بلغ اشده آتيناه حكما وعلما •• » (يوسف : ٢٢)

وذكر القرآن الكريم أن النبى يعقوب أبا يوسف – عليهما السلام – علمه الله بفضله علما عظيما ، قال تعالى : « •• وانه لذو علم لما علمناه •• » (يوسف : ٦٨)

وفى قصة موسى عليه السلام وفتاه ، يقول تعالى فى الخضر – العبد الصالح كما يقول بعض المفسرين – والذى أعطى علما لم يعطه موسى عليه السلام ، يقول عز وجل : « فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما » • (الكهف : ٦٥)

وفى شأن داوود عليه السلام ، يقول تعالى : « وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء •• » (البقرة : ٢٥١)

ويحيى عليه السلام ، آتاه الله العلم وهو لا يزال حدثا ، ورزقه الجد فيه ، قال تعالى : « يا يحيى خذ الكتاب بقوة ، وآتيناه الحكم صبيا » • (مريم : ١٢)

وفى الامتنان بالعلم على الانسان ، يقول عز من قائل : « الرحمن • علم القرآن • خلق الانسان • علمه البيان » • (الرحمن : ١ – ٤)

والعلماء – فى الاسلام – هم اصحاب الشرف ، اذ يقرن الله جل جلاله شهادتهم بشهادته ، وشهادة الملائكة على أصل الأصول فى العقيدة الاسلامية ، وهو التوحيد ، فيقول سبحانه : « شهد الله انه لا اله الا هو والملائكة واولوا العلم قائما بالقسط ، لا اله الا هو العزيز الحكيم » •
(آل عمران : ١٨)

ومن المراتب التى يرفع الله اليها العلماء ، أنه سبحانه جعلهم أهل خشيته : **« .. انما يخشى الله من عباده العلماء .. »** .

(فاطر : ٢٨)

ان المتأمل فى القرآن الكريم ، والمتعمق فى آياته ، يرى فيه مناهج للبحث العلمى ، هى مناهج قويمة منيرة موصلة .. ومن مناهج البحث فى القرآن : النظر والمشاهدة ، واعمال العقل ، والتجريب ، وجمع الأدلة ، وسؤال المتخصصين ، والتحرر تماما من الأهواء والجهالات .. ومن الواضح أن هذه المناهج القرآنية العريقة هى أم المناهج العلمية الحديثة . وعلى الرغم من أن بعض المسلمين تخلفوا حينا من الدهر فغفلوا عن قدر هذه المناهج المستقيمة ، حتى جاء رواد الفكر الاجتماعى الاسلامى من أمثال الفارابى والغزالى وابن مسكويه والبيرونى وابن خلدون وغيرهم ـ فساروا على النهج القويم ، وابرزوا لنا خبايا العلم والبحث الاجتماعى الاسلامى .. فكانوا روادا على طريق الفكر الاجتماعى الاسلامى ، وسبقوا بذلك علماء الغرب لأكثر من الف سنة ، ولا يزال لتراثهم السبق والريادة فى المجال العلمى السوسيولوجى .

***

الفصل الثالث

الفرد المسلم

اذا كان علم الاجتماع لا يهتم ببناء الجسم الانسانى ، أو بوظائف أعضائه ، أو بالعمليات العقلية فى حد ذاتها .. فانه يهتم أساسا بما يحدث من تفاعل عندما يقابل انسان انسانا آخر ، أو عندما يشكل الناس جموعا مختلفة ، أو عندما يتعاونون ويتنافسون ، أو يتحكم بعضهم فى البعض الآخر ، أو يحاكى أحدهم الآخرين ويقلدهم ، أو يطورون الثقافة أو يقوضونها .. فان وحدة الدراسة فى علم الاجتماع ليست على الاطلاق فردا واحدا ، ولكنها تتمثل على الأقل فى فردين يكونان معا علاقة بشكل ما .

وعلى ذلك فاننا فى هذا الفصل والفصول التالية ، سوف نتناول بالدراسة الفرد والجماعة والمجتمعات بمختلف اشكالها ومستوياتها ، وما يدور بين كل هذه المتغيرات وبين البيئة الاجتماعية والثقافية والطبيعية ، وكذلك التفاعل المتبادل بين الفرد والآخر ، سواء أكان هذا التفاعل ايجابيا أو سلبيا .

***

الفرد فى اطار المجتمع

« الفرد » هو وحدة الدراسة السوسيولوجية ، وهذا الفرد لا تنطبق عليه الصفة الاجتماعية اذا لم يعش فى مجتمع .. فمن الضرورى أن يعيش الانسان فى مجتمع استجابة لميله الطبيعى للحياة فى المجتمع ، كى يشبع حاجته الى الانتماء ، على اعتبار أن الانسان المنعزل فى الكون مجرد فرض غير قائم .. فالانسان بمقتضى حاجاته

ودوافعه المتعددة ـ ومن أهمها الحاجة الى الانجاب والانسال لحفظ النوع والحاجة الى الاقتناء أو الاستحواذ ـ يعمل على أن ينتمى الى جماعة حتى يحافظ على البقاء .. ومن هنا فهو يبحث دائما عن المال والولد لقوله تعالى : « **أفرأيت الذى كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولدا** » . (مريم : ٧٧)

واذا كان الانسان يولد فردا ويعود الى ربه فردا ، لقوله تعالى :
« **ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم اول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم ، وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء ، لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون** » . (الأنعام : ٩٤)

غير أن هذا الانسان الفرد يعيش طوال حياته من المهد الى اللحد فى جماعات صغيرة ، فاذا انتهى اجله فانه امام الله يوم الحساب فردا ، لقوله تعالى : « **ونرثه ما يقول ويأتينا فردا** » . (مريم : ٨٠)

وكذلك زكريا لم يستطع أن يعيش فى المجتمع فردا منفردا ، ومن ثم دعا ربه الا يذره فردا ، لقوله تعالى : « **وزكريا اذ نادى ربه رب لا تذرنى فردا وأنت خير الوارثين . فاستجبنا له ووهبنا له يحيى واصلحنا له زوجه ، انهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا ، وكانوا لنا خاشعين** » . (الأنبياء : ٨٩ ـ ٩٠)

ان الانسان لا يستطيع أن يعيش الا فى مجتمع من بنى جنسه يتبادل الأفكار والعلاقات والمعاملات مع افراده .. واذا كانت هناك حالات استثنائية ينعزل فيها البعض عن المجتمع مثل : الزهاد والمتصوفين فى بعض الفرق الدينية ، ومثل بعض الباحثين الذين يكرسون حياتهم للكشوف العلمية ، وكذا الحالات التى يعزل فيها البعض عن المجتمع عقابا لهم عما جنته أيديهم كالمعتقلين .. فان هذه الحالات الانعزالية ليست دائمة ، وانما تنتهى بانتهاء الظروف التى ادت اليها . وبالرغم من انعزال أو عزل هؤلاء واولئك ، فان صلاتهم بالمجتمع ـ وان كانت

من طرف واحد وهو المجتمع ـ لا تنقطع كلية ، على أساس أن كلا منهم يحتفظ بالمجتمع فى داخل كيانه الاجتماعى ٠٠ فهو يفكر ويأكل ويشرب ويتبادل العلاقات مع جيرانه واقربائه وفقا للنشأة الاجتماعية التى نشأه المجتمع ورباه ورعاه على أساسها ٠٠ ان الفرد ـ بالمعنى الاجتماعى ـ هو الانسان بما له من حقوق وما عليه من واجبات فى المجتمع ، ويكون الفرد ـ داخل المجتمع ـ منعزلا او منطويا أو عضوا فى جماعات متنوعة على المستوى المحلى أو القومى أو الدولى ٠

ومن هنا يمكن القول بأن الفرد لا يتصور وجوده الا فى مجتمع ٠٠ ولذلك يقال ان وجود المجتمع سابق على وجود الفرد ، بمعنى أنه يولد فى مجتمع ، وبالتحديد فى اسرة ـ اى جماعة ـ ولهذا يقال بـ « اسبقية الجماعة » ٠ واننا نعرف أن الفرد يولد وهو فى حالة ضعف كامل ـ لا حول له ولا قوة ـ وانه بفضل الجماعة (الأسرة) يولد من جديد فى شكل حضارى بعد ولادته عضويا فى المرة الأولى ٠ ومن هنا فان الفرد لا يستغنى عن المجتمع الصغير الذى يعيش فيه ـ اى الأسرة ـ فهو الذى يكسو له جسمه ويشبع له حاجاته البيولوجية عند ولادته ، ثم يشرع بعد ذلك ـ من خلال عملية التنشئة الاجتماعية ـ فى تنمية عقله ومداركه عن طريق التربية والتعليم حتى يصل الى مستوى النضج ٠٠ بمعنى أن الفرد يولد وعقله صفحة بيضاء ، ثم يتولى المجتمع كتابة تراثه وقيمه ومبادئه ومعاييره ، وكذلك مظاهر حضارته الروحية والاجتماعية والعلمية على تلك الصفحة ٠ وبالتالى فان الأسرة وكل المؤسسات الثقافية والتربوية والاجتماعية فى المجتمع هى التى ترفع الفرد الى المستوى الحضارى اللائق به فى المجتمع ، وتشعره بأن المجتمع يعلو عليه وانه صاحب الفضل عليه(١) ٠

* * *

---

(١) زيدان عبد الباقى : **علم الاجتماع الاسلامى** ٠ القاهرة : مطبعة السعادة ، ١٩٨٤ ، ص ٧١ ـ ٧٣

● **مفهوم الفردية (٢) :**

عندما نضفى معنى الفردية على الانسان نجد من الضرورى ان نستخدم هذا المصطلح بمفهومه السوسيولوجى .. فاننا نقول : ان الكائن الاجتماعى تشتد فرديته اذا لم يكن سلوكه مجرد محاكاة او نتيجة تعرضه للايحاء ، واذا لم يكن عبدا بمعنى الكلمة للعادة الجمعية او لعاداته الفردية ، وعندما لا تكون استجاباته للبيئة الاجتماعية حدثت بطريقة اوتوماتيكية .. فالفردية بالمعنى السوسيولوجى هى تلك الصفة التى تكشف عضو الجماعة وتبرزه كأكثر من مجرد عضو فيها ، بحيث يشعر بنفسه ويرى فيها مركزا للنشاط والاستجابة للمؤثرات الخارجية ، معبرا عن طبيعته الخاصة . وهذا التصور يكمن وراء النصيحة التى درجنا على ان نسديها للآخرين أو الى انفسنا حينما نقول : « احتفظ بشخصيتك » .. فالاحتفاظ بالشخصية هنا لا يعنى مجرد **الأصالة** فى التصرف ، كما انه لا يعنى شذوذ الطبع . وقد لوحظ انه يمكن للفرد ذى الشخصية المتكاملة المستقلة ان يعبر تعبيرا وافيا عن صفات بلاده أو زمانه ، وانه ليفعل ذلك ، ليس لأنه سريع المحاكاة أو يتبع ايحاء الغير ، ولكن بسبب حساسيته لمقتضيات العصر .

حقا ان اعضاء الزمرة اذا كانوا جميعا اقوياء الفردية دب بينهم الخلاف ، وأدى ذلك الى أن يعبروا عن انفسهم بطرق مختلفة . ولكن الخاصة المميزة للفردية ليست هى درجة الانحراف عن باقى الأقران او الزملاء .. وانما هى **كيف يتصرف الفرد معتمدا على نفسه** مع قيام العلاقات بينه وبين الآخرين ، وكيف يتفهم مطالب الآخرين منه . وعندما يسلك صاحب الشخصية المستقلة سلوكا معينا - على الأقل فى الأحوال الضرورية - متفقا مع الآخرين فى نفس الاتجاه السلوكى ، لا يقال انه فعل ذلك لمجرد ان الآخرين فعلوه ، ولكنه يقر هذا السلوك .

---

(٢) ر . ماكيفر ، وشارلز بيج (ترجمة على احمد عيسى) : **المجتمع** (جـ ١) **القاهرة** : مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٧ ، ص ١٠٤ - ١١٥

وعندما يستجيب لرأى السلطة ــ الا اذا ارغم على ذلك ــ فانه يتبع رأى أصحاب النفوذ والسلطة لأنه من ناحيته مقتنع بصواب ما يفعل ولا يتبعهم لمجرد كونهم أصحاب سلطة ونفوذ . وهو لا يقبل آراء الآخرين دون تمحيص أو يأخذ فى ترديدها ، فان لديه بعض الاستقلال فى الرأى ، وبعض المبادأة ، وشيئا من التمييز ، وتعتبر الحدة التى يفصح بها عن هذه الصفات هى نفسها درجة فردية وشخصية .

❊ ❊ ❊

● مبدأ التوافق بين الفردية والمجتمع :

من المسلم به أن الفردية ــ كما عرفناها بمدلولها السوسيولوجى ــ أقل نموا فى المجتمعات البدائية ــ بسبب العادات الجمعية والمحرمات الصارمة ــ منها فى المجتمعات المنظمة المتطورة . ويمكن القول بحق ان فى المجتمعات الأكثر تعقيدا والأرقى تنظيما تمس الحاجة الى الافصاح عن الفردية ، كما تتهيأ أفضل الفرص لتحقيق ذلك .

وهناك أدلة كثيرة تسوغ قولنا السابق .. انظر مثلا مدى توقف ايقاظ الفردية على مرونة اللغة وغناها ، أو على جمال هذه الأداة الأولية فى التعليم ونقل الأفكار الى الآخرين . يقول أحد العلماء فى هذا الموضوع : « ان اللغة لا تؤدى فقط وظيفة القوة الموحدة فى المجتمع ، ولكنها فى نفس الوقت تعتبر أقوى عامل معروف لدينا لنمو الفردية »(٣) . وينبغى أن نضيف الى اللغة وسائل التعبير الأخرى العديدة التى يتيحها المجتمع المتطور أو الحديث أو المعقد .. فهذا المجتمع يمد الفرد على نطاق كبير بأنواع كثيرة من الاتصالات والمهن والمصالح والفرص ــ أى بالمؤثرات العامة والخاصة التى يمكن أن تستجيب لها فروق الفردية بالطريقة التى تلائمها . وقد وضع « اميل دوركايم »

---

(٣) E. Sapir; « Language », in Encyclopedia of the Social Sciences. (N. Y. : Macmillan, 1935) , IX , p. 160.

(Emile Durkheim) رســـالة ســـوسيولوجية ممتازة عنوانها « تقســـيم العمل فى المجتمع »(٤) تدور حـول هـذا الموضوع · ويوضح لنـــا « دوركايم » بمهارة أن فى المجتمعات البدائية حيث يوجـد تخصـص فى العمل فى أبسـط صـوره تلعب المشـــابهة (فى الانتسـاب الى نفس رئيس العائلة وفى قبـول نفس المعتقدات والآداب العامة) أكبر دور فى التماسـك الاجتماعى · وفى نفس الوقت يلفت نظرنا الى أن التركيب الاجتماعى فى المجتمعات الأكثر تقدما ـ حيث يوجد تخصص متزايد فى العمل ـ يقوم على المشـابهة والمخالفة على حـد سـواء ، وبذا يعمـل على ايقاظ درجة عاليـة من الفردية ·

وملخص نظرية « دوركايم » أنه اذا فكر كل الناس بطريقـــة متشـابهة ، وشـعروا بطريقة متشـابهة ، وعملوا بطريقة متشـابهة ، واذا كانت جميع مقاييسـهم ومصالحهم واحـدة ، واذا قبلوا نفس العادات الجمعية ، ورددوا نفس الآراء دون اعتراض أو اختلاف ·· فما كانت الحضـــــارة الانسـانية لتتقـدم قيـد أنملة ، ولبقيت الثقافة جامـــدة لا تتحرك من مرحلتها التطورية الأولى ، وما كان يمكن أيضـا أن ينشـأ تخصص أو حيـاة تتبادل فيها المنافع الا فى القليـل النادر · ومن المعلوم أن التخصص وتبادل المنـــافع من ضرورات التربيـة الفردية ·· ولأنه لو كانت المشـابهة طابع الحيـاة الاجتماعيـة لكان كل الوجـود الذى حولنـا سـطحيا ومصطنعا ، ولافتقدنا المعانى الانســانية التى يتصف بهـا التعاون الاجتماعى ، ولانمحى كل باعث مفيـد على الاتصـالات الاجتماعيـة ، كما يضـيع من حياتنا كل نوع من أنواع المبادأة والعمـل الاسـتقلالى ، ويحل محلها التخريب ومقاومة كل محاولة لضـم الناس فى صف واحـد ، وبذا ينعدم الأمل فى التقدم ، وتأخذ الحياة لونا قاتما ومظهرا رتيبا ·· وقـد أيد سوسـيولوجيون كثيرون هـذه الحقيقة التى اكتشفها « دوركايم » ، بما قاموا به من أبحاث ·· وفى عالمنا هـــذا

---

(٤) Emile Durkheim (traslated by G. Simpson) ; **The Division of Labor in Society** . (Gleneoe, Ill. : Free Press, 1949) .

الذى نعيش فيه يسير المجتمع والفردية جنبا الى جنب متعاونين . واذا لم تقم الخصومة بينهما فالمتوقع أن يعتمد كل منهما على الآخر ويسهم فى الخدمات التعاونية المشتركة .

***

● قصور مبدأ التعاون بين الفرد والمجتمع :

اننا نتساءل : هل هناك توافق تام بين الفردية والمجتمع ؟ ويمكننا ـ دون أن نتخلى عن مبدأ توقف كل منهما على الآخر ـ أن نجيب عن هذا التساؤل بمناقشة نواحى القصور فى هذا المبدأ ..

١ ـ التكامل الاجتماعى لا يقع بتمامه :

ان المجتمع ـ كما نعلم ـ ملىء بالمنازعات والمشاحنات والتمرد والكبت والقمع .. ففى كل فئة اجتماعية ، وفيما بين الفئات المختلفة بالمجتمع ، يقوم صراع دائم بين المصالح المختلفة والمتعارضة ، وهناك الاحتكاك ومظاهر سوء التوافق ، والأحقاد والعقبات والمشكلات الناشئة عن المنافسة والقيود ومظاهر الاستغلال وغيرها . ومن شأن هذا كله أن يؤثر فى التوافق بين الفرد والمجتمع ، كما يحد من التكامل الاجتماعى بين الأفراد والفئات الاجتماعية المتضمنة فى النسق الاجتماعى ، وهذا النسق ذاته تسوده نظم من طبيعتها أن تمكن بعض الفئات أو الطبقات الاجتماعية من السيطرة على البعض الآخر .

ومعنى هذا أن التكامل الاجتماعى لا يكون تاما مطلقا ، ولا يسوده التوافق فى جميع الأحوال . وقد زعم كل من « موسولينى » و «هتلر» أن دكتاتوريتهما التى أطلقا عليها اسم « النظام الشمولى » قائمة على التكامل الاجتماعى ، غير أن ما سجله التاريخ لعهدهما من فظائع ومذابح بشرية ، وكذا ما حدث فى البلاد الشيوعية من قتل الحريات الفردية وقمعها والغاء شخصية الأفراد واعتبارهم تروسا فى عجلة الجماعة .. كل هذا يذكرنا بما يمكن أن تتحول اليه المجتمعات المتحضرة من تطبيق لما هو أشد قسوة من الأساليب البدائية ، فى أوقات

الأزمات الاجتماعية • وانه ليذكرنا كذلك بأن تكامل الفردية والمجتمع ، ليس فقط من العلامات البارزة فى تاريخ الانسان القديم ، ولكنه الى جانب ذلك هدف يواصل السعى الى تحقيقه فى الحاضر والمستقبل •

٢ ـ كبح المجتمع جماح الفرد :

من هو ذلك الفرد الذى لم يشعر فى قراره نفسه فى بعض الأحيان أنه ممتعض من بعض القواعد والنظم التى فرضها عليه المجتمع ؟ ومن ذا الذى لم يقاوم فى بعض المناسبات المبادىء الاجتماعية العامة فى محيطه أو ينهزم أمامها ؟ اننا لا نشير هنا الى مجرد قمع الميول والسلوك المضاد للحياة الاجتماعية السليمة ، فهذا أبعد ما يكون عن تفكيرنا •• ولكنا نقصد مقاومة الدوافع والرغبات ، وأحيانا ما يبدو أنه مثل عليا ، اذا كان النظام الاجتماعى نفسه يفرضها بقسوة وبروح مجردة من العدالة ••

اننا نشعر بأن التضاد بين المجتمع البدائى الأقل تنوعا فى داخله وبين المجتمع المعقد المتباين الأجزاء ، يكشف لنا ما فى مبدأ التوافق بين الفرد والمجتمع من قصور •• ذلك لأن المجتمع المعقد فى العالم الحديث يتميز بالعديد من المنظمات والمؤسسات الكبيرة والروابط الاقتصادية والسياسية المنشأة على نطاق واسع التى تقوم جميعا على تقسيم الوظائف والتخصص حتى يصبح الفرد وكأنه أحد أسنان عجلة (ترس) فى آلة اجتماعية ضخمة • وتنحصر مهمته فى أداء عمله بشكل آلى داخل دائرة تخصصه ، فلا تتهيأ له الا أقل الفرص لاظهار فرديته • وهذا الكبح الذى يتعرض له الانسان فى المجتمع الحديث اهتم به الباحثون فى علم النفس وعلم الاجتماع ، للوقوف على كيفية تعطل روح الابداع والقوة الخلاقة عند الفرد نتيجة لمقتضيات النظام الآلى الذى تدعو اليه الحياة المهنية الحديثة •• ليس فى وسعنا اذن أن نتجاهل قصور الفردية الذى تفرضه النظم السائدة ، ومن شأن هذا القصور أن يثير مشكلة كبيرة من مشكلات الحياة الاجتماعية

المعاصرة • وينبغى ان نذكر هنـا أن الاهتمام الذى تلقاه هـذه المشكلة من كثيرين من المفكرين لا يتيسر فى واقع الأمر الا فى مجتمع متقدم ومتطور تسمح نظمه بالكشـف عن امكانات الفردية على نطاق واسـع •

* * *

● **الفردية فى الاسـلام :**

لو ترك الانسـان وطبيعته يسـير فى طريقها دون أن يلزم نفسه بتوجيه معين ـ لسار حتما الى غاية لا يتخلف عنها أبدا •• وهى أن يكون أنانيا يحب ذاته ، ويعمل لنفسـه فقط ، ويتصـور الوجود كله وقفا عليه ، والحياة الانسـانية خاصـة به •• فلا حدود لأنانيـته ، ولا نهاية لرغباته ، فان حصـل على شىء منها استـخلصه لنفسـه وأمسـك به عن غيره ، وان فاته الحصـول عليه غضب وقلق •• ذلك لأن ذاته فى تصوره هى مركز هـذه الحيـاة ، كل ما فيها يجب أن يدور فى فلكه هو ، وان يكـون له وحده دون غيره • ونتيجة لهذا التصور فانه لا يقر لغيره بحق العيش والمشـاركة فى الحياة معه •• ونتيجة أنانية الانسـان أن يسـيطر عليه الخوف من أن يفلت شىء مما تملكه ، ويسـتولى عليه الحزن الشـديد ان فاته عرض من أعراض الدنيا ، ويخاصم غيره بعنف على امتلاك متع الحياة • وعلى ذلك يغلب على حيـاته الخـوف والحزن والقلـق والاضطراب •• وهذه مظاهر تحكم الفردية فى سلوك الانسـان ، وهى بذاتها دائرة الوجود الفردى الذى يعيش فيه الانسـان ، ذلك اذا لم يوجه توجيها جماعيـا ، يجعل منـه ومن غيره من أفراد المجتمع جماعة وأمة •

ان الاسـلام لا يرضى عن هـذه الفردية ، ويراها منحرفة لأنها لا توصـل الى سـعادة الانسـان نفسـه ، ولا الى قيـام جماعة منـه ومن غيره • ولهذا يحرص كل الحرص على ان ينشىء الانسان على الايمان بالله ، دفعا له على الخروج من هذه الفردية الضيقة ، وبالتالى دفعا له على الخروج من هذا الحرج النفسى الأليم •• والايمان بالله ليس مجرد كلمة ينطق بها المؤمن ، بل هو عهد وميثاق من الانسـان لله جل وعلا ، ومجمل هـذا العهـد أن يعيش لنفسـه وغيره ، فما اسـتحق أن يعيش

من يحيا لنفسه فقط ، ويقر فى ذات نفسه بأنه له حقوقا وعليه واجبات .. له حقوق بقدر ما يبذل فى سبيل من يعاشرهم ويعاملهم والمجتمع العام ، وعليه واجبات بقدر ما يعد نفسه اعدادا يجعلها تدرك بوضوح أنها ليست وحدها فى هذه الحياة ، وان مشاركيها فى هذه الحياة لهم حقوق قبلها يتعين أداؤها .. فالمؤمنون بالله اذن هم أولئك الذين لم يذعنوا لنداء الطبيعة الانسانية الفطرية الفجة ، فلم يعيشوا لأنفسهم وحدهم ، ولم يمضوا فى الحياة لتحقيق مآربهم الذاتية الخاصة دون غيرها ..

فالمؤمن بالله حينئذ انسان أمن على نفسه من الخوف ، وحال بينها وبين الهم والحزن ، وجنبها الخصومة والنزاع . وهو المطمئن فى سعيه لأنه يقصد وجه الله فيما يسعى ، وهو الناجح فى هذه الدار لأنه استطاع أن يتغلب على نزوات نفسه ، وهو الناجح فى الدار الآخرة لأن الله لا يخلف وعده للمؤمنين . يقول جل شأنه : « **والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون . والذين هم على صلواتهم يحافظون . أولئك هم الوارثون . الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون** » .

(المؤمنون : ٨ ـ ١١)

ولقد أوضح القرآن الكريم حال الانسان اذا انقاد لطبيعته الفطرية ، فيقول سبحانه : « **ان الانسان خلق هلوعا . اذا مسه الشر جزوعا . واذا مسه الخير منوعا** » . (المعارج : ١٩ ـ ٢١)

كما أوضح ـ سبحانه ـ حال الانسان فيما اذا آمن بالله ، فاستثناه من طابع صاحب الحالة الأولى ، فقال تعالى : « **الا المصلين . الذين هم على صلاتهم دائمون . والذين فى أموالهم حق معلوم . للسائل والمحروم . والذين يصدقون بيوم الدين . والذين هم من عذاب ربهم مشفقون** » .

(المعارج : ٢٢ ـ ٢٧)

ويروى عن أبى يحيى صهيب بن سنان رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « عجبا لأمر المؤمن ، ان أمره كله له خير ، وليس ذلك

لأحد الا للمؤمن ٠٠ ان أصابته سراء شكر فكان خيرا له ، وان أصابته ضراء صبر فكان خيرا له » ٠ (رواه مسلم)

فالرسول الكريم ـ عليه الصلاة والسلام ـ يصور حال المؤمن بأنها حال الاطمئنان والاستقرار ٠٠ وتلك حال خيره ، بعيدة عن الألم والاضطراب ، بالقياس الى حال الانسان المسترسل فى نزواته ، الأنانى فى مسعاه ، والفردى فى اتجاهه ، فهو ذلك الانسان الخائف القلق الحزين ٠

فالاسلام يؤمن بالفرد ، ولكنه لا يؤمن بالفردية المطلقة ٠ وهو فى حال ايمانه بالفرد يؤمن بحقيقة موجودة ، وفى حال انكاره للفردية يرغب فى أن تجنب الفرد مخاطر الفردية التى تتمثل فى الخوف والحزن الدائمين ٠ وعلى هذا الأساس يشجع الاسلام نشاط الفرد فى أى جانب من جوانب الحياة ، وحريته فيما يرى وفيما يعبر ٠٠ ولا يحد نشاطه الفردى وحريته الفردية الا فى حالة اعتدائه على حرية غيره فى جماعته أو ايذائه ٠

***

أخلاق الفرد المسلم وسلوكه

يقتضى التنظيم الاسلامى ضرورة توضيح صلة الفرد بربه فى ضوء أصول تنظيم العلاقات البشرية وتوجيه الناس اليه وحتمية استجابتهم له ، على أن يكون كل ذلك مسبوقا بخشيتهم للخالق ـ سبحانه ـ وحتمية استجابتهم لأوامره ونواهيه واستشعارهم لعظمته ، وأنه يعلم من الانسان سره وعلانيته ٠٠ وبذلك تستقر فى نفوس الأفراد مبادىء الرحمة والمحبة والتعاون ، وتبادل المنافع وتوحيد المشاعر والأحاسيس ٠ ومن هنا يرى الفرد نفسه وحدة من وحدات المجتمع ، فيبذل من نفسه وماله

---

(٥) محمد البهى : الاسلام فى حياة المسلم (ط ٢) ٠ القاهرة : مكتبة وهبة ، ١٩٧٣ ، ص ٢٤٣ ـ ٢٤٥

وراجته ما يحقق عضويته بالمجتمع • وبصفة عامة فان الاسلام يتميز بكتابه الذى يربط بين الفرد والمجتمع ، وبين الله والانسان •• ولا غرو ، فان الاسلام أساسه الوحى الالهى ، ولا دين بعد الاسلام •

* * *

القيم والأخلاق فى الاسلام(٦)

ان الأخلاق فى الاسلام لم تدع جانبا من جوانب الحياة الانسانية •• روحية أو جسمية ، دينية أو دنيوية ، عقلية أو انفعالية ، فردية أو اجتماعية •• الا رسمت له المنهج الأمثل للسلوك الرفيع القويم • وفيما يلى أمثلة الشمول فى مجال الفرد والمجتمع :

١ ـ ان من أخلاق الاسلام ما يتعلق بالفرد فى كافة نواحيه :

(أ) جسما له ضروراته وحاجاته ، مثل قول الله تعالى :

« وكلوا واشربوا ولا تسرفوا » • (الأعراف : ٣١)

وقول الرسول ﷺ : « ان لبدنك عليك حقا » •

(رواه الشيخان)

(ب) وعقلا له مواهبه وآفاقه ، يقول القرآن الكريم :

● **« قل انظروا ماذا فى السموات والأرض •• »** •

(يونس : ١٠١)

● **« قل انما اعظكم بواحدة ، ان تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا »** • (سبأ : ٤٦)

(ج) ونفسا لها مشاعرها ودوافعها ، يقول تعالى :

« ونفس وما سواها • فالهمها فجورها وتقواها • قد افلح من زكاها • وقد خاب من دساها » • (الشمس : ٧ ـ ١٠)

---

(٦) سيد عبد الحميد مرسى : **الدين للحياة** ، مرجع سابق ، ص ٥٩ ـ ٨٨

٢ ـ ومن اخلاق الاسلام ما يتعلق بالمجتمع :

(أ) فى آدابه ومجاملاته ، مثل : « يا ايها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستانسوا وتسلموا على اهلها ، ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون » . (النور : ٢٧)

(ب) وفى اقتصاده ومعاملاته ، مثل : « ويلٌ للمطففين . الذين اذا اكتالوا على الناس يستوفون . واذا كالوهم او وزنوهم يخسرون » . (المطففين : ١ ـ ٣)

(جـ) وفى سياسته وحكمه ، مثل : « أن الله يامركم أن تؤدوا الامانات الى اهلها واذا حكمتم بين الناس ان تحكموا بالعدل .. » . (النساء : ٥٨)

وبهذا يتجلى شمول الأخلاق الاسلامية ، من حيث موضوعها ومحتواها ..(٧) .

* * *

● الأخلاق الفاضلة فى القرآن والسنة :

يحث القرآن الكريم على التحلى بالأخلاق الفاضلة واتباع الأسلوب القويم ، والابتعاد عن الشر وسوء الخلق .. وسنناقش فيما يلى اهم القيم والمبادىء الخلقية التى تتضمنها المعاملة ، مع الاستشهاد بالقرآن الكريم والحديث الشريف ، وتتلخص هذه المبادىء فيما يأتى :

ـ ادب الحديث .
ـ التسامح والرحمة .

---

(٧) محمد الغزالى : خلق المسلم (ط ٨) . القاهرة : دار الكتب الحديثة ، ١٩٧٤ ، ص ١٩ ـ ٢٥

- الحلم والصفح .
- العـــدالة .
- الصدق والأمانة .
- الوفاء والاخلاص .
- الصبر .
- الحيـــاء .
- الاخاء . . .
- الاتحاد والتعاون .

أولا - ادب الحديث :

ان نعمة البيان اجل النعم التى اسبغها الله تعالى على الانسان ، وكرمه بها على ســائر الخلق ، قال تعالى : « **الرحمن . علم القرآن . خلق الانسان . علمه البيان** » . (الرحمن : ١ - ٤)

وقد أوضح الاسلام كيف يستفيد الناس من هــذه النعمة المسداة ، وكيف يجعلون كلامهم الذى يتردد على السنتهم طوال يومهم طريقا الى الخير المنشود . وقد عنى الاسلام عناية كبيرة بموضوع الكلام واسلوب ادائه ، لأن الكلام الصادر عن انسان ما يشير الى حقيقة عقله وطبيعة خلقه ، ولأن طرق الحديث السائدة فى جماعة ما تحكم على مستواها العام ومدى تغلغل الفضيلة فى بيئتها .

والبعد عن اللغو من اركان الفلاح ، ودلائل الاكتمال ، وقد ذكره القرآن الكريم بين فريضتين من فرائض الاسلام ، هما الصلاة والزكاة : « **قــد افلح المؤمنون . الذين هم فى صلاتهم خاشــعون . والذين هم عن اللغو معرضون . والذين هم للزكاة فاعلون** » .
(المؤمنون : ١ - ٤)

فاذا تكلم المرء فليقل خــيرا وليعود لسانه الجميــل من القول . والكلام الطيب العف يجمل مع الأصــدقاء والأعداء جميعــا وله ثماره

الطيبة .. فأما مع الأصدقاء فهو يحفظ مودتهم ، ويستديم صداقتهم ، ويمنع كيد الشياطين ان يوهن حبالهم ويفسد ذات بينهم . قال تعالى :
« وقل لعبادى يقولوا التى هى احسن ، ان الشيطان ينزغ بينهم ، ان الشيطان كان للانسان عدوا مبينا » . (الاسراء : ٥٣)

واما حسن الكلام مع الأعداء فهو يطفىء خصومتهم ، ويكسر حدتهم ، أو على الأقل يوقف تطور الشر . قال تعالى : **« ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ، ادفع بالتى هى احسن فاذا الذى بينك وبينه عداوة كانه ولى حميم »** . (فصلت : ٣٤)

ومن الحديث النبوى الشريف :

- عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، فليقل خيرا ، او ليصمت » . (متفق عليه)

- وعنه عن النبى ﷺ قال : « ان العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى ما يلقى لها بالا يرفعه الله بها درجات ، وان العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى لا يلقى لها بالا يهوى بها فى جهنم » . (رواه البخارى)

- وعن أبى موسى رضى الله عنه قال : قلت يارسول الله ، أى المسلمين افضل ؟ قال : « من سلم المسلمون من لسانه ويده » . (متفق عليه)

- « اكثر خطايا ابن آدم من لسانه » . (رواه الطبرانى والبيهقى)

***

ثانيا ـ التسامح والرحمة :

الاسلام دين سمح يشجع على الحرية فى التفكير والحرية فى ابداء الراى ، ويدعو الى تبادل المودة والتراحم بين بنى البشر . والقرآن الكريم يحثنا على العفو والصفح والاعراض عن الجاهلين ، كما يأمرنا أن نصل من قطعنا ونعطى من حرمنا ، قال تعالى :

● « فاصفح الصفح الجميل » .　　　(الحجر : ٨٥)

● « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » .
(الأعراف : ١٩٩)

● « وليعفوا وليصفحوا ، الا تحبون أن يغفر الله لكم ، والله غفور رحيم » .　　　(النور : ٢٢)

أن هذه الصفات الخلقية التى حثنا الاسلام على التحلى بها هى المثل العليا التى تربط الانسان بأخيه الانسان . فبالتسامح والحلم تدوم الأخوة الصادقة وتقوى الروابط والصلات بين الناس . والمؤمن عزيز النفس يدرك كل الادراك متى يقابل الاساءة بالعفو ومتى يقابل الاساءة بمثلها ..قال تعالى : « وجزاء سيئة سيئة مثلها ، فمن عفا وأصلح فأجره على الله ، انه لا يحب الظالمين » .　　　(الشورى : ٤٠)

أن الرحمة كمال فى الطبيعة يجعل المرء يرق لآلام الآخرين ويسعى لازالتها ، ويأسى لأخطائهم فيتمنى لهم الهدى . هى كمال فى الطبيعة لأن تبلد الحس يهوى بالانسان من منزلته الانسانية بل ويجرده من أفضل صفاته ، وهى العاطفة النابضة بالحب والمودة والرحمة والرأفة .

والرحمة فى أفقها الأعلى وامتدادها المطلق صفة الخالق عز وجل . فان رحمته شملت الوجود وعمت الملكوت . فحيثما أشرف شعاع من علمه المحيط بكل شىء انبثق معه شعاع للرحمة الغامرة . ولذلك كان من صلاة الملائكة له سبحانه : « ربنا وسعت كل شىء رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم » .　　　(غافر : ٧)

وكثير من أسماء الله الحسنى ينبع من معانى الرحمة والكرم والفضل والعفو . وقد جاء فى الحديث القدسى : « أن رحمتى تغلب غضبى » .
(رواه البخارى)

ولقد أراد الله أن يمن على العالم برجل يمسح آلامه ، ويخفف احزانه ، ويرثى لخطاياه ، ويأخذ بناصر الضعيف . فأرسل محمدا عليه الصلاة والسلام ، وسكب في قلبه من العلم والحلم ، وفى خلقه من الايناس والبر ، وفى طبعه من السهولة والرفق ، ما جعله أزكى عباد الله رحمة ، واوسعهم عاطفة ، وارحبهم صدرا . لذلك قال فيه : **« فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك .. »** . (آل عمران : ١٥٩)

وقد جاءت الأحاديث تترى حاثة على هذه الرحمة الشاملة ، فقال عليه الصلاة والسلام :

- « من لا يرحم الناس لا يرحمه الله » . (رواه البخارى)
- « من لا يرحم من فى الأرض لا يرحمه من فى السماء » . (رواه الطبرانى)
- « من لا يرحم لا يرحم ، ومن لا يغفر لا يغفر له » . (رواه أحمد)
- « لا تنزع الرحمة الا من شقى » . (رواه أبو داوود)

والاسلام رسالة خير وسلام وعطف على البشر كلهم ، وقد قال الله لرسوله : **« وما أرسلناك الا رحمة للعالمين »** (الأنبياء : ١٠٧)

وسور القرآن كلها مفتتحة بـ : **« بسم الله الرحمن الرحيم »** .

وليست الرحمة حنانا لا عقل معه ، أو شفقة تتنكر للعدل والنظام .. انها عاطفة ترعى هذه الحقوق جميعا .. فالزجر فى موضعه ، والعقاب فى مكانه ، مطلوب عندما تدعو الحاجة ، كى تستقيم الأمور ويستتب الأمن والنظام .. ان القسوة التى استنكرها الاسلام جفاف فى النفس لا يرتبط بمنطق أو عدالة . انها نزوة تتشبع من الاساءة والايذاء ، وتمتد مع الأثرة المجردة والهوى الأعمى .. اما الرحمة فهى أثر من الجمال الالهى الباقى فى طبائع البشر يحدوهم الى البر ، ويهب عليهم فى الأزمات الخانقة ريحا لطيفة ترطب الحياة وتنعش الصدور .

ونبه الاسلام الى أن هناك اقواما ينبغى أن يحظوا باضعاف من الرحمة والعناية :

ـ من هؤلاء ذوو الأرحام ، قال رسول الله ﷺ : « الراحمون يرحمهم الله تعالى ، ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء ، الرحم شجنة (قرابة مشتبكة) من الرحمن ، من وصلها وصله الله ومن قطعها قطعه الله » . (رواه الترمذى)

فعلى المسلم أن يؤدى حقوق أقربائه وأن يقوى بالمودة الدائمة صلات الدم القائمة .. وأجدر الناس وأولاهم بهذه الرحمة هم الوالدان ، قال تعالى : « **واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا** » . (الاسراء : ٢٤)

ـ ومن تجب الرحمة بهم اليتامى ، فان الاحسان اليهم والبر بهم وكفالة عيشهم وصيانة حقوقهم من أزكى القربات .

فعن أبى هريرة أن رجلا شكا الى رسول الله ﷺ قسوة قلبه . فقال عليه الصلاة والسلام : « امسح راس اليتيم وأطعم المسكين » . (رواه أحمد)

ـ وتجل الرحمة مع المرضى وذوى العاهات .. فان هؤلاء المصابين من شأنهم ان يستقبلوا الحياة بوسائل وامكانات منقوصة ، تعجزهم عن المسير فى ركبها وادراك اغراضهم منها ، وقد عذرهم الله تعالى فلا يجوز أن نؤاخذهم بما أعفاهم الله منه : « **ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج ، ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار ، ومن يتول يعذبه عذابا اليما** » . (الفتح : ١٧)

* * *

ثالثا ـ الحلم والصفح :

تتفاوت درجات الناس فى الثبات امام المثيرات ٠٠ فمنهم من تستخفه التوافه فيثور بسرعة ، ومنهم من تستفزه الشدائد فيبقى على وضعها الأليم محتفظا برجاحة عقله وسماحة خلقه ٠ ومع أن للطباع الأصيلة دخلا كبيرا فى انصبة الناس من الحدة والهدوء ، والعجلة والأناة ، والكدر والسماحة ، الا أن هناك ارتباطا مؤكدا بين ثقة الفرد بنفسه وبين اناته مع الآخرين وتجاوزه عن خطئهم ٠ فالرجل العظيم حقا كلما خلق فى آفاق الكمال اتسع صدره ، وامتد حلمه ، وعذر الناس من انفسهم ، والتمس المبررات لأخطائهم ٠

وقد رأينا الغضب يشتط بأصحابه الى حد الجنون ، عندما لا يملكون زمام انفسهم ، ويرون انهم حقروا تحقيرا لا يعالجه الا سفك الدم ٠ فلو كان الشخص يعيش وراء أسوار عالية من فضائله فانه لا يحس بوخز الألم على هذا النحو الشديد ، فالاهانات تسقط على قاذفها قبل ان تصل الى مرماها البعيد ٠ وهذا المعنى يفسر لنا حلم « هود » عليه السلام وهو يستمع الى اجابة قومه بعدما دعاهم الى توحيد الله ، فقالوا :

« ٠٠ **انا لنراك فى سفاهة وانا لنظنك من الكاذبين ٠ قال يا قوم ليس بى سفاهة ولكنى رسول من رب العالمين ٠ ابلغكم رسالات ربى وأنا لكم ناصح امين** » ٠ (الأعراف : ٦٦ ـ ٦٨)

والجاهلية التى عالج رسول الله ﷺ محوها كانت تقوم على ضربين من الجهالة : جهالة ضد العلم ، والأخرى ضد الحلم ٠ فأما الأولى فتقطيع ظلامها يتم بأنواع المعرفة وفنون التوجيه والارشاد ، وأما الأخرى فكف ظلمها يعتمد على كبح النفس ومنع الفساد ٠ فجاء الاسلام ليقيم أركان المجتمع على العدل ، ولن تتحقق هذه الغاية الا اذا هيمن العقل الراشد على غريزة الغضب ٠ وكثير من النصائح التى اسداها الرسول للعرب تتجه الى هذا الهدف ، حتى اعتبرت مظاهر الطيش والتعدى انفلاتا من الاسلام وانطلاقا من القيود التى ربط بها الجماعة ، ومن الحديث :

« سباب المسلم فسوق وقتاله كفر » ٠ (رواه مسلم)

ومن الناس من لا يسكت عنه الغضب ، فهو فى ثورة دائمة ، وتغيظ يطبع على وجهه العبوس ٠ اذا مسه أحد ارتعش كالمحموم ، وأنشأ يرغى ويزبد ويلعن ويطعن ٠ والاسلام برىء من كل هذه الخلال الكدرة ٠ واللعن من الخصال السيئة ، والذين يستنزلون اللعنات على غيرهم لأتفه الأسباب يتعرضون لبلاء جسيم ٠ بل ان المرء يجب أن يتنزه عن لعن غيره ولو اصابه منه الأذى الشديد ٠ وعلى قدر ما يضبط المسلم نفسه ، ويكظم غيظه ، ويملك قوله ، ويتجاوز الهفوات ، ويرثى للعثرات ، تكون منزلته عند الله ٠ قال رسول الله ﷺ : « ليس المؤمن بطعان ولا لعان ولا فاحش ولا بذىء » ٠ (رواه الترمذى)

ومن الآيات الكريمة فى هذا المجال :

● « **خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين** » ٠
(الأعراف : ١٩٩)

● « **وليعفوا وليصفحوا ، الا تحبون أن يغفر الله لكم ، والله غفور رحيم** » ٠ (النور : ٢٢)

● « **ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ، ادفع بالتى هى أحسن فاذا الذى بينك وبينه عداوة كانه ولى حميم** » ٠ (فصلت : ٣٤)

● « **والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس ، والله يحب المحسنين** »٠
(آل عمران : ١٣٤)

● « **والذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش واذا ما غضبوا هم يغفرون** » ٠ (الشورى : ٣٧)

ومن الحديث النبوى الشريف :

- عن أبى هريرة رضى الله عنه ان رسول الله ﷺ قال : « ليس الشديد بالصرعة (الذى يغلب الناس ويصرعهم) انما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب » ٠ (متفق عليه)

- « اذا غضب أحدكم فليسكت » ٠ (رواه أحمد)

ـ « قال الله عز وجل : من ذكرنى حين يغضب ذكرته حين أغضب ، ولا أمحقه فيمن أمحق » . (رواه الديلمى)

ـ عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « ان الله رفيق يحب الرفق فى الأمر كله » . (متفق عليه)

ـ وعنها أن النبى ﷺ قال : « ان الرفق لا يكون فى شىء الا زانه ، ولا ينزع من شىء الا شانه » . (رواه مسلم)

* * *

رابعا ـ العدالة :

الاسلام دين الوحدة بين العبادة والمعاملة ، والعقيدة والسلوك ، والروحيات والماديات ، والقيم الاقتصادية والقيم المعنوية . انه دين الوحدة بين القوى الكونية جميعا ، فهو دين التوحيد .. توحيد الاله ، وتوحيد الأديان جميعا فى دين الله ، قال تعالى : « **وان هذه أمتكم أمة واحدة وانا ربكم فاتقون** » . (المؤمنون : ٥٢)

وعن تلك الوحدة الكبرى تصدر تشريعات الاسلام وفرائضه ، وحدوده وتوجيهاته ، وآراؤه فى مختلف الشئون السياسية والاقتصادية والمعاملات . وفى ذلك الأصل الكبير تنطوى سائر الأجزاء والتفصيلات . وحين ندرك هذه الفكرة الكلية فى طبيعة النظرة الاسلامية للكون والحياة والانسان ، ندرك معها الخطوط الأساسية للعدالة الاجتماعية فى الاسلام .. فهى قبل كل شىء عدالة انسانية شاملة ، تتناول جميع مظاهر الحياة وجوانب النشاط فيها ، كما تتناول الشعور والسلوك ، والضمائر والوجدانات ، والقيم المادية والمعنوية والروحية . ان الحياة فى نظر الاسلام تراحم وتودد وتعاون وتكافل بين المسلمين على وجه خاص ، وبين أفراد الانسانية على وجه عام .

وعندما يضع الاسلام نظمه وتشريعاته ، ونصائحه وتوجيهاته ، لا يغفل ذلك الحب الفطرى للذات عند الانسان ، ولا ينسى ذلك الشح الفطرى العميق ، ولكنه يعالج الأثرة ويعالج الشح بالتوجيه وبالتشريع ،

فلا يكلف الانسان الا وسعه ، ولا يغفل فى الوقت ذاته حاجات الجماعة ومصالحها ، وغايات الحياة العليا فى الفرد والجماعة على توالى العصور والأجيال . يقول الله تعالى فى كتابه الكريم عن الانسان :

● « **وانه لحب الخير لشديد** » . (العاديات : ٨)

● « **واحضرت الأنفس الشح ..** » . (النساء : ١٢٨)

● « **قل لو انتم تملكون خزائن رحمة ربى اذن لأمسكتم خشية الانفاق ، وكان الانسان قتورا** » . (الاسراء : ١٠٠)

لقد قرر الاسلام مبدأ المساواة الانسانية ، ومبدأ العدل بين الجميع ، ثم ترك الباب مفتوحا للتفاضل بالجهد والعمل ، كما وضع فى الميزان قيما أخرى غير القيم الاقتصادية . قال تعالى :

● « **ان اكرمكم عند الله اتقاكم ..** » . (الحجرات : ١٣)

● « **.. يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ..** »

(المجادلة : ١١)

● « **المال والبنون زينة الحياة الدنيا ، والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير املا** » . (الكهف : ٤٦)

وهكذا يبدو ان الاسلام قد وضع قيما أخرى ـ غير القيم الاقتصادية ـ يحسب حسابها ، ويجعل منها وسيلة للتعادل فى المجتمع حين تتفاوت الأرزاق بين الناس .. فالعدل المطلق يقتضى أن تتفاوت الأرزاق ، وان يفضل بعض الناس بعضا فيها مع تحقق العدالة الانسانية باتاحة الفرص المتكافئة للجميع ، فلا يقف أمام فرد حسب ولا نشأة ولا أصل ولا جنس ، ولا قيد واحد من القيود التى تغل الجهود وتعطلها .

ان العدالة فى ذاتها مطلوبة لأنها اقرب القربات الى الله تعالى .. العدالة فى كل شىء وفى كل عمل ، أى العدالة فى الأقوال والأفعال

والسلوك عامة . ويجب على المؤمن أن يقاوم الباطل وأن يناصر الحق بكل ما أوتى من قوة . وليس فى الاسلام طبقية فلا يكرم الغنى لغناه ، ولا يذل الفقير لفقره ، كما لا يعرف التفرقة العنصرية ، فلا فضل لعربى على أعجمى الا بالتقوى . يقول تعالى :

● **« يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، ان أكرمكم عند الله أتقاكم »** . (الحجرات : ١٣)

● **« واذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى »** .
(الأنعام : ١٥٢)

● **« ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، يعظكم لعلكم تذكرون »** . (النحل : ٩٠)

● **« الا لعنة الله على الظالمين »** . (هود : ١٨)

● **« ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع »** . (غافر : ١٨)

● **« وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعدا »** .
(الكهف : ٥٩)

ومن الحديث النبوى الشريف فى النهى عن الظلم :

– « من مشى مع ظالم ليعينه وهو يعلم انه ظالم فقد خرج من الاسلام » . (رواه الطبرانى وأحمد)

– « يقول الله عز وجل : وعزتى وجلالى لأنتقمن من الظالم فى عاجله وآجله . ولأنتقمن ممن رأى مظلوما فقدر أن ينصره فلم ينصره » .
(رواه أحمد)

– « لعن الله من رأى مظلوما فلم ينصره » . (رواه الديلمى)

– « ان الناس اذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه » . (رواه أبو داوود)

– « اذا رأيت أمتى لا يقولون للظالم منهم : أنت ظالم ، فقد تودع منهم » . (رواه الترمذى)

ـ « دعوة المظلوم مستجابة وان كان فاجرا ، ففجوره على نفسه » •
(رواه أحمد)

* * *

خامسا ـ الصدق والأمانة :

ان الاستمساك بالصدق فى كل شىء ، وتحريه فى كل قضية ، والالتجاء اليه فى كل حكم •• دعامة أساسية فى خلق المسلم وصبغة ثابتة فى سلوكه • وكذلك كان بناء المجتمع فى الاسلام قائما على محاربة الظنون ، ونبذ الشائعات ، فان الحقائق وحدها هى التى يجب أن تظهر وتغلب وأن تعتمد فى اقرار العلاقات المختلفة بين الناس •

قال رسول الله ﷺ : « اياكم والظن فان الظن أكذب الحديث » •
(رواه البخارى)

وقال : « دع ما يريبك الى ما لا يريبك ، فان الصدق طمأنينة ، والكذب ريبة » • (رواه الترمذى)

وقد نعى القرآن على أقوام جريهم وراء الظنون التى ملأت عقولهم بالخرافات ، وأفسدت حاضرهم ومستقبلهم بالأكاذيب ، فقال : **« ان يتبعون الا الظن وما تهوى الأنفس ، ولقد جاءهم من ربهم الهدى »** • (النجم : ٢٣)

وقال : **« وما لهم به من علم ، ان يتبعون الا الظن ، وان الظن لا يغنى من الحق شيئا »** • (النجم : ٢٨)

ولقد كان السلف الصالح يتلاقون على الفضائل ويتعارفون بها ، فاذا أساء أحد السيرة وحاول أن ينفرد بمسلك خاطىء ، بدا بعمله هذا ـ كالأجرب بين الأصحاء ، فلا يطيب له مقام بينهم حتى يبرأ من علته • وكانت المعالم الأولى للجماعة المسلمة صدق الحديث ودقة الأداء وضبط الكلام •• أما الكذب والنفاق والتدليس والافتراء ، فهى أمارات انقطاع الصلة بالدين ، أو هى اتصال بالدين على أسلوب المدلسين والمفترين ، أى أسلوب الكذابين فى مخالفة الواقع •

ان الكذب رذيلة محضة تنبىء عن تغلغل الفســاد فى نفس صاحبها ، وعن ســلوك ينشىء الشر ويندفع الى الاثم ٠٠ هناك رذائل يلتاث بها الانســان ، تشــبه الأمراض التى تعرض للبدن ٠ بل هى حقا أمراض اجتماعية أو خلقيــة ، ولا يصح منها الا بعد علاج طويل ، كالخوف الذى يصاب به العيابون ، أو الحرص الذى تنقبض به الأيدى ٠ وقد تكون هناك أعذار لمن يشعرون بوسواس الحرص أو الخوف عندما يواجهون مواقف التضحية والفــداء ٠٠ ولكنه لا عذر البتــة لمن يتخذون الكذب خلقا ويعيشون به على خديعة الناس ٠

قال رسول الله ﷺ : « يطبع المؤمن على الخلال كلها ، الا الخيانة والكذب » (رواه احمد)

وكلما اتسع نطاق الضرر اثر كذبة يشيعها أفاك جرىء كان الوزر عند الله أعظم ٠ وهذا الضرب من الافتراء فاحش فى حقيقته ، وخيم فى نتيجته ٠ ويدخل فى نطاق هــذا الافتراء سائر ما ابتدعه الجهــال ، واقحموه على دين الله من محدثات لا أصل لها ، عدها العوام دينا ، وما هى بدين ، ولكنها لهو ولعب ٠

والمرء قد يستسهل الكذب حين يمزح ، حاســبا أن مجال اللهــو لا خطر فيه على أخبار أو اختلاق ٠٠ ولكن الاسلام الذى أباح الترويح عن القلوب لم يرض وسيلة لذلك الا فى حدود الصدق المحض ، فان فى الحلال مندوحة عن الحرام ، وفى الحق غناء عن الباطل ٠ والمشاهد أن الناس يطلقون العنان لأخيلتهم فى تلفيق الأضاحيك ولا يحسون حرجا فى ادارة أحاديث مفتراة على الســنة خصومهم أو أصدقائهم ليتندروا بها أو يسخروا منها ٠ وقد حرم الدين هذا المسلك تحريما تاما ، اذ الحق أن اللهو بالكذب ، كثيرا ما ينتهى الى أحزان وعداوات ٠

قال رسول الله ﷺ : « ويل للذى يحدث بالحديث ليضحك منــه القوم فيكذب ، ويل له ، ويل له » ٠ (رواه الترمذى)

والاسلام يستلزم من معتنقه أن يكون ذا ضمير يقظ ، تصــان به

حقوق الله وحقوق الناس ، وتحرس به الأعمال من دواعى التفريط والاهمال ، ومن ثم أوجب على المسلم أن يكون « أمينا » .. والأمانة واسعة الدلالة ، وهى ترمز الى معان شتى مناطها جميعا شعور الفرد بتبعته فى كل أمر يوكل اليه ، وادراكه الأكيد بأنه مسئول أمام ربه ، على النحو الذى فصله الحديث النبوى الكريم : « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، فالامام راع ومسئول عن رعيته ، والرجل راع فى أهله وهو مسئول عن رعيته ، والمرأة فى بيت زوجها راعية وهى مسئولة عن رعيتها ، والخادم فى مال سيده راع وهو مسئول عن رعيته » .

(رواه البخارى)

وعن أنس قال : ما خطبنا رسول الله ﷺ الا قال : « لا ايمان لمن لا أمانة له ، ولا دين لمن لا عهد له » (رواه أحمد)

ومن معانى الأمانة وضع كل شىء فى المكان الجدير به واللائق له ، فلا يسند منصب الا لصاحبه الحقيق به ، ولا تملأ وظيفة الا بالرجل الذى ترفعه كفايته اليها . فالأمانة تقضى بأن تختار للأعمال أحسن الناس قياما بها ، فاذا ملنا عنه لغيره - لهوى أو مجاملة أو قرابة - فقد ارتكبنا بذلك خيانة فادحة . قال رسول الله ﷺ : « من استعمل رجلا على عصابة وفيهم من هو أرضى لله منه ، فقد خان الله ورسوله والمؤمنين » . (رواه الحاكم)

وجاء رجل يسأل رسول الله ﷺ : متى تقوم الساعة ؟ فقال له : « اذا ضيعت الأمانة ، فانتظر الساعة » . فقال : وكيف اضاعتها ؟ قال عليه الصلاة والسلام : « اذا وسد الأمر لغير أهله فانتظر الساعة » .

(رواه البخارى)

ومن معانى الأمانة أن يحرص المرء على أداء واجبه كاملا فى العمل الذى يناط به ، وأن يبذل جهده فى اتمامه على خير وجه . فهذه أمانة يمجدها الاسلام .. أن يخلص الشخص لعمله وأن يعنى باجادته . وأن يسهر على حقوق الناس التى وضعت بين يديه .

ومن الأمانة الا يستغل الشخص منصبه الذى عين فيه ، للحصول على منفعة لنفسه او لذوى قرباه ، فان التشبع من المال العام جريمة . وقد شدد الاسلام فى ضرورة التعفف عن استغلال النفوذ ، كما شدد فى رفض المكاسب غير المشروعة . قال تعالى : « **يا ايها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا اماناتكم وانتم تعلمون . واعلموا انما اموالكم واولادكم فتنة وان الله عنده أجر عظيم** » .

(الأنفال : ٢٧ ـ ٢٨)

ومن الآيات القرآنية فى مجال الصدق والأمانة :

- « **يا أيها الذين آمنوا أتقوا الله وكونوا مع الصادقين** » .
(التوبة : ١١٩)

- « **ليجزى الله الصادقين بصدقهم** .. » .
(الأحزاب : ٢٤)

- « **ان الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها** .. » .
(النساء : ٥٨)

- « **والذين هم لأماناتهم وعهدهم رأعون** » . (المؤمنون : ٨)

- « **فان أمن بعضكم بعضا فليؤد الذى أؤتمن امانته وليتق الله ربه** .. » (البقرة : ٢٨٣)

ومن الحديث النبوى الشريف :

ـ « أد الأمانة الى من ائتمنك ولا تخن من خانك » .
(رواه أحمد وأبو داوود)

ـ « المستشار مؤتمن » . (رواه الطبرانى)

* * *

سادسا ـ الوفاء والاخلاص :

اذا ابرم المسلم عقدا فيجب أن يحترمه ، واذا أعطى عهدا فيجب أن يلتزمه . ومن الايمان أن يكون المرء عند كلمته التى قالها ، فيعرف

بين الناس بأن كلمته موثق غليظ لا خوف من نقضها . والوفاء بالعهد يحتاج الى عنصرين ، اذا اكتملا فى النفس سهل عليها أن تنجز ما التزمت به ، وهما قوة الذاكرة ، وقوة العزيمة .. فضعف الذاكرة ، وضعف العزيمة ، عائقان كثيفان عن الوفاء بالعهد . والانسان لتجدد الأحداث أمامه ، وترادف الهموم المختلفة عليه ـ يفعل الزمان فعله العجيب فى نفسه ، فتخبو المعالم الواضحة ، ويمسى ما كان بارزا فى نفسه لا يكاد يظهر . ولهذا فانه يفتقر الى مذكر دائم ليتغلب على النسيان .. فالذكر المطرد اليقظ ضرورة لازمة للوفاء . قال تعالى : « .. **وبعهد الله أوفوا ، ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون** » . (الأنعام : ١٥٢)

فاذا ذكر المرء الموثق المأخوذ عليه ، يجب أن ينضم الى هذا الذكر عزم مشدد على تنفيذه ، عزم يذلل الأهواء الجامحة ، ويهون الصعاب العارضة ، بحيث يمضى فى سبيل الوفاء بما التزم به مهما تجشم من مشاق وبذل من تضحيات .. وأقدار الرجال تتفاوت تفاوتا شاسعا فى هذا المضمار ، فان ثمن الوفاء قد يكون فادحا ، قد يكلف المال أو الراحة أو الأحبة أو الحياة . وعندما يستجمع الانسان الذهن الواعى والقلب الكبير ، فهو أهل للوفاء .

والعهود التى يرتبط المسلم بها درجات ، فأعلاها مكانة وأقدسها : العهد الأعظم الذى بين العبد وخالقه .. وأن الله خلق الانسان بقدرته ، ورباه بنعمته ، وطلب منه أن يعرف هذه الحقيقة ، وأن يعترف بها ، وألا تشرد به المغويات ، فيجهلها أو يجحدها . قال تعالى : « **ألم أعهد اليكم يا بنى آدم أن لا تعبدوا الشيطان ، انه لكم عدو مبين . وأن أعبدونى ، هذا صراط مستقيم** » . (يس : ٦٠ ـ ٦١)

ومن الوفاء المحمود أن يذكر الشخص ماضيه لينتفع به فى حاضره ومستقبله ، فاذا كان فى الماضى معسرا ثم أغناه الله ، أو مريضا فشفاه الله ، فلا يجوز له أن يفصل بين أمسه ويومه بجدار سميك ، ثم يزعم أنه ما كان قط فقيرا ولا مريضا ، ويبنى على غروره بحاضره مسلكا كله فظاظة وجحود .

فهذا نوع من الغدر ينتهى بصاحبه الى النفاق المقوت ·

والاسلام يوصى باحترام العقــود التى تســجل فيها الالتزامات المــالية وغيرها ، ويأمر بانفاذ الشروط التى تتضمنها · قال تعالى :

● **« وأوفوا بالعهد ، ان العهد كان مســئولا » ·**

(الاسراء : ٣٤)

● **« وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ، ان الله يعلم ما تفعلون » ·**

(النحل : ٩١)

ان صلاح النية واخـلاص القلب لرب العــالمين ، يرتفعان بمنزلة العمل الدنيوى البحت ، فيجعلانه عبادة متقبــلة · وان خبث الطوية ، يهبط بالطاعات المحضــة ، فيقلبها معاصى شائنة فلا ينال المرء منها شيئا ، بعد التعب فى أدائها ، الا الفشل والخسارة · قال رسول الله ﷺ : « ما من مسلم يغرس غرسا ، أو يزرع زرعا ، فيأكل منه طير أو انسان ، الا كان له به صــدقة » · (رواه مسلم)

والحق أن المرء ما دام قد أسلم لله وجهه وأخلص نيته ، فــان حركاته وسكناته تحتسب خطوات الى مرضاة الله · وقد يعجز عن عمل الخير الذى يصبو اليه ، لقلة ماله أو لضعف صحته ، ولكن الله المطلع على خبايا النفوس يرفع الحريص على الاصلاح الى مراتب المصلحين ، والراغب فى الجهاد الى مراتب المجاهدين ، لأن بعد همتهم أرجح لديه من عجز وسائلهم ·

حدث فى احدى الغزوات أن تقدم الى رسول الله ﷺ رجال يريدون أن يقاتلوا الكفار معه ، وأن يجودوا بأنفسهم فى سـبيل الله ، غير أن الرسول لم يستطع تجنيدهم ، فعادوا وفى حلوقهم غصة لتخلفهم عن الميدان ، وفيهم نزل قوله عز وجل : **« ولا على الذين اذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا ألا يجدوا ما ينفقون » ·** (التوبة : ٩٢)

ولقد نوه النبى ﷺ بايمان أولئك القوم واخلاصهم ، فقال للجيش السائر : « ان أقواما خلفنا بالمدينة ، ما سلكنا شعبا ولا واديا الا وهم معنا ، حبسهم العذر » . (رواه البخارى)

* * *

سابعا ـ الصبر :

قال عليه الصلاة والسلام : « الصبر ضياء » (رواه مسلم)

اذا استحكمت الأزمات وتعقدت ، وترادفت الضوائق وطال ليلها ، فالصبر وحده هو الذى يشع للمسلم النور العاصم من التخبط ، والهداية الواقية من القنوط . والصبر فضيلة يحتاج اليها المسلم فى دينه ودنياه ، ولا بد أن يبنى عليه آماله وأعماله .. فيجب أن يوطن نفسه على احتمال المكاره دون ضجر ، وانتظار النتائج مهما بعدت ، ومواجهة الأعباء مهما ثقلت ، بعقل متفتح وقلب لم تعلق به ريبة . كما ينبغى أن يظل موفور الثقة بادى الثبات ، ويبقى موقنا بأن بوادر الصفو لا بد آتية . وان من الحكمة ارتقابها فى سكون ويقين . وقد أكد الله سبحانه ان ابتلاء الناس لا محيص عنه ، حتى يأخذوا أهبتهم للنوازل المتوقعة ، فلا تذهلهم المفاجآت ، فقال تعالى : **« ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلوا أخباركم »** . (محمد : ٣١)

ولا شك أن لقاء الأحداث ببصيرة مستنيرة واستعداد كامل أجدى على الانسان ، وأدنى الى احكام شئونه ، قال تعالى : **« .. وان تصبروا وتتقوا فان ذلك من عزم الأمور »** . (آل عمران : ١٨٦)

والصبر يعتمد على حقيقتين أساسيتين : **الأولى** ، تتعلق بطبيعة الحياة الدنيا .. فان الله جعلها دار تمحيص وامتحان ، والفترة التى يقضيها المرء بها فترة تجارب متصلة الحلقات ، يخرج من امتحان ليدخل فى امتحان آخر قد يغاير الأول مغايرة تامة . كذلك قد يكتب القدر على البعض صنوفا من الابتلاء ، ربما انتهت بمصارعهم ، وليس أمام الفرد

الا ان يستقبل البلاء الوافد بالصبر ، وما دامت الحياة امتحانا فلنكرس جهودنا للنجاح فيه ٠

والحقيقة الثانية تتعلق بطبيعة الايمان ٠٠ فالايمان صلة بين الانسان وبين الخالق سبحانه ، واذا كانت صلات المودة والصداقة بين الناس لا يعتد بها ولا ينوه بشأنها الا اذا تأكدت على مر الأيام واختلاف الحوادث ، فكذلك الايمان ، لا بد أن تخضع صلته بالابتلاء الذى يمحصها ، فاما كشف عن طيبها واما كشف عن زيفها ، قال الله تعالى : « أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ٠ ولقد فتنا الذين من قبلهم ، فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين » ٠
(العنكبوت : ٢ ـ ٣)

على هاتين الحقيقتين يقوم الصبر ، ومن اجلهما يطالب الدين به ٠ ولكن الانسان ـ ومن عادته تجاهل الحقائق ـ يدهش للصعاب اذا لاقته ، ويتبرم بالآلام اذا مسته ، ويقوم له من طبعه الهلوع ما يبغض له الصبر ويجعله فى حلقه كريه المذاق ٠ فاذا احرجه الأمر ، أو نزلت به كارثة ، ضاقت عليه الأرض بما رحبت ، وحاول أن يخرج من حالته بأسرع من لمح البصر ٠ وأولى بالمسلم أن يدرب نفسه على طول الانتظار ٠ قال تعالى : « خلق الانسان من عجل ، سأوريكم آياتى فلا تستعجلون » ٠ (الأنبياء : ٣٧)

وفى الحديث النبوى الكريم : « اذا احب الله قوما ابتلاهم ٠ فمن رضى فله الرضا ، ومن سخط فله السخط » (رواه الترمذى)

والصبر أنواع : صبر على الطاعة ، وصبر على المعصية ، وصبر على النوازل ٠٠

فأما الصبر على الطاعة فأساسه أن اركان الاسلام تحتاج فى القيام بها والمداومة عليها الى تحمل ومعاناة ٠٠ فالصلاة مثلا ، فريضة متكررة يقوم بها المسلم فى مواعيد محددة ، يقول الله فيها :

- **« وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها ٠٠ »** ٠ (طه : ١٣٢)
- **« واستعينوا بالصبر والصلاة ، وانها لكبيرة الا على الخاشعين »**٠
(البقرة : ٤٥)

والتواصى بالصبر قرين التواصى بالحق ، وقد اقسم الله عز وجل على أن فلاح البشر منوط بهما : **« والعصر ٠ ان الانسان لفى خسر ٠ الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر »** ٠
(سورة العصر)

والصبر على المعاصى ، هو عنصر المقاومة للمغريات التى تنبت فى طريق الناس وتبين لهم اقتراف المآثم المحظورة ٠ قال عليه الصلاة والسلام : « حفت الجنة بالمكاره ، وحفت النار بالشهوات » ٠
(رواه مسلم)

والادبار عن الشهوات لا يتأتى الا لصبور ، والصبر هنا اثر اليقين الحاسم والاتجاه الحازم الى ما يرضى الله ٠ قال تعالى :
« ٠٠ ربنا افرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين » ٠
(الأعراف : ١٢٦)

وهناك الصبر على ما يصيب المؤمن فى نفسه أو ماله أو أهله أو مكانته ٠ وتلك كلها أعراض متوقعة ، وهيهات أن تخلو الحياة منها ٠ على أن المسلم اذا احتمى بالله ولجأ اليه صمد أمام الأحداث ٠ ولن تفارق المؤمن رحمة الله ما دام متمسكا بدينه فى الأزمات ، ولا يتزعزع يقينه لدى الشدائد ٠ قال تعالى : **« ولنبلونكم بشىء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات ، وبشر الصابرين ٠ الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا انا لله وانا اليه راجعون ٠ أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون »** ٠ (البقرة : ١٥٥ ـ ١٥٧)

* * *

ثامنا ـ الحيـــاء :

الحياء أمارة صادقة على طبيعة الانسان ، فهو يكشف عن قيمة ايمانه ومقدار أدبه . وعندما ترى الشخص يتحرج من فعل ما لا ينبغى ، أو ترى حمرة الخجل تصبغ وجهه اذا بدر منه ما لا يليق ، فاعلم أنه حى الضمير ، نقى المعدن ، طيب العنصر . واذا رأيت الشخص صفيقا بليد الشعور ، لا يبالى ما يأخذ أو يترك ، فهو امرؤ لا خير فيه ، وليس له من الحياء وازع يعصمه من اقتراف الآثام وارتكاب الخطايا .

وقد أوصى الاسلام بالحياء ، وجعل هـذا الخلق السـامى أبرز ما يتميز به المسلم من فضائل . قال رسول الله ﷺ : « ان لكل دين خلقا ، وخلق الاسـلام الحياء » . (رواه مالك)

وكان النبى ﷺ ارق الناس طبعا ، وانبلهم سـيرة ، وأعمقهم شـعورا بالواجب ، ونفورا من الحرام . عن ابى سـعيد الخدرى : « كان رسـول الله اشد حياء من العذراء فى خدرها ، وكان اذا رأى شـيئا يكرهه عرفناه فى وجهه » . (متفق عليه)

قال رسول الله ﷺ : « ان الله عز وجل اذا أراد أن يهلك عبدا نزع منـه الحيـاء . فاذا نزع منـه الحياء لم تلقه الا مقيتا ممقتـا (مبغضا) . فاذا لم تلقه الا ممقتا نزعت منه الأمانة . فاذا نزعت منه الأمانة لم تلقه الا خائنا مخونا ، نزعت منه الرحمة . فاذا نزعت منـه الرحمة لم تلقه الا رجيما ملعنا . فاذا لم تلقه الا رجيما ملعنـا نزعت منه ربقة (رباط) الاسلام » (رواه ابن ماجه)

وهذا ترتيب دقيق فى وصفه لأمراض النفوس وتتبعه لأطوارها ، وكيف تسلم كل مرحلة خبيثة الى أخرى أشد نكرا .. فان الشخص اذا مزق الحجاب عن وجهه ، ولم يتهيب على عمله حسابا ، ولم يخش فى سلوكه لومة لائم ، مد يد الأذى للناس ، وطغى على كل من يقع فى سلطانه . ومثل هذا الشخص الشرس لن يجد قلبا يعطف عليه ، بل انه يغرس الضغائن فى القلوب وينميها .

وللحيـاء مواضـع يستحب فيها ٠٠ فالحياء فى الكلام يتطلب من المسلم أن يطهر فمه من الفحش ، وأن ينزه لسانه عن العيب ، فان من سوء الأدب أن تفلت الألفـاظ البذيئة من المرء غـير عابىء بمواقعهـا وآثارها ٠

قال رسول الله ﷺ : « الحياء من الايمان والايمان فى الجنة ، والبذاء من الجفاء والجفاء فى النار » (رواه أحمد)

ومن الحياء فى الكلام أن يقتصد المسلم فى تحدثه بالمجالس ، فان بعض الناس لا يستحيون من امتـلاك ناصية الحديث فى المحافـل والاجتماعات ، فيملأون الأفئدة بالضجر من طول ما يتحدثون ، وقد كره الاسلام هذا الصنف من الناس ٠ وسر هذا البغض أن أخبار هؤلاء المتشدقين لا تخلو من المبالغة ، لعلل خلقيـة كان الحياء علاجها الشافى لو أنهم استمسكوا به ٠

ومن الحياء أن يخجل الانسان من أن يؤثر عنه سوء ، وأن يحرص على بقاء سمعته نقية من الشوائب بعيدة عن الاشاعات السيئة ٠٠ فان الرجل الذى يخجل من الظهور برذيلة لا تزال فيه بقية من خير ، والرجل الذى يطلب الظهور بالفضيلة لا تزال فيه بقية من شر ٠ وينبغى على الانسان أن يخجل من نفسه كما يخجل من الناس ، واذا كره أن يراه الناس على نقيصة فليكره أن يرى نفسه على مثلها ٠ ومن ثم كان لزاما على المسلم أن يبتعد عن الدنايا والنقائص ، ما ظهر منها وما بطن ، سواء خلا بنفسه أو برز الى الناس ٠

ان الحياء ملاك الخير ، وهو عنصر النبل فى كل عمل يشـوبه ، قال رسول الله ﷺ : « ما كان الفحش فى شىء الا شـانه ، وما كان الحياء فى شىء الا زانه » ٠ (رواه الترمذى)

ومن حياء الانسان مع الناس أن يعرف لأصحاب الحقوق منازلهم ، وأن يؤتى كل ذى فضل فضله ٠ فللغلام مع من يكبرونه ، وللطالب مـع من يعلمونه مسلك يقوم على التأدب والاحترام والتقديم ، فلا يسـوغ

أن يرفع فوقهم صوته ، ولا أن يسبقهم فى خطوه • وفى الحديث :

ـ « تواضعوا لمن تعلمون منه » • (رواه الطبرانى)

ـ « اللهم لا يدركنى زمان لا يتبع فيه العليم ، ولا يستحيا فيه الحليم » • (رواه أحمد)

والحياء فى أسمى منازله وأكرمها يكون من الله عز وجل ، فنحن نطعم من خيره ونتنفس فى جوه ، وندرج على أرضه ، ونستظل بسمائه ، ان حق الله على عباده عظيم ، ولو قدروه حق قدرة لسارعوا الى الخيرات يفعلونها من تلقاء انفسهم ، ولباعدوا عن السيئات خجلا من مقابلة الخير بالجحود •

عن ابن مسعود : قال رسول الله ﷺ : « استحيوا من الله حق الحياء ، قلنا : انا نستحى من الله يارسول الله ـ والحمد لله ـ قال : ليس ذلك •• الاستحياء من الله حق الحياء أن تحفظ الراس وما وعى ، والبطن وما حوى ، وتذكر الموت والبلى • ومن أراد الآخرة ترك زينة الحياة الدنيا ، وآثر الآخرة على الأولى • فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء » • (رواه الترمذى)

وهذه العظة تستوعب كثيرا من آداب الاسلام ومناهج الفضيلة •• فان على المسلم تنزيه لسانه أن يخوض فى باطل ، وبصره أن يرمق عورة ، واذنه أن تسترق سرا • وعليه أن يفطم بطنه عن الحرام ، ويقنعها بالطيب الميسور • ثم عليه أن يصرف أوقاته فى العمل الصالح ومرضاة الله ، وايثار ما لديه من ثواب ، فلا تستخفه نزوات العيش ومتعه الخادعة •• فان فعل ذلك عن شعور ويقين بأن الله يرقبه ، ونفور من اقتراف تفريط فى جنب الله ، فقد استحيا من الله حق الحياء •

والحياء بهذا الشمول هو الدين الخالص كله ، فاذا أطلق على طائفة من الأعمال الجميلة فهو جزء من الايمان •

***

تاسعا ـ الاخاء :

ليست هناك دواعى معقولة تحمل الناس على أن يعيشوا أشتاتا متناكرين ، بل ان الدواعى على المنطق الحق والعاطفة السليمة تعطف البشر بعضهم على البعض الآخر ، وتمهد لهم مجتمعا متكافلا تسوده المحبة ، ويمتد به الأمان على ظهر الأرض . والله عز وجل رد أسباب الناس وأجناسهم الى أبوين اثنين ، ليجعل من هذه الرحم الماسة ملتقى تتشابك عنده الصلات وتستوثق . قال تعالى : « **يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، ان أكرمكم عند الله أتقاكم ، ان الله عليم خبير** » . (الحجرات : ١٣)

فالتعارف ـ لا التنافر ـ أساس العلاقات بين البشر . وكل رابطة توطد هذا التعارف وتزيح من طريقه العوائق فهى رابطة يجب تدعيمها ، والانتفاع بخصائصها . وليس الاسلام مجرد رابطة تجمع بين عدد من الناس فحسب ، ولكنه جملة الحقائق التى تقر الأوضاع الصحيحة بين الناس وربهم ، ثم بين الناس أجمعين . ان الأثرة (الأنانية) آفة الانسان ، اذا سيطرت نزعتها على شخص محقت خيره ونمت شره ، وحصرته فى نطاق ضيق لا يعرف فيه الا شخصه ، ويصبح متمركزا حول ذاته ، ولا يهمه شىء من شئون الآخرين . وقد حارب الاسلام هذه الأثرة الظالمة بالأخوة العادلة ، وأفهم الانسان أن الحياة ليست له وحده ، وانها لا تصلح به وحده . فليعلم **ان هناك اناسا مثله** ، ان ذكر حقه عليهم ومصلحته عندهم فليذكر حقوقهم عليه ومصالحهم عنده . ان هذه التذكر يخلع المرء من أثرته ، ويحمله على الشعور بغيره حين يشعر بنفسه .

ومن حق أخيك عليك أن تكره ضرره ، وأن تبادر الى دفعه عنه ، فان مسه أذى شاركته الألم ، وأحسست معه بالحزن . قال رسول الله ﷺ :

ـ « مثل المسلمين فى توادهم وتعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد

الواحد ، اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى » .
(رواه البخارى)

ـ « المسلم اخو المسلم لا يظلمه ولا يثلمه . من كان فى حاجة اخيه كان الله فى حاجته ، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة . ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة » .
(رواه البخارى ومسلم)

ـ « ان الله يقول يوم القيامة : أين المتحابون بجلالى ؟ اليوم أظلهم فى ظلى يوم لا ظل الا ظلى » . (رواه مسلم)

ـ « من استعاذ منكم بالله فأعيذوه ، ومن سأل بالله فأعطوه ، ومن دعاكم فأجيبوه ، ومن صنع اليكم معروفا فكافئوه ، فان لم تجدوا ما تكافئوه فادعوا له حتى تروا أن قد كافأتموه » .
(رواه أحمد ، وابو داوود ، والنسائى)

ـ « حق الجار ان مرض عدته ، وان مات شيعته ، وان افتقر أقرضته ، وان أعوز سترته ، وان أصابه خير هنأته ، وان أصابته مصيبة عزيته ، ولا ترفع بناءك فوق بنائه فتسد عليه الريح ، ولا تؤذيه بريح قدرك الا أن تغرف له منها » . (رواه الطبرانى)

ـ « ما زال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه » .
(متفق عليه)

ومن حق الأخوة أن يشعر المسلم بأن اخوانه ظهير له فى السراء والضراء وانه لا يتحرك وحده فى خضم الحياة ، بل ان قوى المؤمنين تسانده وتشد أزره فى مسيرته . ومن ثم كانت الأخوة الخالصة نعمة مضاعفة ، فهى نعمة التجانس الروحى والمادى معا . قال تعالى : **« .. واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخوانا .. »** . (آل عمران : ١٠٣)

ورهب الاسلام من يلعب بهم الشيطان ويغريهم بالتطاول على

اخوانهم طلبا للاستعلاء فى الأرض ، فبين ان هؤلاء المتطاولين سوف يتضاءلون يوم القيامة ، وعلى قدر ما انتفخوا ينكمشون حتى يصيروا هباء . وفى الحديث : « يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر فى صور رجال يغشاهم الذل من كل مكان » . (رواه الترمذى)

وقال تعالى : « **وقال ربكم ادعونى أستجب لكم ، ان الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين** » . (غافر : ٦٠)

- « **سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض** » . (الأعراف : ١٤٦)

- « **قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج انك من الصاغرين** » . (الأعراف : ١٣)

وقال رسول الله ﷺ : « قال الله عز وجل : العز ازارى ، والكبرياء ردائى ، فمن ينازعنى عذبته » . (رواه مسلم)

ومما يمزق أواصر الأخوة : التهكم والازدراء والسخرية من الآخرين . ان هذه الأخلاق تنشأ عن جهالة وغفلة . فان من حق الضعيف ان يجد المساندة دون النيل منه ، ومن حق الحائر القلق الملهوف أن يرشد الى الطريق القويم لا التهكم عليه . واذا وجدت بشخص عاهة أو عرضت له سيئة فآخر ما يتوقع من أخيه المسلم أن يجعل ذلك مثار تندره واستهزائه . قال تعالى : « **يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ..** » . (الحجرات : ١١)

ومما اتخذه الاسلام لصيانة الأخوة ومحو الفروق المصطنعة ، توكيد التكافؤ فى الدم والتساوى فى الحق ، وأشعار العامة والخاصة بأن التفاخر بالأنساب باطل . فلا يفضل أحد أخاه فى الاسلام الا بالتقوى والعمل الصالح . قال رسول الله ﷺ : « اذا كان يوم القيامة أمر الله مناديا ينادى : الا انى جعلت نسبا ، وجعلتم نسبا . فجعلت أكرمكم

اتقاكم ، فأبيتم الا ان تقولوا : فلان ابن فلان • فاليوم أرفع نسبى واضع انسابكم » • (رواه البيهقى)

وهذا تأكيد لقوله تعالى :

« فاذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون • فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون • ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم فى جهنم خالدون » •

(المؤمنون : ١٠١ ـ ١٠٣)

* * *

عاشرا ـ الاتحاد والتعاون :

تقوم شرائع الاسلام وآدابه على اعتبار الفرد جزءا لا يتجزأ ولا ينفصم من كيان الأمة ، وعضوا موصولا بجسمها لا ينفك عنها ، فهو ـ طوعا أو كرها ـ يأخذ نصيبه مما يتوزع على الجسم كله من غذاء ونمو وشعور • وقد جاء الخطاب الالهى مقرا هذا الوضع ، فلم يتجه للفرد وحده بالأمر والنهى ، انما تناول الجماعة كلها بالتاديب والارشاد • قال تعالى : « **يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون • وجاهدوا فى الله حق جهاده ••** » •

(الحج ٧٧ ـ ٧٨)

فاذا وقف المسلم بين يدى ربه ليتضرع اليه ويناجيه ، لم تجز العبادة على لسانه كعبد منفصل عن اخوانه ، بل كطرف من مجموع متسق مرتبط يقول : « **اياك نعبد واياك نستعين** » • (الفاتحة : ٥)

ثم يسال الله من خيره وهداه ، فلا يختص نفسه بالدعاء ، بل يطلب رحمة الله له ولغيره ، فيقول : « **اهدنا الصراط المستقيم • صراط الذين أنعمت عليهم** » • (الفاتحة : ٦ ـ ٧)

ان الله عز وجل لم يخلق الناس لينقسموا ويختلفوا •• لقد شرع

لهم دينا واحــدا ، وأرسل أنبياء تترى ليقودوا الناس كافة فى طريق واحد ، وحرم عليهم من الأزل أن يصدعوا الدين وأن يتفرقوا حوله ·

بيد أن الناس فى غمره الحياة واتباع الشهوات تناسوا هذه الوصية الكريمة ، وتنكروا لهذا التراث العظيم ، فانقسم الناس أحزابا ، وصار كل حزب يكيد للآخر ويتربص به · قال تعالى : « **يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا ، انى بما تعملون عليم · وان هــذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون · فتقطعوا أمرهم بينهم زبرا ، كل حزب بما لديهم فرحون · فذرهم فى غمرتهم حتى حين** » · (المؤمنون : ٥١ ــ ٥٤)

وبين الله عز وجل أن اتباع الهوى ومتابعة البغى هو سر هــذا الافتراق الواسع ·· والحق أن العلم عندما ينفصل عن الخلق ، ويفارقــه الاخــلاص ، يمسى وبالا على أهله وعلى الناس · وقد كان رسول الله ﷺ يستعيذ بالله من علم لا ينفع ··

وقال تعــــالى : « **وما تفرقوا الا من بعــد ما جاءهم العــلم بغيــا بينهم ··** » · (الشورى : ١٤)

فالنظر الى ضراوة العلم عندما يفقد الاخلاص لله والرفق بالعباد ، كيف يثير الفرقة ، ويقطع ما أمر الله به أن يوصل ·· ان اختلاف الأفهام وتضارب الآراء ليس بمستغرب فى الحيــاة ، ولكن ليس هــذا سـبب التقاطع والشقاق · انما يعود سبب الشقاق الى اسهام عوامل أخــرى وانضمامها ، تستغل تباين الأفطار والآراء للتنفيس عن أهواء باطنــة · ومن ثم ينقلب البحث عن الحقيقة الى ضرب من العناد لا صلة له بالعلم البتة · ولمــا كان هــذا الاختلاف المريب مفسدا لدين الله ودنيا الناس فقد اعتبره الاســلام انفصالا عنه · قال تعالى فى كتابه الكريم محذرا المسلمين من الخلاف فى الدين والتفرق فى فهمه شـيعا متناحرة كمــا فعل الأولون :

« ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات ، وأولئك لهم عذاب عظيم . يوم تبيض وجوه وتسود وجوه ، فأما الذين اسودت وجوههم اكفرتم بعد ايمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون . وأما الذين ابيضت وجوههم ففى رحمة الله ، هم فيها خالدون » .

(آل عمران : ١٠٥ ـ ١٠٧)

ان ائتلاف القلوب والمشاعر ، واتحاد الغايات والمناهج ، من أوضح تعاليم الاسلام ، والزم صفات المسلمين المخلصين . ولا ريب ان توحيد الصفوف واجتماع الكلمة هما الدعامة الوطيدة لبقاء الأمة ، ودوام دولتها ، ونجاح رسالتها . ولئن كانت كلمة التوحيد باب الاسلام ، فان توحيد الكلمة سر البقاء فيه ، والابقاء على رسالته ، والضمان الأول للقاء الله سبحانه وتعالى بوجه مشرق وصفحة نقية .

ولكى يمتزج المسلم بالمجتمع الذى يحيا فيه شرع الله الجماعة للصلوات اليومية ورغب فى حضورها وتكثير الخطو اليها ، ثم الزم أهل الحى أو العشيرة أن يلتقوا كل أسبوع لصلاة الجمعة . وبعد هذا دعا الى اجتماع اكبر فى صلاة العيد جعل مكانه الأرض الفضاء خارج البلدة ، وأمر الرجال والنساء بالمشاركة فيه اتماما للنفع وزيادة فى الخير .. ثم أذن الى حشد اضخم يضم الشتات من المشرق الى المغرب . ففرض الحج ، وجعل له مكانا معلوما وزمانا محدودا ، حتى يجعل اللقاء بين أجناس المسلمين أمرا محتوما .

وكان رسول الله ﷺ شديد التحذير من عواقب الاعتزال والفرقة ، وكان فى حله وترحاله يوصى بالتجمع والاتحاد ، قال عليه الصلاة والسلام :

ـ « الشيطان يهم بالواحد والاثنين ، فاذا كانوا ثلاثة لم يهم بهم » .

(رواه مالك)

ـ « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » .

(رواه البخارى ومسلم)

وقال تعالى : « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصـــلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله ، أولئك سيرحمهم الله ، ان الله عزيز حكيم » .

(التوبة : ٧١)

ان الناس اذا لم يجمعهم الحق شعبهم وشتتهم الباطل ، واذا لم توحدهم عبادة الرحمن مزقتهم عبادة الشـيطان ، واذا لم يستهوهم نعيم الآخرة تخاصموا على متاع الدنيا . لذلك كان التطاحن المر من خصائص الجاهليـة المظلمة وصفة من لا ايمان لهم . قال رســـول الله ﷺ : « لا ترجعوا بعدى كفارا ، يضرب بعضكم رقاب بعض » .

(رواه الترمذى)

ان الشقاق يضعف الأمم القوية ، ويميت الأمم الضـعيفة ، ولذلك جعل الله اول عظة للمسلمين - بعد انتصارهم فى غزوة « بدر » - ان يوحدوا صـفوفهم ويجمعوا أمرهم . ولمـا تطلعت النفوس للغنـائم ، تشتهى حظها وتتنافس على اقتسامها نزل قوله تعالى : « يسألونك عن الأنفال ، قل الأنفال لله والرسول ، فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم ، وأطيعوا الله ورسوله ان كنتم مؤمنين » . (الأنفال : ١)

ثم افهمهم أن الاتحـاد فى العمـل لله هـو طريق النصر المحقق .

قال تعـالى : « وأطيعوا الله ورســوله ولا تنازعوا فتفشـلوا وتذهب ريحكم .. » . (الأنفال : ٤٦)

وحذرهم من أن يسـلكوا فى التكالب على الدنيـــا مسلك الذين لا يرجون عند الله ثوابا ، فقال تعالى : « ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطرا ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله ، والله بما يعملون محيط » . (الأنفال : ٤٧)

ثم تلقى المسلمون فى « أحد » لطمة موجعة افقدتهم عددا لا يستهان

به من أبطالهم ، وردتهم الى المدينة وهم يعانون الأمرين من خزى الهزيمة وشماتة الكافرين • ولم ذلك ؟ مع أن أيمانهم لم يتزعزع •• ذلك لأنهم تنازعوا وانقسموا وعصوا أمر الله ورسوله • قال تعالى : « **ولقد صدقكم الله وعده اذ تحسونهم باذنه ، حتى اذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون ، منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ، ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ••** » • (آل عمران : ١٥٢)

وكان ذلك يعود الى انحلال عرى المسلمين وتفرقهم •

***

وبعـد ••

لقد ناقشـنا المنهاج الأخلاقى فى الاسـلام الذى يحث على حسـن المعاملة ، وموقف الانسان من الخير والشر ، ثم انتقلنا الى القيم والأخلاق فى المعاملة •

ـ فأدب الحديث يحث المسلم أن يعود لسـانه الجميل من القول واللفظ العفيف حتى يحفظ مودة الأصدقاء وينتصر على الأعداء ويكسر حدتهم • فعلينـا أن نستمسك بأداب الحديث فى تعاملنا بعضنا مـع البعض الآخر وأن نمسك عن بذىء اللفظ ، فالكلمة الطيبة صدقة •

ـ والاسلام دين سمح ، يشجع على العفو والصفح والاعراض عن الجاهلين ، أى التسامح ، فبالتسامح والحلم تدوم الأخوة بين المسلم وأخيه المسلم ، كما أن الرحمة تجعلنا نرق لآلام الآخرين ونقدر ظروفهم •• فالعفو من شيم الكرام •

ـ ومن الناس من يثور ويفقد اتزانه لأتفه الأسباب ، والاسلام يحثنا على التمسك بالحلم وضبط النفس ، وألا يعصف الغضب بنفوسـنا فنقدم على أعمال لا تحمد عقباها ونندم عليها فيما بعد • وعلى قدر ما نضبط أنفسـنا ، ونكظم غيظنا ، ونسيطر على أقوالنـا وأفعالنـا ، ونتجاوز عن هفوات غيرنا ، ونرثى لعثراتهم ، نكون منزلتنا عند الله والناس •

ـ والعدل أســاس الملك ٠٠ ان العــدالة فى الأقوال والأفعال مطلوبة فى كل مكان وزمان ٠ ولقد قرر الاسلام مبدأ المســاواة الانسانية ، بمعنى انه لا فضــل لشــخص على آخر الا بالعمــل الصالح ٠ ومراعاة تحقيق مبدأ تكافؤ الفرص للجميع ، فلا تحيز ولا تحامل ، والكل سواء ، فلا وساطة ولا قرابة ولا صداقة تبيح أن نهدر حق شخص كى نجامل آخر ٠

ـ ان الصــدق فضيلة ، والكذب رذيلة ٠٠ فالتمســك بالصدق فى كل شأن ، وتحريه فى كل قول وفعل ، والالتجاء اليــه فى كل حكم ، دعامة أساسية فى خلق المســلم ٠ وعلينا أن نتحرى الصــدق دائما ، والا نلجأ الى الكذب لتبرير أخطائنا ٠ وقد يلجأ بعض الناس الى الكذب للمزاح والتفكه على الآخرين والترويح عن النفس ، ولكن الاسلام لا يرضى هــذا الأسلوب فى اســتخدام الكذب ، حيث ان اللهــو بالكذب كثيرا ما ينتهى الى العداوات ٠

ـ على كل فرد منا أن يحترم كلمته ووعوده ، مما يســتلزم قوة الذاكرة وقوة العزيمة ٠ وعلينــا أن نذكر ماضينا ، حتى ننتفع به فى حاضرنا ومستقبلنا ٠ ان اخلاص النية والقلب والضمير للخالق سبحانه وتعالى ترتفع بمنزلة العمل الدنيوى ، فتجعله فى مرتبة العبادة ٠

ـ الصبر مفتاح الفرج ٠٠ فعلينا أن نوطد أنفســنا على احتمال المكاره دون ضجر ، وأنتظار النتائج مهما بعدت ، ومواجهة الأعبــاء مهما ثقلت ، دون شــك أو ريبة أن بعــد العسر يسرا ، والصبر عنــد المعاصى والادبار عند الشهوات لا يتأتى الا لصبور ٠

ـ لقد أوصى الاســلام بالحياء ، وجعل هــذا الخلق الســامى من أبرز ما يتميز به المسلم من فضائل ٠٠ وينبغى اتباع الحياء فى الكلام ، ومراعاة الاقتصــاد فى الحديث بالمجالس والاجتماعات ، فالأفضــل ألا يكون الحديث فى غير موضــعه ، ومراعاة اســتخدام الألفاظ الســليمة دون بذاءة أو فحش أو سباب ، مع توخى الدقة فى اختيار الكلمات المناسبة للموقف ، فلكل مجال مقال ، واحترام ذوى المكانة والفضــل والأكبر سنا ،

وفوق كل هـذا : الحياء من الله سبحانه وتعالى ، خالق كل شىء ـ فانه سبحانه ـ قد أسبغ علينا نعمة الحياة ورزقنا من فضله ٠

ـ المرء قليل بنفسه كثير باخوانه ٠٠ والانســان كائن اجتماعى لا يستطيع أن يحيا بمعزل عن الآخرين ٠ فالشـعور بالانتماء يشــكل احدى الحاجات الأساسية للانســان ٠٠ فهو منذ نشــأته ينتمى الى الأبوين ، والى الأخوين ، والى الأسرة ، والى رفاق الدراسة ، والى رفاق العمل ، والى المجتمع بوجه عام ٠ فالاخاء اســاس العلاقات بين البشر ، والأثرة تميت القلوب وتبلد الشعور الانسانى ، وتجعل من الشــخص عبدا لنواته واهوائه ٠

ـ واخيرا وليس آخرا ، فالاتحاد قوة ٠٠ فائتلاف القلوب والمشاعر ، واتحاد الغايات والمناهج من الزم صفات المسلمين ٠ واجتماع الكلمــة وتوحيـد الصفوف من اهم الضرورات لقوة المجتمع واستمراره وصـموده أمام اعدائه(٨) ٠



(٨) سيد عبد الحميد مرسى : **الدين المعاملة** ٠ جدة : ادارة تدريب التسويق ، الخطوط الجوية العربية السعودية ، ١٩٨٥ ، ص ٢٩ ـ ٣٠

الفصل الرابع

الجماعة المسلمة

● مفهوم الجماعة :

« الجماعة » ـ من وجهة نظر علم الاجتماع ـ هى الأداة التى يستخدمها المجتمع فى تنشئة أو تطبيع أفراده · وتعرف الجماعة بأنها « شخصان أو أكثر يشتركان فى المعايير والمبادىء والقيم النابعة منهم ، ويكون لكل منهم دور حيال الآخرين من أجل الوصول الى هدف معين ، يؤدى الى اشباع حاجاتهم الاجتماعية · ويكون وجودهم معا خاضعا لقواعد اجتماعية معينة ومحددة بصورة تسمح بأن يتوقع كل من أفرادها سلوك الآخر توقعا واضحا بدرجة ما من الدقة » · ومن هذا التعريف ينبغى أن يتوافر فى الجماعة العناصر التالية (١) :

١ ـ أن يخضع تكوين الجماعة لقواعد اجتماعية معينة : مثل عقود الزواج وما يتصل بها من عادات وتقاليد ، أو قواعد توزيع التلاميذ فى الفصول الدراسية ، أو قواعد تكوين الفرق الرياضية ، أو قواعد توزيع العاملين فى الهيئات الحكومية والمؤسسات العامة ·· فهذه القواعد تحدد حقوق وواجبات كل طرف من أطراف الجماعة حيال الآخر ·

٢ ـ أن يتوافر شرط التفاعل الاجتماعى المباشر (Face to Face Interaction) : وقد يكون هذا التفاعل اتصالا أو تنافسا أو صراعا أو تعاونا أو تكيفا أو تنشئة اجتماعية ·

٣ ـ أن يكون لكل من أفراد الجماعة دور محدد : فالأب فى جماعة الأسرة له دور واضح باعتباره راعيا لتلك الأسرة ، والأم لها دور واضح

---

(١) زيدان عبد الباقى ، **مرجع سابق** · ص ٧٨ ـ ٨٠ ·

باعتبارها شريكة الزوج فى رعاية الأسرة ، والأبناء لهم دور ايضا وهو تلقى اسس التربية والتنشئة فى الأسرة وأسس التعليم فى المدرسة او المعهد التعليمى بصورة تعتمد على الطاعة والمواظبة والتحصيل من أجل النجاح والوصول الى درجة معينة من النضج الاجتماعى المطلوب للمواطن الصالح • وكذلك المشرف أو رئيس العمل له دور واضح هو وضع كل فرد فى العمل الذى يناسبه ولتوزيع الأعمال على العاملين ومراقبة قيام كل منهم بدوره او واجبه ، وكل عامل له دور هو القيام بما يسند اليه من اعمال ، وهكذا •

٤ ـ **شرط الهدف** : فكل جماعة ينبغى ان يكون لها هدف تسعى الى تحقيقه ، مثل جماعة العمل التى يكون هدفها الانتاج وتحقيق الكفاية الانتاجية • ومثل جماعة الأسرة ، فهى « سكن » لكلا الزوجين ، يتحقق فيها البقاء واستمرار النوع ، وتحقيق الغاية من الوجود الاجتماعى ، واشباع الدوافع العاطفية والجنسية ، والانفعالات الاجتماعية مثل عواطف الأبوة والأمومة والأخوة وما الى ذلك • فالأسرة هى الوسط الذى اصطلح عليه المجتمع لاشباع حاجات الانسان ودوافعه البيولوجية والاجتماعية •

٥ ـ **شرط التوقع** : وهذا التوقع يستند الى حقوق اعضاء الجماعة وواجباتهم التى تحددها قواعد تكوينها •• فالزوجة التى لا تقوم بواجباتها المنزلية فى حينها تتوقع من زوجها المؤاخذة او التأنيب او العقاب • والعامل الذى يهمل فى أداء واجباته يتوقع من رئيسه اللوم أو العقاب الادارى •• ومن هنا فان « التوقع » فى السلوك بين اعضاء اى جماعة هو احد شروط وجود هذه الجماعة •

وترتيبا على ذلك ، فان الانسان كائن اجتماعى لا يستطيع العيش بمعزل عن الآخرين فى المجتمع ، وانما من الضرورى أن ينتمى الى جماعة ، بل الى جماعات مختلفة ، حتى يستطيع اشباع حاجاته النفسية والاجتماعية • والجماعة لا تقوم باشباع حاجات الفرد وتحقيق رغباته دون قيد او شرط ، وانما هى تضع له القواعد والأسس التى يتم فى نطاقها اشباع دوافعه وتحقيق رغباته • ومن ثم ، فان على الفرد ـ اذا ما اراد ان يشبع حاجاته

ودوافعه ـ ان يقوم بعـدة عمليات للتكيف الاجتماعى مع الأوضاع السائدة فى الجماعة • ومن هنا ينعكس تأثير الجماعة على شخصيته ، أو بمعنى آخر تبدأ الجماعة ـ متمثلة فى الأسرة ـ منذ لحظة مولده فى تشكيل طبائعه ، حتى تتخذ كل منها السمة المعينة التى تميزه عن غيره • فالجماعة تساعـد الفرد ـ منـذ لحظة وصوله الى العالم الواقعى ـ على تحويل قدراته وامكاناته الفطرية الى استعدادات ومهارات حتى يصبح لـه شخصية خاصـة تتميز بخصائص اجتماعية ونفسية وعقلية وبدنية • غير أن هذا الفـرد عندما يصل الى درجة من النضج الاجتماعى وتتوافر لديه القدرات العقليـة العليا ، قد يعمل على التأثير فى المجتمع بصورة ما ، مثـل كثير من القادة والزعماء والعلمـاء •

* * *

خصـائص الجمـاعة

تتميز كل جماعة اجتماعية بمجموعة من الخصائص تميزها عن غيرها من الجماعات ، ونوجز هذه الخصائص فيما يأتى(٢) :

١ ـ يشعر اعضاء الجماعة بوحدتهم وتشابههم ، وبتميزهم عن اعضاء الجماعات الأخرى •

٢ ـ كل جماعة لا بد أن يكون لديها مركز اهتمام خاص ، ويختلف هذا الاهتمام باختلاف طبيعة الجماعة •• فقد تهتم الجماعة بتحقيق هـدف علمى أو اجتماعى معين مثلا •

٣ ـ لا بد أن تكون الجماعة منظمة ، فهناك بناء داخلى يحدد المراكز والأدوار ووسائل الاتصال ومواضع السلطات •

* * *

---

(٢) سـناء الخولى ، **مدخل الى علم الاجتماع** • الاسكندرية : دار المعرفة الجامعية ، ١٩٧٨ ، ص ١٥٥ •

● **تصنيف الجماعة :**

تصنف الجماعات الى الآتى(٣) :

١ ـ جماعة داخلة / أولية / تلقائية :

(In Group , Primary, Spontaneous)

حيث يتطلب الأمر أن ينتمى اليها الشخص تلقائيا ، ويدين لها بالولاء ، ويعمل متعاونا مع افرادها ، وتكون العلاقات فيها وجها لوجه بحيث يتأثر الأفراد فيها بعضهم بالبعض الآخر تأثرا شخصيا ، وينتمى اليها الفرد بصورة تلقائية بحكم مولده أو نشأته . وخير مثال لذلك « الأسرة » ، وأبناء القرية أو الحى الذى يولد فيه الفرد والطبقة التى ينتمى اليها .

وتعرف الجماعة الأولية بأنها تلك التى يتصل فيها الناس اتصالا قويا مباشرا . وتسمى أمثال هذه الجماعات بالجماعة الأولية / **الأساسية** ، لأنها تشتمل على المؤثرات الجوهرية الأساسية التى تقوم عليها الحياة الاجتماعية للفرد . ويؤدى الاتصال المباشر الى اندماج الفرد فى الكل العام الذى ينتظم تلك الجماعة ، وتصبح ذات الفرد نفسها جزءا قويا فى الحياة العامة المشتركة لهذه الجماعة ، والتى تساير اغراضه وأهدافه .

ودراسة أثر الجماعة الأولية فى السلوك الاجتماعى تؤدى بنا الى فهم سلوك الفرد فى الجماعات الكبرى المعقدة المتشابكة التى يدين افرادها بمختلف الألوان المتباينة من الثقافات المتعددة . فالأسس الأولى لهذا السلوك تتكون وتتشكل داخل الجماعات الأولية وتسرى منها الى الجماعات الثانوية ، على اعتبار أن استجابة الطفل لسلطة الوالدين أو أحدهما تفسر لنا ـ أو للباحث الاجتماعى أو النفسى ـ الأسس النفسية والاجتماعية لاستجابة الانسان للقانون أو لأولياء الأمور .

---

(٣) زيدان عبد الباقى ، **مرجع سابق** . ص ٨٢ ـ ٨٣ .

٢ ـ جماعة خارجة / ثانوية / طوعية :

(Out - Group, Secondary , Voluntary)

وهى الجماعة التى لا يكون التأثير بين افرادها وجها لوجه ، ويكون انتماء الفرد اليها معتمدا ـ الى حد كبير ـ على رغبته الذاتية ٠٠ مثل جماعات الفرق الرياضــية ، والنوادى ، والهيئــات العلمية والثقافية ، والنقابات ، والأحزاب السياسية ، والجمعيات الدينية ٠ ويتميز تكوين هــذه الجماعات عن الجماعات الأولية بالقصد والاختيار ، بمعنى أن هذه الجماعات تمثل الحاجات والرغبات العــامة للأفراد ، ولا تعتمد دائمــا على العلاقات المباشرة بين الأفراد والتى تقوم على مقابلة أفرادها لبعضهم البعض ، وجها لوجه ، بين الحين والآخر ٠٠ وانما تقوم على وســائل الاتصال غير المباشر ، أو وســائل الاتصال الجمعى ، مثل الصحف والاذاعة والتليفزيون والدوريات الأدبية والعلمية والمحاضرات وما اشبه ٠ فقد ينتسب الفرد الى جمعية علمية ويصبح عضوا فيها وهى فى بلاد تبعد عنه مئات الأميال فى دول اخرى ، ويقاس على ذلك انتماء الفرد للهيئات السياسية ومختلف النقابات ٠

ومن اشــهر الجماعات الاســلامية التى تنتمى الى هــذا النوع من الجماعات جماعة الرسول الكريم محمد عليه الصلاة والســلام ورفاقه ، التى تم تكوينها فى المدينة المنورة ، باســتخدام المسجد كبوتقة أعيد فيها صهر الأوس والخزرج والمهاجرين والأنصــار ليتحولوا الى جماعة جديدة ولاؤها لدين الاســلام ورسالة النبى الكريم ، واختلفوا بذلك عن الجماعات المتناحرة السابقة على الاســلام ٠

* * *

اهداف الجمــاعة

قد نتساءل : « لمــاذا تنجح جماعة ما فى تحقيق ما اجتمعت من اجله ، بينما تفشل جماعة اخرى وتضيع جهود افرادها هباء منثورا » ؟ وما الذى نعنيه حين نقول : ان الجماعة تتخبط ولا تتحرك خطوة واحدة

نحو هدفها ؟ ما هى العلاقة بين أهداف الجماعة وما يتطلبه تحقيق تلك الأهداف من وظائف جماعية لن يتيسر للجماعة بدونها ان تصل الى تحقيق اهدافها ؟

من المهم ان نعرف المفاهيم الأساسية ، وأن نحاول تحديد أى العوامل تؤدى الى تحديد النتائج ، وتحت أى الظروف ٠٠ ما هو المقصود بهدف الجماعة ؟ وكيف نعرف ما اذا كان لجماعة ما هدف معين أو أكثر من هدف ، ودرجة وضوح كل منها ، وتعارضه أو اتفاقه مع الأهداف الأخرى ؟ وما الذى نعنيه حين نقول : ان الجماعة قد نجحت فى الوصول الى هدفها ؟ ثم لنا ان نتساءل بعد ذلك عن العوامل التى تيسر او تعوق تكوين أهداف الجماعة ، والوصول الى تحقيقها ، وما علاقة كل ذلك بأعضاء الجماعة من حيث أهدافهم وسلوكهم وتفاعلهم ؟ وتحت أى الظروف يعمل الأفراد فى سبيل هدف جماعى ، وتحت اى الظروف يعمل كل منهم فى سبيل تحقيق هدف خاص ؟ وهل هناك تعارض حتمى بين الصالح العام والصالح الخاص ؟(٤) ٠

***

● ما هو هدف الجماعة ؟

يحتاج القادة والمديرون الى استخدام بعض الفروض الخاصة بالعوامل التى تحدد فعالية الجماعة ، كما يتحتم عليهم ان يتخذوا من الأعمال ما يرونه مؤديا الى زيادة وحدة الهدف بين جماعاتهم وجعلها أقدر على تحقيق أهدافها ٠ فاذا احصينا الفروض التى يستخدمها قادة الجماعات فى عينة ممثلة من مديرى المؤسسات ، أو الهيئات الحكومية ، أو القادة العماليين ، أو الأخصائيين فى خدمة الجماعة ، أو المعلمين ، أو المشرفين على النوادى ، وما الى ذلك ـ فسوف نجد أمامنا قائمة من الفروض المتعارضة ، فاذا ما وضعنا فى الاعتبار أوجه الاختلاف التى يمكن أن

---

(٤) لويس كامل مليكة ، **سيكولوجية الجماعة والقيادة** (ط ٣) ٠ القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٧٠ ، ص ١٤٦ ٠

تظهر فى المصطلحات المستخدمة ، فاننا سوف نجد ان معظم المحددات الافتراضية لفعالية الجماعة يمكن أن تندرج تحت واحد او اكثر من العناصر التاليـة :

١ ـ درجة وجود هدف واضح ٠

٢ ـ درجة نجاح الهدف الجماعى فى تعبئة طاقات الأعضاء للنشاط الجمعى ٠

٣ ـ درجة الصراع بين الأعضاء فيما يختص بالهدف الذى ينبغى ان يوجه نواحى نشاط الجماعة ٠

٤ ـ درجة الصراع بين الأعضاء فيما يختص بالوسائل التى يجب ان تستخدمها الجماعة للوصول الى أهدافها ٠

٥ ـ درجة التنسيق بين أوجه نشاط مختلف الأعضاء على النحو الذى تتطلبه اعمال الجماعة ٠

٦ ـ مدى حصول الجماعة على الموارد المطلوبة ، سواء اكانت اقتصادية أو ثقافية أو مادية ، أو غيرها(٥) ٠

واذا ما تساءلنا : هل هدف الجماعة هو مجموع او حصيلة الأهداف المتشابهة لأفرادها او الأهداف المتشابهة التى يشارك فيها الأفراد بعضهم البعض الآخر ؟ نجد انه ليس من السهل التسليم بهذا التعريف لهدف الجماعة ٠٠ فالأفراد قد يتشابهون فى أهدافهم ، أو قد تكون أهدافهم واحدة ، بل وقد يعلم كل منهم ان هدفه هو أيضا هدف كل من الأفراد الآخرين فى الجماعة ، ومع ذلك يصعب أن نتحدث فى مثل هذه الحالات عن قيام اهداف جماعية ٠ وفضلا عن ذلك قد يحدث أحيانا أن يكون للجماعة هدف ، دون أن يكون هناك تشابه واضح بين الأهداف الفردية للأعضاء ٠

---

(٥) دوروين كارترايت وآخرون (ترجمة محمد طلعت عيسى) ، **تنظيم وقيادة الجماعات** ٠ القاهرة : دار ومطابع الشعب ، ١٩٦٥ ، ص ١٢٩ ـ ١٣٠ ٠

وقد يكون من الأفضل ان نعرف هدف الجماعة على ضوء تحليل الظواهر ، اى كيف يبدو الموقف بالنسبة لعضو الجماعة • وفى هـذه الحالة نتحدث عن وجود هدف جماعى اذا اتفق الأعضاء فى ادراكهم لأهداف الجماعة •• وذلك أن لكل فرد أهدافه للجماعة ، فيرجو لها مثلا ان تضم أحسن الأعضاء ، أو أن تقصر جهودها على النشـاط الرياضى أو الثقافى ••• الخ • وهو يشعر بالرضا او بالاحباط نتيجة للطريقة التى تؤثر بها أعمال الجماعة فى موقفها من هذه الأهداف •

* * *

● **كيف تتكون الأهداف الجماعية :**

ما هى العوامل التى تؤثر فى اختيـار أهداف الجماعة ؟ يعالج « كارترايت » و « زاندر »(٦) هذا الموضوع من جانبين متميزين رغم اتصالهما الواضح وامكانية حدوثهما فى وقت واحد • أولهما : الطريقة التى يكون بها الأفراد الأهداف للجماعة ، وثانيهما : تحويل هذه الأهداف الى هدف جماعى •

أولا ــ أهداف الأفراد للجماعة :

يبدو من المعقول أن نفترض أنه لكى يقوم هدف جماعى ، ينبغى أن يكون لدى بعض أعضاء الجماعة على الأقل تصـور لأهداف الجماعة • ويبدو أن أهداف الأعضاء للجماعة تتأثر بثلاثة عوامل هى : دوافع الأعضاء ، والأهداف العليا للجماعة ، والعلاقات بين الجماعة والبيئة الاجتماعية •

١ ــ **دوافع الأعضاء :** ليس هناك ما يدعو الى افتراض وجود اختلاف جوهرى بين الطريقة التى تؤثر بها دوافع الفرد على اختياره هدفا للجماعة ، وبين الطريقة التى تؤثر بها هـذه الدوافع فى اختياره هدفا لنفسه •• ففى الحالين ، تتوقف جاذبية الهدف بالنسبة للفرد على مدى تقـديره لامكانية تحقيق الرضا الذى ينشده عن طريق تحقيق الهدف ، وما يتطلبه

---

(٦) D. Cartwright. and A. Zander (eds.) ; Group Dynamics : Research and Theory. : « rev. ed » . (London : Tavistock, 1960) p. 354.

تحقيقه ، واحتمالات هـذا التحقيق • فاذا تصورنا مثلا ان ثلاثة شبان اشتركوا فى عمل تجارى ، وانهم اجتمعوا معا وبدأ كل منهم يتساءل عما يجب أن يعمل ، ثم تقدم كل منهم باقتراح هو فى مبدأ الأمر هدف الفرد للجماعة ، وهدف ممكن للجماعة ذاتها ، ويناقش الشبان الثلاثة كل اقتراح فيعرضون لمزاياه ولمساوئه ، ويحاول كل منهم أن يقدر كل اقتراح جزئيا على الأقل ، فى ضوء امكانات ارضائه لدوافعه الشخصية •• فتؤدى هـذه العملية الى أن يرتب كل شاب الأهداف المختلفة ، ثم يتخذون قرارا جماعيا ، اى يجمعون هـذا الترتيب فى صورة هدف جماعى يعبىء جهودهم كجماعة •

وعلى ذلك ، يمكن القول ان تأثير الهدف الفردى المعين للجماعة يتوقف على طبيعة دوافع العضو ، وتقديره للثواب أو العائد الذى يمكن أن يحصل عليه ، وما يبذله من نشاط فى سبيل تحقيق الهدف ، ثم على تقديره الذاتى لاحتمالات النجاح فى تحقيق الهدف ، مع ملاحظة أن كلا من دوافع أعضاء الجماعة وتقديراتهم تتاثر عادة بعضوية الجماعة •

٢ ـ **الأهداف الجماعية العليـا** : وهى أهداف لها مكانتها وتأثيرها بالنسـبة للجماعات الأكثر استقرارا • ومما لا شك فيه أنه فى مثل هـذه الجماعات يتأثر الأعضاء فى تقويمهم للأهداف المختلفة ، وفى تخطيطهم لبرنامج العمل بالأهداف العليـا بعيدة المدى والتى قامت الجماعة أصـلا لتحقيقها ، أكثر مما هو الحال بالنسـبة للجماعات المؤقتة ، والتى يتأثر فيها الأعضاء بدوافعهم الشـخصية الى حد كبير ، وفى تخطيط برنامج للعمل • وفى عملية اتخاذ القرار فى الجماعات الدائمة يقوم الأعضاء غالبا بتحديد أهداف فرعية تندرج تحت الأهداف العليا التى سبق تحديدها •

٣ ـ **الجماعة وبيئتها الاجتماعية** : ان الجماعة لا تقـوم فى فراغ ، ولكنها تقوم فى بيئة اجتماعية ، ولها علاقات معينة بالجماعات والمؤسسات الأخرى • ويغلب أن يكون لهـذه البيئة الاجتماعية تأثيرها الكبير على اختيار الأهداف للجماعة ، وفى تحديد الجماعة لهدفها تحاول أن تقيم العلاقة المرغوب فيها بينها وبين بيئتها • ويتطلب تغير خصائص الجماعة أو بيئتها الاجتماعية مراجعة ، وربما تطلب تغييرا للأهداف ، ويشكل

هـذا التفاعل الضرورى بين الجماعة وبين بيئتها الاجتماعية عاملا هاما وهو ضبط البيئة للجماعة ٠ ويجب أن تكون أهداف الجماعة مقبولة من بيئتهـا الاجتماعية ٠٠ فالمدارس يجب أن تعلم ما يرضى عنه المجتمـع ، والمصـانع ينبغى أن تنتج ما يرضى أذواق المسـتهلكين ويشبع حاجاتهم ورغبانهم ، والتليفزيون يجب أن يقدم البرامج التى يرضى عنها المشاهدون ، وهكذا ٠ ويتأثر الأعضاء فى اختيارهم لأهدافهم للجماعة بنوع الاستجابة التى يتوقعونها من البيئة الاجتماعية التى تعيش فيها الجماعة ٠ وتتأثر اتجاهات الناس وسلوكهم فى هـذه البيئة بدرجة ادراكهم للجماعة على أنها عنصر هام فى تحقيق أهدافهم ، ولذلك فان الجماعات والمنظمات تبذل جهدا كبيرا كى تحصل على تقبل المجتمع لأهدافها ٠

والخلاصـة ، أن الفرد فى اختياره لأهداف الجماعة يتأثر بدوافعه الشخصية ، وبتقديره لأحسن الطرق لاشباعها ، كما يتأثر بالأهداف العليا بعيدة المدى للجماعة ، وكذلك بالعلاقة بين الجماعة وبيئتها الاجتماعية ٠ ولكن الطريقة التى تتسـق بها هـذه المؤثرات فى اختيـار الفرد نهائيا لهدف الجماعة غير واضـحة تماما ٠٠ فبعض الأفراد قد يتأثر بدوافعـه الشخصية أكثر من غيره ، بينما يستهدف البعض الآخر مصلحة الجماعة اكثر مما يستهدف مصلحته الشخصية ٠ ويحتمل أن ترجع هـذه الفروق بين الأفراد الى فروق فى الاتجاهات الأساسية للشخصية ، كما قد ترجع الى درجة جاذبية الجماعة له ٠

ثانيا ـ تحويل أهداف الأفراد للجماعة الى هدف جماعى :

يتطلب تكوين هدف جماعى تحويل هدف الأفراد للجماعة الى هدف جماعى قادر على تنشيط الجماعة ٠ ومن المهم أن نميز فى هـذا المقام بين أمرين هما موضع دراسـة الباحثين ، أولا : كيف يمكن ان تتحول أهداف الأفراد للجمـاعة الى هدف جمـاعى ، وثانيا : كيف يتم هـذا التحول فعـلا ؟

فبالنسبة للسؤال الأول ، يهتم الباحثون باعتبارين رئيسيين هما :
أ) تتمثل فى الهدف الجماعى الى أقصى حد ممكن الاهتمامات الفردية لكل

الأعضــاء ، وان يؤدى الهدف الجماعى الى أقصى قدر ممكن من الفعالية والكفاية ، ويمكن أن تسفر البحوث مستقبلا عن عدم وجود تعارض بين هذين الاعتبارين ٠

أما عن السؤال الثانى ، فان البحوث والخبرة اليومية تشير الى أن معظم الجماعات تفشــل الى درجة ما فى مراعاة الاعتبــار الأول وهــو « اهتمامات الأفراد » فى تحديد الهدف الجماعى ، وفى درجة تأثيرهم على الجماعة ٠٠ فالبعض قد تنقصهم الثقة بالذات ، كما أن البعض الآخر قد يجد صعوبة فى التفاعل الاجتماعى ٠ هــذا فضلا عن أنه فى الجماعات الكبيرة ذات البناء الرسمى بخاصة ، يقتصر تحديد الهدف الجماعى على أشخاص معينين ، أو على لجان خاصة ٠

* * *

● **تأثير الهدف الجماعى :**

يتمثل هــذا التأثير فى جوانب عدة أهمها سلوك الأعضاء والتفاعل فيما بينهم وتقييم كل منهم للآخرين ٠ وقد ســبق أن ناقشنا العوامل التى تؤثر فى اختيار العضو للهدف الجماعى ، وبالتالى درجة تقبله لهــذا الهدف ٠٠ ومن أهم هــذه العوامل تقدير العضــو لعواقب تقبل الهدف بالنســبة له ، وجاذبية الجماعة من حيث شدتها ومصدرها ٠ كما تشير البحوث الى أنه اذا كان الهدف غير مقبول من نســبة كبيرة من الأعضــاء فان سلوكهم يغلب عليه التمركز ـ حول الذات ، كما أنه يصعب التنسيق بين جهودهم ، وقد لا يكون وعى الأعضاء أو اهتمامهم بالهدف الجماعى كاملا (٧) ٠

وكذلك تتأثر العلاقات بين الأعضاء بدرجة تقبلهم للهدف الجماعى ٠٠ وقد ييسر التفاعل بين الأعضاء أو يعوق تحقيق الهدف الجماعى ٠٠ ويتوقف ذلك على طبيعة الأعمال التى يعهد بها الى أفراد الجماعة ، وعلى توزيع

---

(٧) لويس كامل مليكة ، مرجع سابق ٠ ص ١٥٧ ـ ١٥٨ ٠

العمل بينهم ، وعلى نوع ادائهم للعمل ومستوى هـذا الأداء ، فضلا عن درجة تقبلهم للهدف الجماعى ٠

ويؤثر الهدف الجماعى على تقييم الأعضاء بعضهم للبعض الآخر ٠٠ فحين يكون للجماعة هدف اجرائى واضح مقبول ، فانه يمكن ايجاد أساس لتقييم العمل الجماعى ، ومن ثم تتأثر مكانة العضو بدرجة اسهامه فى تحقيق هدف جماعى معين ٠ ولذلك ، فليس من المستغرب أن نجد العضو يقاوم تغيير هدف جماعى معين ، اذا كانت مهاراته وامكاناته غير ملائمة لتحقيق الهدف الجديد ٠ واذا لم يكن للجماعة هدف اجرائى ، فان تقييم الأعضاء بعضهم للبعض الآخر يقوم غالبا على أسس أخرى مثل الجاذبية الشخصية أو السن أو المكانة فى المجتمع الأكبر ٠

واننا نتوقع أن يكون للهدف الجماعى تأثيره فى تقييم الذات ٠٠ وقد أوضحت البحوث أن الجماعات تقيم معايير لأداء أعضائها ، وأن المعيار الجماعى قد يؤثر فى تحديد العضو لمستوى طموحه ، وأن العضو يقيم نفسه فى ضوء هـذا المستوى ٠ كما كشفت هـذه البحوث أيضا عن أنه كلما زادت جاذبية الجماعة بالنسـبة للعضو وكلما ازداد احتمال الحكم على أدائه بأنه يؤثر فى نجاح الجماعة ، كلما زاد احتمال أن يتفق مستوى طموحه الشخصى مع المعيار الجماعى ، واذا تخلف أداؤه عن مستوى طموحه شعر بالاحباط والفشل(٨) ٠



تماسـك الجمـاعة

يعتبر تماسك الجماعة عنصرا هاما فى تحديد قوة معايير الجماعة ودرجة انصياع الأعضاء لهذه المعايير ٠ وقبل أن نناقش مفاهيم التماسك يبدو من المفيد أن نوضح عددا من الأدلة التى يستعان بها غالبا فى التعرف على درجة تماسك الجماعة ٠

---

(٨) المرجع السابق ، ص ١٥٩ ٠

● **ادلة ومقاييس التماسك(٩) :**

١ ــ **أحاديث الأفراد :** سجلت البحوث عن « الجو الاجتماعى » ، عدد المرات التى استخدم فيها الأفراد كلمة « نحن » وكلمة « أنا » فى احاديثهم ، وكذلك العبارات التى صدرت عنهم ، وعبرت عن شعورهم بالرضا أو بعدمه ، الى غير ذلك من علامات التماسك ٠

٢ ــ **مقاييس الصداقة :** لقد قامت بعض الدراسات لتحديد تماسك الجماعة عن طريق دراسة تكوين الصداقات بين الأفراد ومقارنتها من جماعة الى أخرى فى الوحدات السكنية ٠ وقد وجد الباحثون اختلافا بين الجماعات من حيث تكوين الصداقات ، يقابله اختلاف فى خصائص أخرى منها شعور الأفراد بالرضا ، وقيام معايير للجماعة ، واتباع الأفراد لهذه المعايير ، وتكاتفهم فى مواجهة الأزمات ٠ هذا بالاضافة الى المسافات بين المساكن وسهولة الاتصال بينها ٠

٣ ــ **درجة انصياع أعضاء الجماعة للمعايير التى تحدد قواعد السلوك :** مثل مقاومة العمال للطرق المستحدثة فى الانتاج ٠٠ وقد تتمثل هذه المقاومة فى ابطاء معدل الانتاج عمدا ، وفى الغياب والاضراب والاستقالة ٠ وقد وجد ان هذه المقاومة تقل اذا اشترك العمال أو ممثلوهم فى اتخاذ القرارات المتعلقة بتغيير طرق الانتاج ٠

٤ ــ **احتفاظ الجماعة بتماسكها فى أوقات الأزمات :** اتضح من البحوث أن الجماعات المنظمة تكون اقل عرضة للتفكك من الجماعات غير المنظمة فى حالات الاحباط عند مواجهة مشكلات معقدة أو فى مواجهة الأزمات(١٠) ٠

٥ ــ **الاسهام والانتظام فى نشاط الجماعة :** وقد يستدل على ذلك بمقاييس عدة منها : الغياب ، وترك العمل ، ودفع الاشتراكات ٠٠٠ الخ ٠

---

(٩) **المرجع السابق** ، ص ٢١٢ ــ ٢١٤ ٠

(١٠) J. French Jr. ; « The Disruption andCohesion of Groups »; in D. Cartwright, and A. Zander, (eds.) ; op. cit.; ch. 10.

وقد وجدت ارتباطات ذات دلالة احصائية بين متوسط الغياب بين العمال داخل قسم من اقسام الشركة ـ التى شملها البحث ـ التى يعملون بها وبين درجة الرضا فى صفوف أعضاء هـذا القسم عن موضوعات معينة مثل الزملاء فى العمل ، وطبيعة العمل ، والاشراف ٠

ومما يعيب مثل هـذه الدلائل أنها لا تدل مباشرة على التماسك ، لأنها قد تكون مرتبطة بعوامل أخرى ٠٠ فالتغيب عن العمل مثلا قد يرجع الى المرض ، أو الخـوف من العقـاب ، كما قد يرجع الى نقص فى تماسك الجماعة ٠

***

● مفاهيم التماسـك :

من الواضح أن كل مقياس من التى يشيع استخدامها للتحقق من تماسك الجماعة يتأثر بمفهوم معين عن التماسك ٠ وقد تشعبت هـذه المفاهيم أخيرا ، واكتسب موضوع التماسك أهمية كبرى فى ميدان ديناميات الجماعة ، حيث انه يمثل الظواهر الجماعية لاستمرار الأفراد فى عضوية الجماعة ٠ بمعنى أن التماسك هو الرباط الذى يربط أفراد الجمـاعة ، ويبقى على العلاقات بينهم وبين البعض الآخر ٠

وقد تعددت معانى التماسك ، فتضمنت ما يقرب من احدى المعانى الآتيـة : الروح المعنوية ، الاتحاد ، التنسـيق بين جهود الأعضـاء ، الانتاج ، القوة ، الاندماج فى العمل ، الشـعور بالانتماء ، الفهم المشترك للأدوار ، العمـل الجماعى بروح الفريق ، التجاذب نحـو الجماعة ، ومقاومة التخلى عن عضويتها ٠٠٠ الخ ٠

ومن الممكن أن نصنف هـذه المعانى الى فئتين متميزتين : أولاهما تتركز حول نواحى معينة فى العملية الجماعية أو السـلوك الجمعى ٠٠ فتشير كلمة التماسك الى معانى مثل الروح المعنوية (أى مستوى الدافع لدى الأفراد للاقبال على عملهم بحماس) والكفاءة ، وروح الجماعة ٠ وقد تكون جاذبية الجماعة لأعضائها متضمنة فى هـذه التعاريف ولكنها

تكون عادة فى المستوى الثانوى من الأهمية . أما الفئة الثانية من التعاريف فهى التى تعرف التماسك بانه محصلة القوى التى تجذب الأعضاء الى الجماعة وتدفعهم إلى البقاء فيها ومقاومة التخلى عن عضويتها(١١) .

وفى ضوء هـذا المفهوم عن تماسك الجماعة يمكن أن نتصور الكثير من الاحتمالات .. فمثلا ، اذا انضم شخص الى جماعة متوقعا أن ذلك الانضمام سوف يشبع حاجات معينة لديه ، ثم تغيرت هـذه الحاجات أثناء عضويته فى الجماعة ، فان جاذبية الجماعة سوف تقل بالنسبة له ، الا اذا أشبعت الجماعة حاجاته الجديدة بقدر متساو أو أكبر . ومن الممكن أن تتعدل حاجات الأعضاء عن طريق خبراتهم فى الجماعة .

وفى ضوء ما سبق يمكن القول بأن تماسك الجماعة يتأثر بعدة عوامل منها : مشاركة الأعضاء في تحـديد أهداف الجماعة وفى وضـع الخطط لتحقيقها ، وفي اقامة المعايير الجماعية ، ونمط القيـادة فى الجماعة ، ومستوى الروح المعنوية فى الجماعة . ولكن هـذه القوى التى تعمل على تماسك الجماعة تتدعم هى نفسها بتماسك الجماعة .. فالناس اذا شاركوا في المعايير أو القيم ، يكونون أكثر تماسكا من الناس الذين يختلفون اختلافا واضحا فى قيمهم .

***

● جاذبية الجماعة :

يمكن القـول بأن جاذبية الجماعة هى محصـلة القوى التى تدفع الأفراد الى البقاء فى الجماعة ، ومن ثم فان المدركات والتوقعات والمعايير المشـتركة تلعب دورا حيويا فى هـذه العملية .. واذا ما تساءلنا لـماذا ينضم الأفراد الى الجماعة أو يبقون فيهـا ؟ أى ما هى مصـادر جاذبية الجماعة ؟ فانه يمكن التمييز بين مصدرين فى هـذا الصدد هما(١٢) :

(١١) S. Shachter, and K. Blnck; **Social Pressures in Informal Groups.** (N. Y. : Harper, 1950) .

(١٢) I, Festinger; « Group Attraction and Membership », in D. Cartwright and A. Zander; **op. cit.**, ch. 8.

اولا ـ الجماعة نفسها : اى ان موضوع حاجة الفرد الى الانضمام للجماعة هو الجماعة نفسها .. وقد يكون ذلك بسبب جاذبية افراد الجماعة له ، فيجب أن يكون معهم بصرف النظر عن نوع نشاطهم وحديثهم ، او قد يكون بسبب حبه لأنواع النشاط التى توفرها الجماعة له ، او قد يكون العاملان السابقان مصدر الجاذبية ـ اى الأفراد والنشاط ـ وقد ينضم الفرد للجماعة لأنه يحترم اهدافها ويقدرها ، وقد تكون هذه الأهداف قومية او دينية او اجتماعية .. الخ . ، فاذا رأى لسبب من الأسباب ان الجماعة لن تستطيع تحقيق هذه الأهداف ، قلت جاذبية الجماعة له تبعا لذلك .

ثانيا ـ الجماعة وسيلة لاشباع حاجات خارج الجماعة : مثل اكتساب مكانة فى البيئة نتيجة الانضمام الى تلك الجماعة ، او رغبة فى الحصول على اجر اكبر ، وشعور بالأمن . فاننا نلاحظ ان الشعوب فى أوقات الشدة يزداد تماسكها ، لادراك كل فرد انه يعتمد على الآخرين فى كفالة الأمن للجميع . وقد قام « شاشتر »(١٣) بسلسلة من البحوث لدراسة تأثير حالات القلق على الرغبة فى التواجد والبقاء مع الآخرين ـ وهى التى اسماها « النزعة الى الانتماء » ـ وقد اوضحت النتائج ان حالة القلق تؤدى الى اشتداد النزعة الى الانتماء . ويبدو انه حين يقلق الناس او حين يكون الموقف غامضا بالنسبة لهم ، فانهم قد يحسون برغبة شديدة فى التواجد مع الآخرين كوسيلة للتخفف من القلق ولتقييم الذات وتحديد الاستجابة المناسبة .

***

● العوامل المؤدية الى زيادة جاذبية الجماعة :

يمكن ان نزيد جاذبية الجماعة عن طريق اشعار الأفراد بأن حاجاتهم يمكن اشباعها عن طريق الانضمام للجماعة ، او عن طريق جعلها اكثر اشباعا لحاجاتهم .. كأن يعلن مثلا ان الجماعة فرصة طيبة لتكوين صداقات

---

(١٣) S. Schachter; The Psychology of Affiliation. (Stanford, Calif. : Stanford Univ. Press, 1959).

جديدة ، أو لزيادة الأجور ، وما اشبه . وقد اشارت البحوث الى عـدد من العوامل المؤدية الى زيادة جاذبية الجماعة تتلخص فى الآتى :

١ ـ **المكانة** : كلما زادت مكانة الفرد داخل الجماعة ، او كلما زادت المكانة التى يحتمل ان يحصل عليها اذا انضم للجماعة ، كلما زادت القوى التى تدفعه للانضمام الى الجماعة . وقد اشارت احدى الدراسـات الى نتيجة مؤداها ان اقل المكانات فى الجماعات جاذبية للأفراد هى المكانات العاليـة المهددة بالتخفيض ، والمكانات المنخفضـة غير القابلة للترفيع (الترقية) ، اى ان هذين النوعين من المكانة هما اشد المكانات خطرا على تماسك الجماعة . كما ان الأفراد الآمنين على مراكزهم فى المكانات العالية واولئك الذين كانوا يقدرون احتمال ترقيتهم من مكاناتهم المنخفضة كانوا اكثر الأفراد اقبالا على باقى افراد الجماعة(١٤) .

٢ ـ **العلاقات التعاونية** : تزداد جاذبية الجماعة للعضو اذا اتضحت اهدافها بالنسبة له ، واذا اتضح طريقها لتحقيق هـذه الأهداف ، ودوره فى هـذا السبيل . ويصعب ان تقوم جماعة وان تبقى وتستمر الا اذا كان هناك فهم مشترك بين افرادها بحيث يدركون الكثير من الموضوعات من نفس المنظور ، ويتحقق ذلك عن طريق مشاركتهم فى تحديد الأهداف واقامة المعايير التى يلتزمون بها فى حدود معقولة .

٣ ـ **ازدياد التفاعل بين افراد الجماعد** : وجد « سيشور »(*) فى دراسـة لأكثر من مائتى جماعة من جماعات العمال فى موقف صناعى ان الجماعات الأصغر حجما يغلب ان تكون اكثر تماسكا من الجماعات الأكبر فى الحجم . وقد يرجع ذلك الى نقص التجانس (نتيجة زيادة حجم الجماعة) فى اتجاهات واهتمامات وقيم الأعضاء ، ومن ثم نقص الشعور

---

(١٤) لويس كامل مليكة ، مرجع سابق ، ص ٢١٩ .

(*) S. Seashore **Group Cohesiveness in the Industrial Work Group.** (ann. Arbor :Mich. : Institute for Social Research, 1954) .

بتوطد الصلة . وكذلك يغلب أن تزداد جاذبية الجماعة بالنسبة للأعضاء الذين يشعرون بأنهم موضع اهتمام وتقدير وتقبل من الجماعة .

٤ ـ **الأحداث الاجتماعية** : قد تعمل بعض الظروف الاجتماعية العامة على تغيير حاجات عدد كبير من الأفراد ، فتتأثر تبعا لذلك جاذبية أنواع معينة من الجماعات . وتتأثر جاذبية الجماعة بمكانتها فى المجتمع ، فقد تيسر للأفراد تحقيق غايات لا تتحقق لهم خارجها مثل تكوين الصداقات . كما أن النقد الذى يوجه من الخارج الى الجماعة قد يزيد من تماسكها اذا ادرك الأفراد الجماعة كمصدر أمن لهم . ويبدو أن تماسك الجماعة يمكن أن يزداد فى بعض الحالات نتيجة الضغط عليها من مصادر خارجية .. وقد وجد « ليتون »(١٥) أن اللاجئين اليابانيين فى معسكر أقيم أثناء الحرب العالمية الثانية بدأوا يتجمعون فى منظمات قوية حين اشتد عليهم الضغط من جانب ادارة المعسكر فى أمور بدت أنها تهدر قيمهم .

٥ ـ **التشابه بين أعضاء الجماعة** : قد تؤدى أنواع معينة من التشابه بين أعضاء الجماعة الى زيادة تماسكها . ويرجع ذلك الى أن الكثيرين من الناس ينضمون الى الجماعة كى يفهموا أنفسهم فهما أحسن عن طريق مقارنة أنفسهم بالآخرين . ولن تكون لهذه المقارنة قيمة الا اذ أجريت بين الشخص وبين من يقربون منه فى القدرة ، ولذلك فانه من الطبيعى أن ينشد الشخص الانضمام الى جماعة ممن يشابهونه .

والخلاصة : أن جاذبية الجماعة ــ ومن ثم تماسكها ــ قد تزداد عن طريق زيادة قدرتها على اشباع حاجات أعضائها مثل : الحاجة الى المكانة والتقدير والأمن ، وكذلك عن طريق خلق علاقات تعاونية وتهيئة الفرص للتفاعل الحر . كما أن تماسك الجماعة قد يزداد نتيجة لأحداث خارجية مثل توجيه النقد أو الضغط عليها ، ومثل نجاح الجماعة فى الحصول على مزايا لأعضائها ، وقد يزداد التماسك أيضا نتيجة التشابه بين أعضاء الجماعة .

* * *

(١٥) A. Leighton; The Governing of Man. (Princeton Univ. Press, 1945) .

● نتائج تماسك الجماعة :

يلخص « كارترايت » و « زاندر »(١٦) نتائج الدراسات التى ألقت الضوء على نتائج تماسك الجماعة فيما يتصل بخصائص الأعضاء الذين يحسون بشدة جاذبية الجماعة لهم ، فى ان هؤلاء الاعضاء يتميزون عن غيرهم بسلوك جماعى يسهم فى الابقاء على الجماعة وصيانتها وزيادة كفاءتها . ويتمثل هذا السلوك فى الآتى :

١ - **النشاط** : الذى يدل على الشعور بالمسئولية نحو الجماعة ، والذى يتسم بقدر أكبر من المشاركة فى اجتماعاتها ، وبالمثابرة لمدة أطول على العمل لتحقيق اهداف صعبة ، والاحتفاظ بعضوية الجماعة لمدة أطول .

٢ - **تبادل التأثير** : يكون هؤلاء الأعضاء أكثر استعدادا للتاثير فى غيرهم ، وأكثر تقبلا لآراء الغير .

٣ - **تشابه القيم** : يزداد اهتمام هؤلاء الأعضاء بأهداف الجماعة ، ويزداد تمسكهم بمعايير الجماعة ، كما يزداد ضغطهم على من ينحرفون عنها .

٤ - **الشعور بالأمن** : يزداد شعور هؤلاء الأعضاء بالأمن والاطمئنان فى نشاطهم الجماعى الذى يجدون فيه تخففا من التوتر .

***

تماسك الجماعة الاسلامية

لقد قامت الجماعة الاسلامية على الأسس الآتية(١٧) :

١ - أن تتجه عبادتها الى معبود واحد فقط ، قال تعالى :
« **واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ..** » . (النساء : ٣٦) .

---

(١٦) D. Cartwright, and A . Zander; Op. Cit. p. 88.

(١٧) محمد البهى ، الاسلام فى حياة المسلم ، مرجع سابق ، ص ٢٥٩ .

٢ ـ ان تبقى فى سلام مع غيرها من الجماعات الأخرى ، لقوله تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان ، انه لكم عدو مبين » . (البقرة : ٢٠٨)

٣ ـ واذا هوجمت من جماعة اخرى يجب عليها ان لا تستكين لهذا الهجوم ، قال سبحانه : **« وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين »** . (البقرة : ١٩٠)

واذا اعتدى عليها يجب ان ترد الاعتداء ، لقوله تعالى : **« .. فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ، واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين »** . (البقرة : ١٩٤)

وان ما اتى به الاسلام فى شأن تماسك هذه الجماعة وبقائها صلبة قوية ، فمنبثق اكثر من ذات الايمان بالله ، ويعود غالبه الى الجانب الروحى فى الانسان . فالايمان بالله ـ دون غيره ـ هو الذى ربط بين الفرد وغيره فى الجماعة الاسلامية ، فيجب أن يكون هذا الايمان ملحوظا فى استمرار العلاقة بين الفرد والآخرين .. وبناء على ذلك ، يجب الا يهجر المؤمن بولائه واخلاقه مؤمنا آخر معه ، ويتجاوز بهذا الولاء والاخلاص الى من هو عدو لهما ، قال تعالى : **« لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شىء الا أن تتقوا منهم تقاة ، ويحذركم الله نفسه ، والى الله المصير »** . (آل عمران : ٢٨)

وتعبير القرآن الكريم هنا فى صورة النهى القاطع : **« لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين »** ، ثم حكمه على من يصنع ذلك ليس على الحقيقة من المؤمنين بالله فى شىء : **« ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شىء »** ، ثم هذا التحذير القوى للمخالف من رب الكون كله سواء فى الحياة القائمة او الحياة المنتظرة : **« ويحذركم الله نفسه ، والى الله المصير »** ـ كل هذا يوضح الى اى مدى حرص الاسلام على

تماسك الجماعة الاسلامية وبقائها قوية ، بعد ان قامت واصبح لها سماتها الخاصة وشخصيتها المتميزة .

ان تجارب الأيام فى تاريخ البشرية تؤكد ان العنصر النفسى فى حياة الانسان والجماعة اقوى من اى عنصر آخر سواه ، فاذا ضعفت النفس لدى الفرد او ضعف الترابط النفسى بينه وبين غيره كان التلاشى للفرد نفسه وكانت القطيعة بينه وبين غيره ، فالمرء قليل بنفسه كثير باخوانه ، وعلى العكس تبرز صورة الحياة واضحة لمن قويت نفسه ، وكذلك للجماعة التى قويت الصلات الروحية بين الأفراد فيها .

وولاء المؤمن للمؤمن الذى يدعو اليه القرآن الكريم هو اكثر من صلة نفسية واكثر من شعور روحى متبادل قائم على التعاطف وعدم النفرة بين فرد وآخر .. ان هذا الولاء هو الاخلاص فى العلاقة ، وهو ايثار الصديق ، وهو الاحساس القوى بالكيان المشترك للاثنين معا .. وبما يجب على المؤمن نحو المؤمن من الولاء والاخلاص - على النحو الذى اوضحه القرآن الكريم - تقوم الأسباب الأخرى فى تماسك الجماعة وصلاتها ، اذ تصور للمؤمن فى كل عمل يصدر عنه أنه مبنى على هذا الاخلاص فى العلاقة . واذا وجد هذا الاخلاص فى العلاقة ، فلا يتصور مؤمن عندئذ مؤمنا آخر تصورا يشينه ، فلا يغتابه ولا ينم ويشى به ، ولا يسعى للفساد بينه وبين غيره ، ولا يفزع منه أو يخافه ، ولا ينزع الثقة منه ، ولا يحتقره أو يسخر منه .. كما لا يصدر من مؤمن عندئذ لمؤمن آخر فعل يؤذيه نفسيا أو بدنيا ، أو يضره فى ماله وولده أو فى عرضه ، وحينئذ لا يسبه أو يتبعه بالابذاء فى صورة ما ، ولا يسرقه أو يخدعه أو يغشه فى التعامل معه .

وكل ما أتى به الاسلام فى آدابه ووصاياه الخلقية ، سواء فى جانب النهى أو الفعل ، هو فى واقع الأمر تفريع على الولاء الذى طلبه بين المؤمن والمؤمن بصفة كون كل منهما مؤمنا ، وهو ذلك الولاء الذى عبر عنه فى صورة هى تعبير عن الواقع ، أو عما يجب أن يكون ، قال تعالى :

« والمؤمنــون والمؤمنــات بعضهم أوليــاء بعض ، يأمرون بالمعـــروف وينهون عن المنكر •• » • (التوبة : ٧١)

ولم تقم الجماعة الاسلامية بالأمس لتفنى اليوم أو غدا •• فان قيامها كان نتيجة لرسالة من الله سبحانه ، وكذلك بقاؤها وتماسكها ذو صلة قوية بالايمان بالله ، لقوله تعــالى : **« •• ولينصرن الله من ينصره ، ان الله لقوى عزيز » •** (الحج : ٤٠)

ان الايمــان بالله هو الاخلاص لرسالته وللغير ، ودفع العدوان ، وتعاون على العمل المثمر فى الحياة(١٨) •

***

بنــاء الجمــاعة

فى ضوء المناقشات السابقة ــ سواء ما اتصل منها بأهداف الجماعة أو تماسكها ــ نخلص بعدد من النتائج الهامة ، يلقى كل منها بعض الضوء على ناحية من النواحى فى موضوع « ديناميات الجماعة » • وهى تشير جميعها الى أن كلا من « الكفاءة الموضوعية » للجماعة (أى درجة نجاحها فى تحقيق أهدافها الجماعية) ، و « الكفاءة الذاتية » للجماعة (أى درجة نجاحها فى ارضاء افرادها) تزداد اذا لعب الأفراد دورا ايجابيا فى تحقيق أهداف الجماعة ، وفى اختيار خطة العمل ، وفى ابتكار الحلول للمشكلات بدلا من أن تفرض عليهم •

ولكن ما الذى يحدد درجة كفاءة الجماعة بنوعيها الموضوعى والذاتى ؟ لعل أول ما يخطــر على البال من عوامل هو « تنظيم الجمــاعة » ، أو التنظيم الذى تضعه الجماعة لنفسها أو يفرض عليها من سلطة خارجية • وتنظيم الجماعة ، أو بناؤها ، يشمل فيما يشمل التمييز بين الأفراد على أساس ما يسمى عادة « المكانة » أو المركز الذى يشغله كل منهم فيها ،

---

(١٨) المرجع السابق ، ص ٢٦٠ ــ ٢٦٢ ••

ويشمل أيضا طرق الاتصال بين الأفراد ، وكذلك توزيع العمل بينهم . وطالما أن الجماعة باقية وقائمة بنشاطها الجمعى ، فان الحاجة تكون قوية لتوزيع المسئوليات بين أفرادها ، وهذا هو ما يميز الجماعة عن المنظمة .. ذلك أن الجماعة قد يكون لها قائد أو لا يكون ، وقد لا يكون على أفرادها مسئوليات متبادلة نحو العمل المشترك . أما اذا تميز أعضاء الجماعة بعضهم عن البعض الآخر بحسب مسئولياتهم أو بحسب الأدوار المتوقع قيامهم بها فى العمل على تحقيق الهدف المشترك ، فانها تسمى « منظمة » .

وتختلف الجماعات من حيث درجة الشكلية فى تحديد بنائها .. فبعض الجماعات يتحدد بناؤها تحديدا شكليا كبيرا عن طريق مواثيق مكتوبة ولوائح داخلية وتعليمات تنظيمية تنص على كل مركز داخل الجماعة من حيث واجباته ومسئولياته وعلاقاته بالمراكز الأخرى ، فيما يتعلق بالاتصال والسلطة وامكانات الترقية . ولكن بعض الجماعات الأخرى قد يكون لها بناء ثابت دون أن يكون هناك وصف محدد لهذا البناء أو اتفاق شكلى عليه . ويتضح من البحوث أن تأثير الجماعة غير الرسمية على أعضائها لا يقل عن تأثير الجماعة الرسمية ، وفى حالات كثيرة قد يكون فى المنظمة الرسمية منظمة غير رسمية مختلفة عنها .. ولقد شاع الاهتمام بالتنظيمات غير الرسمية نتيجة لدراسات « ويسترن اليكتريك » فى عام ١٩٣٠ ، التى أوضحت أنها جزء هام من الموقف العام للعمل(١٩) . وقد أشارت هذه الدراسات الى أن التنظيم غير الرسمى هو حصيلة العلاقات الشخصية والاجتماعية التى لا دخل للسلطة الرسمية بها أو فى تكوينها ، ولكنها تنشأ تلقائيا عندما يرتبط الناس كل منهما بالآخر . والتركيز فى هذه التنظيمات غير الرسمية منصب أساسا على الناس وعلاقاتهم ، فى حين يركز التنظيم الرسمى على الوظائف من حيث السلطة والاختصاص . وعلى ذلك فالقوة غير الرسمية ترتبط بفرد أو «شخص» ،

---

(١٩) F. Roethlisberger, and W. Dickson; **Managment and the Worker.** (Cambridge, Mass . : Harvard Univ. Press. 1939)

على حين ترتبط السلطة الرسمية بالمركز أو « الوظيفة » ، ويسوسها الشخص فقط ويمارسها عندما يكون فى هذا المركز • فالقوة غير الرسمية شخصية ، أما السلطة الرسمية فتنظيمية(٢٠) •

وتوضح الدراسة التى قام بها « بيرنز »(٢١) فى أحد المصانع وجود جماعات غير رسمية بين موظفى ادارة المصنع • ويجتمع أفراد هذه الجماعات فى الممرات وفى الكافيتريا (البوفيه) وخارج المصنع بعد انتهاء العمل ، والنشاط الرئيسى لهذه الجماعات هو تبادل الأقاويل وتناقل الشائعات • وكشفت هذه الدراسة عن وجود نوعين من الجماعات غير الرسمية •• فيضم النوع الأول كبار السن من العاملين ممن لا تروق لهم الأساليب الادارية الحديثة وممن يوجهون نقدا لاذعا للناجحين فى عملهم ، فهى نوع من النظام الدفاعى ضد التطور • أما النوع الآخر من الجماعات غير الرسمية ، فهو يضم صغار السن ممن يسعون للتقدم ويحاولون ضم ذوى النفوذ سعيا وراء تقدم أكبر يتفق مع اهتماماتهم • ويبدو من المعقول أن نفترض أن العضو ينضم لهذه الجماعات غير الرسمية اذا كانت جاذبيتها أشد من جاذبية الجماعة الرسمية ، أى أكثر اشباعا لحاجاته •

والخلاصة : أن بناء الجماعة يتكون من الأجزاء أو المراكز المتميزة فيها ، وترتيبها بعضها بالنسبة للبعض الآخر • ويمكن من هذه الناحية التمييز بين الجماعات على أساس المقارنة بين الأفراد من حيث المركز أو المكانة ، ودرجة التوحد مع الجماعة ، والقوة أو التأثير على الآخرين ، وتمكنهم من المصادر المختلفة للجماعة ، وكذلك مركز الفرد فى شبكة الاتصال فى الجماعة •

* * *

---

(٢٠) كيث ديفيز ، (ترجمة سيد عبد الحميد مرسى ومحمد اسماعيل يوسف) ، **السلوك الانسانى فى العمل** • القاهرة : دار نهضة مصر للطباعة والنشر ، ١٩٧٤ ، ص ٣٤٠ •

(٢١) T. Burns ; « The Reference of Conduct in Small Groups : Cliques and Cabals in Occupational Milieux; » **Hum. Relat.**, 1955. .

البناء الاسلامى للجماعة

يرى علم الاجتماع الاسلامى أن التشريع الاسلامى هو أساس قيام الجماعة الانسانية ، والأساس الذى تستند اليه فى كل بناءاتها الاجتماعية وكل تبادلاتها الأسرية والاقتصادية والأخلاقية والسياسية • ومن هذا المنظور ، يتكون البناء الاجتماعى لأى جماعة فى نظر الاسلام من بناء أساسى وهو الشريعة ، وما ينشأ عنه من علاقات اجتماعية ضرورية ، وبناء آخر فرعى مشتق من البناء الأساسى ومنبثق منه ، يصبغه ويشكله بصبغته حتى يصبح وحدة متكاملة • ويشمل هذا البناء الفرعى كل الأنظمة الاجتماعية بما فيها من علاقات تبادلية اخلاقية وسياسية واقتصادية واجتماعية(٢٢) •

وليس معنى ذلك ان البناء الاجتماعى فى المجتمع الاسلامى بناء جامد لا يقبل الجديد ، بل على العكس ، لأن أساس هذا البناء ـ وهو الشريعة الاسلامية ـ أساس مرن واضح ويصلح لكل زمان ومكان •• فهو منهج الهى كامل غير قابل لأى خلل او قصور ، ويتسع لكل جديد يدخل المجتمع الاسلامى ، ولكن بشروط اسلامية معينة ، وهى أن يتفق هذا الجديد مع القيم والمبادىء الاسلامية ومع الاطار الثقافى الاسلامى •

وهناك عاملان اساسيان يربطان بين أنماط العلاقات التبادلية للبناء الاجتماعى الاسلامى : الأول ، ان كل انماط العلاقات فى المجتمع صادرة من منبع ومصدر واحد وهو شرع الله • والثانى ، وجود الوحدات البنائية البديلة التى لا تقتصر على نمط معين ، وانما تنتشر فى كل الأنماط بصورة أو بأخرى لكى تربط بين كل الأنماط وبين المصدر الأصلى لها • وهذا هو السبب فى أن فساد أى وحدة بنائية مهما كانت بسيطة يؤدى الى انتشار التفكك والانحلال والاضطراب فى كل الأنماط البنائية الأخرى •

---

(٢٢) محمد علوان ، مفهوم اسلامى جديد لعلم الاجتماع ، (جـ ١ ـ الجماعة) • جدة : دار الشروق ، ١٩٨٣ ، ص ٧٠ •

مما سبق يتضح أن المجتمع الاسلامى بناء عام متكامل ومتجانس ومترابط ، تحتل فيه الشريعة الاسلامية الأساس الضرورى الذى من أجله نشأت الجماعة ، وينبع منها كل انماط العلاقات التبادلية الاجتماعية ، تلك العلاقات التى يمكن تحليلها الى انماط العلاقات التبادلية الأخلاقية ، والسياسية ، والاقتصادية . وسنناقش أنماط هذه العلاقات التبادلية الاجتماعية فيما يلى :

● انماط العلاقات التبادلية الأخلاقية :

تحدد الشريعة فى المجتمع الاسلامى أنماط العلاقات التبادلية الأخلاقية ، والوظيفة الاجتماعية لتلك الأنماط هى وضع الاطار العام لما ينبغى أن تكون عليه معاملة الناس عن طريق تقرير ما هو صالح والتحذير مما هو ضار بالفرد أو بالجماعة . أى أن الأخلاق تقوم بدور مزدوج ، فهى دافع للسلوك وحافز اليه ، وفى ذات الوقت تقوم بدور المراقبة والضبط الاجتماعى .

ونستطيع أن نحلل انماط العلاقات التبادلية الأخلاقية الى مجموعة من الوحدات البنائية الأساسية والبديلة ، تعتبر دعامات بنائية وروابط بين كل العلاقات فى داخل المجتمع الاسلامى على النحو التالى(٢٣) :

١ ـ التقوى وحدة بنائية أساسية :

تعبر التقوى عن الوظيفة الاجتماعية التى خلق الله الجماعة من اجلها .. وهى الخلافة فى الأرض والعبادة وتطبيق شريعة الله ، أى أنها احدى الأسس التى نشأت الجماعة الانسانية عموما من أجلها .. فتقوى الله هى العامل الأساسى المحدد لقوة المجتمع المسلم ، وهى أساس بنائى لكل انماط العلاقات الأخرى . فهى أولا أساس بنائى لنمط العلاقات الأخلاقية ، لأنها تتضمن بشكل مباشر أو غير مباشر كل الوحدات البنائية

---

(٢٣) محمد علوان ، مرجع سابق . ص ٨٠ ـ ٨٨ .

الأساسية والبديلة ، كما تتضمن ايضا الأطر العـامة للعلاقات الاجتماعية والسـياسية والاقتصادية .

وتشمل أيضا المبدأ الأول للمجتمع الاسـلامى ، اى افراد الوحدانية لله سـبحانه ، قال تعالى : « يا ايها الذين آمنـوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن الا وانتم مسلمون » . (آل عمران : ١٠٢)

كمـا يكمن فيهـا كل الفضـائل ، ويتمثل ذلك فى قوله تعـالى : « ليس البر ان تولوا وجوهكم قبـل المشرق والمغـرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المـال على حبه ذوى القربى واليتامى والمسـاكين وابن السـبيل والسائلين وفي الرقاب واقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم اذا عاهدوا ، والصابرين فى الباساء والضراء وحين الباس ، أولئك الذين صدقوا ، واولئك هم المتقون » .
(البقرة : ١٧٧)

وتتضمن التقوى وحدات بنائية كثيرة جدا ، نذكر منها بعض ما حدده القرآن الكريم فى ان العدل من التقوى ، والعفو من التقوى ، والاستقامة من التقوى . قال تعالى :

- « .. اعدلوا هو أقرب للتقوى .. » . (المـائدة : ٨)
- « .. وأن تعفوا اقرب للتقوى .. » . (البقرة : ٢٣٧)
- « .. فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم ، ان الله يحب المتقين » .
(التوبة : ٧)

لذلك لا عجب ان نجـد القرآن يحض عليهـا على مستوى الفرد والجماعة ، قال تعالى :

- « يا ايها الذين آمنوا ان تتقوا الله يجعل لكم فرقانا .. » .
(الأنفال : ٢٩)
- « .. وتزودوا فان خـير الزاد التقـوى .. » .
(البقرة : ١٩٧)

● « الا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون • الذين آمنوا وكانوا يتقون • لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة •• » •

(يونس : ٦٢ ــ ٦٤)

وتتضمن التقوى أيضا « الاستقامة » ، وهى تعنى الالتزام بالمنهج الالهى والدعوة اليه فى نفس الوقت ، فهى تؤدى وظائف التوعية اللازمة لأى شبكة من العلاقات حتى يتضح الاطار العام للسلوك المرغوب فيه • ولهذا يعطى الاسلام الاستقامة مكانة خاصة ويعد كل من يلتزم بها وعدا حسنا فى الدنيا والآخرة • قال تعالى :

● « إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » • (الأحقاف : ١٣)

● « ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة الا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون • نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون • نزلا من غفور رحيم » • (فصلت : ٣٠ ــ ٣٢)

* * *

٢ ــ الصدق وحدة بنائية أساسية :

من أهم عوامل استقرار المجتمع الاسلامى وثباته « الصدق » ، فهو كفيل بأن يشيع جوا من الثقة يتخلل كل أبنية الجماعة • ومن اهم الوظائف السوسيولوجية للصدق أن تتم المواقف الاجتماعية بين الأفراد فى بساطة ويسر دون تعقيد أو ضمانات كثيرة • وتنتشر هذه الوحدة البنائية فى كل أنماط العلاقات ، حيث تعتبر وحدة أساسية فى البناء السياسى ، لأنه من الضرورى أن تقوم أنماط العلاقات التبادلية بين الصفوة فى المجتمع وبين القاعدة على أساس من الصدق ، كما يجب أن تلتزم كل المؤسسات السياسية بالصدق والا فسدت الجماعة •

والصدق أيضا وحدة أساسية فى العلاقات الاجتماعية بين أفراد المجتمع

فى شتى أنواع التعامل ، ثم يتحور لكى يصبح وحدة بنائية بديلة فى النظــام الاقتصادى حيث يتخذ صــورة الوفاء بالكيل والميزان والتعامل بما يرضى الله • ولهذا نجد الخالق سبحانه وتعالى يدعو للتخلق به فيقول فى كتابه العزيز :

● « والذين هــم لأماناتهم وعهــدهم راعون » ••

(المؤمنون : ٨)

● « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين » •

(التوبة : ١١٩)

● « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا » •

(الأحزاب : ٧٠)

● « واذكر فى الكتاب اسماعيل ، انه كان صادق الوعد وكان رســولا نبيا » • (مريم : ٥٤)

● « ليجزى الله الصادقين بصدقهم •• » • (الأحزاب : ٢٤)

● « ان الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلهــا •• » •

(النساء : ٥٨)

● « فان أمن بعضكم بعضا فليؤد الذى أؤتمن أمانته وليتق الله ربه •• » • (البقرة : ٢٨٣)

ومن الحديث النبوى الشريف :

ـ « أد الأمانة الى من ائتمنك ولا تخن من خانك » •

(رواه أحمد وأبو داوود)

ـ وعن أنس قال : ما خطبنا رسول الله ﷺ الا قال : « لا ايمان لمن لا أمانة له ، ولا دين لمن لا عهد له » • (رواه أحمد)

ـ « المستشار مؤتمن » • (رواه الطبرانى)

ـ « عليكم بالصدق فان الصدق يهدى الى البر ، وان البر يهدى الى الجنة ، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا ، واياكم والكذب فان الكذب يهدى الى الفجور ، وان الفجور يهدى الى النار ، وما زال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا » . (رواه مسلم)

* * *

٣ ـ الاصلاح وحدة بنائية بديلة :

يلازم الصدق « الاصلاح بين الناس » ، فالاصلاح بين الناس من أهداف الاسلام . واول دليل على حسن ايمان الفرد أن لا يكون مستقيما فى حياته فقط ، بل ان يسعى الفرد وتسعى الجماعة للاصلاح بين الناس ، لأن الخلافات بين الجماعات الصغيرة فى كل مجتمع مسلم أمر وارد ، ومن هنا جاءت ضرورة الاصلاح . قال تعالى : **« وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون »** . (هود : ١١٧)

والاصلاح وحدة بنائية بديلة لأنه يتخذ صورا متعددة داخل انماط العلاقات التبادلية الأخلاقية وفى داخل كل الأنماط الأخرى ، حيث يمكن ان يكون اصلاحا بالفعل او بالكلمة أو بتقديم المعونة فى أى شكل من الأشكال .

واذا كان الاصلاح وحدة بنائية بديلة فى الأخلاق ، فهو وحدة بنائية اساسية فى النظام السياسى والعلاقات التبادلية القضائية ، كما يعم ويسود كل أنماط العلاقات الاجتماعية فى نظر الاسلام ، فهو وحدة اساسية فى شبكة العلاقات الاجتماعية كما تدل على ذلك الآية الكريمة : **« لا خير فى كثير من نجواهم الا من أمر بصدقة أو معروف أو اصلاح بين الناس ، ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجرا عظيما »** .
(النساء : ١١٤)

وهو وحدة اساسية فى أنماط علاقات القرابة ، حيث يعتبر أحد

وسائل المحافظة على الأسرة فى الاسلام . قال تعالى : « **وان خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من اهله وحكما من اهلهـا ان يريدا اصلاحا يوفق الله بينهما .. »** . (النساء : ٣٥)

وهو ايضا وحدة بنائية اساسية فى انماط العلاقات السياسية على المستوى المحلى أو القومى والمستوى الدولى ، قال تعالى :

- **« انما المؤمنون اخوة فأصلحوا بين أخويكم »** . (الحجرات : ١٠)

- **« وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما .. »** . (الحجرات : ٩)

والاصلاح هنا له معنى خاص فى علم الاجتماع الاسلامى ، فهو الأخوة فى الله التى يصورها الاسلام تصويرا يفوق كل أنواع العلاقات الاجتماعية الأخرى ، فهـذه الأخوة فى نظر الاسـلام أسـمى من الأخوة القـرابية البيولوجيـة .

***

٤ ـ الايثار وحدة بنائية أساسية :

ان الوظيفة الأساسية للايثار هى تنمية شبكة من العلاقات التبادلية فى المجتمع يسودها روح الحب والمحبة والرحمة ، وترتبط برباط وثيق من المودة والتعاون ، ولذا تحض الشريعة عليه كأساس بنائى ضرورى ، ويتمثل هـذا فى قول الخالق جل وعلا : « **.. ويؤثرون على أنفسـهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون** » . (الحشر : ٩)

ولهذا فالايثار وحدة بنائية تربوية أساسية ، تربط كل الأبنية الاجتماعية ، وتتمثل فى أحسن صورة لها فى النظام السياسى الاسلامى عندما يؤثر الحاكم المحكومين على نفسه ، وفى أنماط العلاقات الاجتماعية عندما يؤثر

الفرد فردا آخر ، وفى انماط العلاقات الأسرية عندما يؤثر المسلم ذوى الرحم على ذاته ، وفى انماط العلاقات الاقتصادية عندما يقنع التاجر او المؤسسات التجارية بالربح القليل من اجل مصلحة الجماعة ككل .

* * *

٥ ـ التعاون وحدة بنائية بديلة :

وهو يلازم الايثار ، وقد ياخذ التعاون صورا عديدة فى بنية المجتمع المسلم .. فقد يكون التعاون على البر والتقوى ، وقد يكون التعاون فى العمل ، او فى الانتاج او فى الاستهلاك او فى التوزيع ، وهو واضح الآن فى شتى مجالات الانتاج والتوزيع التعاونى ، ويعتبر ضرورة لكل من الفرد والجماعة . قال تعالى :

● « .. وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الاثم والعدوان .. » . (المائدة : ٢)

● « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله ، أولئك سيرحمهم الله ، ان الله عزيز حكيم » . (التوبة : ٧١)

ان إئتلاف القلوب والمشاعر ، واتحاد الغايات والمناهج ، من أوضح تعاليم الاسلام ، والزم صفات المسلمين المخلصين . ولا ريب ان توحيد الصفوف واجتماع الكلمة هما الدعامة الوطيدة لبقاء الأمة الاسلامية ، ودوام دولتها ، ونجاح رسالتها . ولئن كانت كلمة التوحيد باب الاسلام ، فان توحيد الكلمة سر البقاء فيه ، والابقاء على رسالته(٢٤) .

وكان رسول الله ﷺ شديد التحذير من عواقب الفرقة والاعتزال ، وكان فى حله وترحاله يوصى بالتجمع والاتحاد . قال عليه الصلاة والسلام :

---

(٢٤) سيد عبد الحميد مرسى : **الدين المعاملة** ، مرجع سابق ، ص ٣٦

ـ «الشيطان يهم بالواحد والاثنين ، فاذا كانوا ثلاثة لم يهم بهم» .
(رواه مالك)

ـ « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » .
(رواه البخارى ومسلم)

ـ «لا ترجعوا بعدى كفارا ، يضرب بعضكم رقاب بعض » .
(رواه الترمذى)

***

٦ ـ الصبر وحدة بنائية بديلة :

قال رسول الله ﷺ : « الصبر ضياء » . (رواه مسلم)

فاذا استحكمت الأزمات وتعقدت ، وترادفت الضوائق وطال ليلها ، فالصبر وحده هو الذى يشع للمسلم النور العاصم من التخبط ، والهداية الواقية من القنوط . والصبر فضيلة يحتاج اليها المسلم فى دينه ودنياه ، ولا بد ان يبنى عليه آماله واعماله .. فيجب ان يوطن نفسه على احتمال المكاره دون ضجر وانتظار النتائج مهما بعدت ، ومواجهة الأعباء مهما ثقلت ، بعقل متفتح وقلب لم تعلق به ريبة . وقد اكد الله سبحانه أن ابتلاء الناس لا محيص عنه ، حتى يأخذوا اهبتهم للنوازل المتوقعة ، فلا تذهلهم المفاجآت(٢٥) . قال تعالى : « **ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلوا اخباركم** » . (محمد : ٣١)

وفى الحديث النبوى الشريف : « اذا احب الله قوما ابتلاهم ، فمن رضى فله الرضا ، ومن سخط فله السخط » . (رواه الترمذى)

والصبر انواع : صبر على الطاعة ، وصبر على المعصية ، وصبر على النوازل .. فأما الصبر على الطاعة فأساسه أن أركان الاسلام

---

(٢٥) **المرجع السابق** ، ص ١٨ ـ ١٩

تحتاج فى القيام بها والمداومة عليهــا الى تحمل ومعاناة • فالصــلاة ـ مثلا ـ فريضــة متكررة يقوم بها المســلم فى مواعيد محددة ، ويقول الله تعالى فيها :

● « **وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها** •• » (طه : ١٣٢)

● « **واستعينوا بالصبر والصلاة ، وانها لكبيرة الا على الخاشعين** » (البقرة : ٤٥)

والتواصى بالصبر قرين التواصى بالحق ، وقد اقسم الله عز وجل على ان فلاح البشر منوط بهما : « **والعصر • ان الانســـان لفى خسر • الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر** » • (سورة العصر)

والصبر عن المعاصى هو عنصر المقاومة للمغريات التى تنبت فى طريق الناس وتغريهم باقتراف المــآثم المحظورة • قال ﷺ : « حفت الجنة بالمكاره ، وحفت النار بالشهوات » • (رواه مسلم)

والادبار عن الشهوات لا يتأتى الا لصبور ، والصبر هنا اثر اليقين الحاسم والاتجاه الحازم الى ما يرضى الله • قال تعالى : « •• **ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين** » • (الأعراف : ١٢٦)

وهناك الصــبر على ما يصيب المؤمن فى نفســـه أو ماله أو اهله أو مكانته ، وتلك كلها اعراض متوقعة هيهات أن تخلو الحياة منها • ولكن المســلم اذا احتمى بالله ولجأ اليه صمد امام الأحداث ، ولن تفارق المؤمن رحمة الله ما دام قد تمســك بدينه فى الأزمات ولا يتزعزع يقينه عند الشدائد • قال تعالى : « **ولنبلونكم بشىء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات ، وبشر الصابرين • الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا انا لله وانا اليه راجعون • أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون** » • (البقرة : ١٥٥ ـ ١٥٧)

***

الأســـرة

● تعريف الأسرة :

تشير كلمة « اسرة » من الناحية السوسيولوجيــة الى معيشة رجل مع امرأة ، على اســاس الدخول فى علاقات جنســية يقرها المجتمع وما يترتب على ذلك من انجاب الأولاد ، وما يتبعه من حقوق وواجبات كرعاية الأطفال وتربيتهم(٢٦) ٠

وقد عرف « ميردوك »(٢٧) الأسرة كالآتى : « الأسرة جماعة اجتماعية يسمح فيها بالممارسة الجنسية بين ذكر وأنثى راشدين ، مع شرعية انجاب الأطفال ، وهذه الجماعة مسئولة أمام المجتمع عن تربية أطفالها ورعايتهم ، كما تعتبر وحدة اقتصادية من الناحية الاســـتهلاكية على الأقل » ٠

ولكن الأشكال التاريخيـــة والمعاصرة للتنظيم الأسرى جعلت من المناسب أن يضــاف الى مصطلح « أسرة » صفة تحدد شكلها ٠ فيطلق مصطلح « الأسرة الممتدة » (Extended Family) على تلك الأسرة المكونة من الزوج والزوجة وأولادهما غير المتزوجين من الذكور والاناث والأولاد المتزوجين وزوجاتهم وأولادهم وغيرهم من الأقارب المقيمين مع الأسرة كالعم أو العمة والابنة الأرملة ، الخ ٠٠ وهؤلاء جميعا يقيمون فى نفس المسكن ويشــاركون فى حياة اقتصادية واجتماعية واحدة تحت رئاســة الأب الأكبر أو رئيس العائلة (٢٨) ٠ وهذا النظام ظل ســائدا فى المجتمع

---

(٢٦) ســناء الخولى : **مرجع ســابق** ، ص ٢٠٢

(٢٧) G. Murdock; **Social Structure**. (New York : Macmilian, 1949).

(٢٨) محمــد عاطف غيث : **علم الاجتمــاع** ، مرجع ســـابق ، ص ١٠ ـ ١٢

الريفى المصرى لسنوات طويلة ، حيث كانت الأسرة تتملك أرضا واحدة يعمل الجميع فيها ويعيشون تحت سقف واحد فى حياة اقتصادية مشتركة دون أية ملكية فردية لأحد من أفراد الأسرة ٠ وكان من عادات مثل هذه الأسر الممتدة عند تناول الغذاء خاصة طعام العشاء ـ باعتباره يمثل الوجبة الرئيسية ـ ان يجلس جميع رجال الأسرة والأولاد الذكور لتناول الطعام أولا ويخدمهم فتيات الأسرة ، ثم تتناول السيدات والفتيات والبنات الصغار سويا الطعام بعد ان ينتهى الرجال ٠ وكان هذا الوضع سائدا فى بعض الأسر العريقة فى المدينة ، حيث كان الجميع يعيشون فى منزل واحد حياة مشتركة ٠ أما كلمة « أسرة Family » فتشير الى الجماعة المكونة من الزوج والزوجة واولادهما غير المتزوجين الذين يقيمون معا فى مسكن واحد ، وهذا هو الوضع السائد حاليا فى المجتمعات المتحضرة ٠

ولقد تأثرت الأسرة بصورة عامة بالتغيرات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية التى مرت بها المجتمعات فى مختلف انحاء العالم ، فتغير بناؤها أو انكمشت وظائفها ٠ ولكن الأسرة بمعناها المحدد ، والتى اصطلح على تسميتها « الأسرة النواة Neuclear Family » ظلت مركز التناسل ومصدر الرعاية الأولية المباشرة لأفرادها ٠٠ فمع كل النتائج التى طرحها التغير ، وخاصة فى مجال الاتجاه نحو الفردية أو العزلة القرابية ، الا انه فى كثير من انحاء العالم ـ حتى فى أكثر أجزائه تحضرا وتقدما ـ لا زال الفرد يمر خلال حياته بنمطين مختلفين من الأسرة النواة ٠٠ فهو يولد ويترعرع فى أسرة مكونة منه ومن اخوته ـ الذكور والاناث ـ ومن والديه ، وتسمى « أسرة التوجيه Family of Orientation » ٠ وعندما يتزوج الفرد ويستقل عن أسرته الأصلية يكون لنفسه « أسرة نواة » أخرى تتكون منه ومن زوجته وأطفاله ، وتسمى حينئذ « أسرة انجاب Family of Procreation »(٢٩) ٠

---

(٢٩) سناء الخولى : مرجع سابق ، ص ٢٠٣ ـ ٢٠٤

وعلى الرغم من صغر حجم الأسرة فهى اقوى نظم المجتمع ٠٠ فهى النظام الذى عن طريقه نكتسب انسانيتنا ، كما أنه لا توجد طريقة اخرى لصياغة بنى الانسان سوى تربيتهم فى أسرة ٠ ومن هنا نجد أن كل شخص ينتمى بشكل ما الى أسرة واحدة على الأقل ، ولذلك تعتبر الأسرة المهد الحقيقى للطبيعة الانسانية ، هذا فضلا عن أن تجربة الحياة خلالها ضرورية لتحويل المولود الى مخلوق « انسانى » يعيش فى توافق وانسجام مع الآخرين وفقا للقيم والمعايير السائدة ٠٠ فالأسرة اذن موجودة عبر التاريخ ، ولكن فى اشكال مختلفة ، وهى أيضا ضرورة عالمية لأنها تقوم بانجاز عدد من الوظائف الأساسية للمحافظة على استمرار الحياة الاجتماعية ، مثل :

١ ـ ممارسة العلاقات الجنسية بين الزوجين فى اطار شرعى ٠

٢ ـ الانجاب الشرعى للأبناء ٠

٣ ـ رعاية الأبناء وتنشئتهم ٠

٤ ـ التعاون كوحدة اقتصادية ٠

* * *

● **الزواج والأسرة :**

هناك ارتباط بين مصطلحى « الزواج » و « الأسرة » ، حيث يستخدمان استخداما مترادفا ٠٠ ولكنهما فى الواقع يختلفان أحدهما عن الآخر وليسا شيئا واحدا ٠٠

« فالزواج Marriage » عبارة عن تزاوج منظم بين الرجال والنساء ، بينما يجمع معنى « الأسرة Family »بين الزواج والانجاب ، كما تشير الأسرة كذلك الى « المكانة Status » و « الأدوار Rolls » المكتسبة عن طريق الزواج والانجاب ٠ وهكذا نجد أنه من المألوف اعتبار الزواج شرطا أوليا لقيام الأسرة ، واعتباره نتاجا للتفاعل الزواجى ٠

وليس الزواج والتزاوج شيئا واحدا ·· فالأول مفهوم سوسيولوجى ، اما الثانى فمفهوم بيولوجى · فظاهرة التزاوج معروفة عن أنواع مختلفة من الحيوانات ، بينما الزواج مقصور على البشر فقط كما أنه نظام اجتماعى يتصف بقدر من الاستمرار والامتثال للمعايير الاجتماعية · والزواج هو الوسيلة التى يعمد اليها المجتمع لتنظيم الأمور الجنسية وتحديد صور التزاوج الجنسى بين البالغين · والزواج نظام عام يفرضه المجتمع على غالبية افراده ، وهو النظام الأوفر جزاء بالنسبة للرجال والنساء خلال الجانب الأكبر من حياتهم ·

وهناك معايير أخرى اجتماعية تفسر معنى الزواج نشير هنا الى بعضها(٣٠) :

١ ـ المعيار الاجتماعى التقليدى : وهو ينظر الى الزواج كظاهرة مقدسة ، خلقه الله تعالى وأكدته الشرائع السماويةكأساس للحياة الانسانية· وهذا يعنى أن الانسان ورغباته الشخصية تأتى فى المكانة التالية من حيث الأهمية بعد تحقيق متطلبات الأسرة وتنفيذ الأوامر الالهية ·

٢ ـ المعيار الثانى أوسع نطاقا ، لأنه يؤكد أن معنى الزواج والأسرة يتركز اساسا حول الالتزامات الاجتماعية · وهو فى هذا يتفق مع المعيار السابق ، الا انه يختلف معه فى نقطة أساسية ·· فبينما يركز المعيار الأول السلطة فى يد « الله » سبحانه ، فان المعيار الثانى يركزها فى يد « الرجل » · والقيمة الأولى فى معنى الزواج هى المحافظة على الاحترام والتقاليد الاجتماعية ، والامتثال لرغبات الأقارب والمجتمع المحلى والاحتفاظ بصورة لائقة فى المجتمع · ومن خلال هذا المعنى للزواج تكون لآراء الناس أهمية كبرى ، ولهذا يصبح الطلاق أو الحمل قبل الزواج وكل مظهر انحرافى آخر مرفوض تماما لأن المجتمع ـ متمثلا فى الأقارب والأصدقاء والمجتمع المحلى ـ يدين ذلك قولا وفعلا ·

---

(٣٠) **المرجع السابق** ، ص ٢٠٩ ـ ٢١٠

٣ ـ والمعيار الثالث يعبر عن أحدث معانى الزواج ، حين يؤكـد ان الأسرة والعلاقة الزواجيـة ما جدت الا من أجل « الفرد » ، فالأمر هنا يتعلق بـ « الأنا » ، والزواج عملية تتعلق بالانسان وحده . فاذا أراد الفرد أن يتزوج من خارج عقيدته الدينية أو طبقته الاجتماعية فهـذا شأنه وحده . وبهذا المعنى تكون السـلطة فى يد الانسـان الفرد وحده ، فكل فرد مسئول عن نجاحه أو فشـله دون النظر الى بناء المجتمع المحلى أو ظروف المجتمع الذى يعيش فيه .

والأسرة هى تنظيم اجتماعى يقوم على الزواج وخاصة عقد الزواج ، بما يتضمنه من معرفة بالحقوق والواجبات ، والمسـكن المشترك للزوجين . وعمـوما ، يمكن اعتبار نسـق الأسرة جماعة قرابيـة بنائية صـغيرة ، وظيفتها الأسـاسية الانجاب والتنشـئة الاجتماعية لأطفالها ، والأسرة ـ مثل الزواج ـ تشتمل على عوامل عديدة مثل :

- النشـوء والتكوين نتيجة الزواج .
- ارتباط الأفراد عن طريق الزواج أو الدم .
- وجود مسـكن مشترك .
- وضوح نظام تحديد الحقوق والواجبات المتبادلة .
- الانجاب والتنشـئة الاجتماعية كوظيفتين اساسيتين .

* * *

● أشـكال الزواج :

هناك شبه اجماع بين الدارسـين فى علم الاجتماع والانثروبولوجيا على أن تاريخ الزواج الانسـانى قد طرح أشـكالا أساسـيـة هى : الوحدانية ، وتعـدد الزوجات ، وتعدد الأزواج ، والزواج الجماعى ، وسنناقشها بايجاز(٣١) :

---

(٣١) **المرجع السابق** ، ص ٢١٤ ـ ٢١٦

١ ـ وحدانية الزواج (Monogamy) :

تعتبر وحداية الزواج من الأشكال المفضلة للزواج فى كثير من المجتمعات ، ومعناه زواج رجل واحد من أمراة واحدة ٠ وهذا النوع من الزواج منتشر على أوسع نطاق عالميا ، بل ان هناك مجتمعات ـ كالمجتمع الغربى ـ ترفض كل اشكال الزواج عدا الوجدانية ٠ ولكن وحدانية الزواج لا تعنى أن الزواج لا يحدث سوى مرة واحدة فى العمر فقط ، بل يسمح بالزواج مرة أخرى فى حالة الطلاق أو وفاة أحد الزوجين ٠

٢ ـ تعدد الزواج :

وهو الشكل الذى يعتبر على عكس وحدانية الزواج ، وهناك أنواع عديدة منه ٠٠ مثل الزواج من داخل القبيلة أو العشيرة ويسمى « الزواج الداخلى Endogamy » ، وهو على خلاف « الزواج الخارجى Exogamy » الذى لا يسمح فيه بالزواج الداخلى بين أعضاء القبيلة لانتمائهم الى « طوطم Totem » واحد فيعتبرون اخوة ويحرم زواجهم ، وبالتالى لا بد أن يكون الزواج من خارج القبيلة ٠ أما الزواج التعددى فيشير الى الزواج بأكثر من فرد ، وهو ينقسم الى ثلاثة أنواع : زواج رجل واحد من عدة نساء ويسمى « تعدد الزوجات Polygamy » وزواج امرأة واحدة من عدة رجال ويسمى «تعدد الأزواج Polyandry » وزواج عدة نساء من عدة رجال ويسمى « الزواج الجماعى Group Marriage » .

(أ) تعدد الزوجات :

هو أكثر أشكال تعدد الزواج انتشارا ، وخاصة فى المجتمعات البدائية والنامية ، ويدل فى ناحية منه على المكانة العالية والتميز والثراء ، وفى بعض الحالات لاشباع الحاجة أو الرغبة فى الانجاب وخاصة أنجاب الذكور ٠ وعادة ما يراعى فى الأسرة التى تتعدد فيها الزوجات عدة اعتبارات مثل :

- ان يكون للزوجات حقوق متساوية ٠
- أن تقيم كل زوجة فى مكان مستقل ٠
- أن يكون للزوجة الأولى عادة مميزات ونفوذ على الزوجات الأخريات ٠

(ب) تعـدد الأزواج :

وهو شكل نادر الحدوث ومحدود الانتشـار ، ويكون الأزواج فى معظم الحالات من الأشـقاء ، فهم اخوة وينتمون الى نفس الجيل ، مما يقلل الى حـد كبير من درجة الغيرة بين هؤلاء الأشـقاء ٠ وفى بعض قبائل الهنـد عندما تتزوج امرأة من رجل فانها تصبح زوجة لاخوته فى نفس الوقت ٠ ويرجع نظام تعدد الأزواج فى الواقع الى ظروف الفقر الشـديد ، مما يجعل من الصعب على كل فرد أن يتزوج امرأة بمفرده ، وبالتالى يشـترك الاخوة فى الزواج من امرأة بمفردها ٠

(جـ) الزواج الجمـاعى :

يعتقد أن هذا النوع من الزواج كان سـائدا فى المجتمعات البدائية فى العصور القديمة ، ولكن لم يتأكد هذا الرأى بصورة علمية دقيقة ٠ وهو يعنى زواج عدد محدد من الذكور من عدد مسـاو لهم من الاناث ٠ ولكن هـذا الشكل من الزواج نادر الحدوث فى الوقت الحالى الا فى حالات فردية تعتبر شاذة الى حد كبير٠وقد قام «لارى» و «كونستنتين»(٣٢) بدراسـة عن الزواج الجماعى فى أمريكا ، حيث ركزا على عشر زيجات معظمها لا يقـل عن أربعة أشـخاص وتبين من نتائج الدراسـة أن آلية معيشـة هـذه الزيجات معقـدة للغاية من حيث الأمور المـالية واتخاذ القرارات والانجاب والصراعات الشخصية ٠

❋ ❋ ❋

---

(٣٢) L. Larry, and J. Constantine; «The Group Marriage», in M. Gordon; **The Nuclear Family in Crisis: The Search for an Alternative.** (N. Y. : Harper, 1972) , pp. 204 - 222.

● **وظائف الأسرة :**

ان معظم النقد الذى يوجه الآن الى الأسرة الحضرية المعاصرة هو فقدها الكثير من وظائفها التقليدية ، واذا ما تتبعنا تطور الأسرة نجد أنها كانت طوال العصور الماضية هى نواة النظام الاجتماعى وقلبه النابض . وقد صاحب التغيرات التى تعرضت لها المجتمعات - مثل زيادة التخصص وتعقد المجتمع الحديث - تغيرات فى الوظائف التى كانت الأسرة تقوم بها من قبل ، الأمر الذى أدى الى انتقال عدد كبير منها الى مؤسسات أو تنظيمات أخرى خارج نطاق الأسرة .

وقد أكد « أوجبرن »(٣٣) أن مأساة الأسرة الحديثة تكمن فى فقدانها لأغلب الوظائف التى كانت تقوم بها وهى :

١ - **الوظيفة الاقتصادية :** كانت الأسرة فى الماضى وحدة اقتصادية مكتفية ذاتيا ، حيث كانت تقوم باستهلاك ما تنتجه ، وبالتالى لم تكن هناك حاجة للبنوك أو المتاجر بالشكل الذى نراه الآن .. ومن واقع خبرة الكاتب أن الأسرة فى الريف كانت تزرع وتستهلك معظم المحصول سواء فى مواجهة احتياجاتها الغذائية ، أو للمقايضة به فى المتاجر للحصول على ما يلزمها ، ثم تبيع الفائض للحصول على باقى لوازمها . وقد أصبح من المشاهد الآن فى الريف المصرى بعد أن غزته التكنولوجيا والمدنية الحديثة ، أن تنشأ مخابز فى القرى لسد حاجة سكانها من الخبز ، وهو شىء مستغرب فى الريف الذى يزرع القمح والذرة .

٢ - **وظيفة منح المكانة :** كان أعضاء الأسرة يستمدون مكانتهم الاجتماعية من مكانة أسرهم ، كما كان اسم الأسرة يحظى بأهمية وقيمة كبرى . بل ان الأسر العريقة كانت حريصة على أن يتم زواج أبنائها وبناتها من داخل الأسرة أو من أسر لا تقل عنها مكانة .

---

(٣٣) W. Ogburn ; Technology and the Changing Family. (Boston : Houghton - Mifflin, 1955).

٣ ـ **الوظيفة التعليمية** : كانت الأسرة تقوم بتعليم أفرادها ، ولم يكن ذلك قاصرا على التعليم التقليـــدى بالمدارس ، وانما كانت تهتم بتعليم أبنائها الحرف المختلفة والزراعة والتدبير المنزلى وما أشـــبه . وكانت الأسرة فى الريف المصرى تهتم بتحفيظ القرآن لأبنائها فى « الكتاتيب » او عن طريق معلم دينى خاص بالمنزل . وبالنسبة للزراعة والمهن الزراعية فكانت الأسرة حريصـة على تعليم أبنائها فنون الزراعة فى سـن مبكرة حيث يســاعد الأولاد اباءهم فى الزراعة ، بل ان المدارس الموجودة فى القرية كانت تغلق أبوابها فى مواسـم الحصـاد حتى يشـترك الأبنـاء مع ابائهم فى جنى المحصــول . وكان تعليم الشـئون المنزلية أساسـيا للبنات حتى تصبح كل واحـدة قادرة على ادارة شــئون المنزل مع اسرتها وعندما تســتقل فى حياتها الزوجيـة .

٤ ـ **وظيفة الحماية والرعاية** : كانت الأسرة مسـئولة عن حمـاية اعضائها .. فالأب يمنح حمايته ورعايته للأسرة فى النواحى الجسـمية والصحية والوقائية والاقتصادية والنفسـية والاجتماعية ، وكذلك يفعل الأبناء لآبائهم عندما تتقدم بهم السـن . ولقد أصبحنا نجـد أعضــاء الأسرة الواحدة اما مستقلين فى حياتهم الخاصـة أو لا يعلمون شـيئا عما يحدث داخل الأسرة وان كانوا يعيشــون فى مكان واحـد ، حيث أن كلا منهم لا يعنيه سـوى شـئونه الخاصـة .

٥ ـ **الوظائف الترفيهية** : كانت الوظيفة الترفيهية محصـــورة فى الأسرة أو بين عدة أسر مترابطة ، وليس فى مراكز خارجيـة مثل المدرسة أو المجتمع المحلى أو وســائل الترفيه المختلفة . وكان هـذا الترفيه الأسرى يجمع شـمل أعضـاء الأسرة وينمى العلاقات الاجتماعية فيما بينهم ويحميهم من الاختلاط برفاق السـوء خارج نطاق الأسرة .

وعموما ، تنحصر وظائف الأسرة الاجتماعية فى الوقت الحاضر فى الانجاب ، والاعاشـة ، والتنشئة الاجتماعية ، ومنح المكانة ، بالاضافة الى وظيفة جديدة لم يهتم بها التحليل السوسـيولوجى من قبل وهى « الوظيفة العاطفيـــة Affectional Function » ، ونعنى بها التفاعـل العميق

بين الزوجين وبين الآباء والأبناء فى منزل مستقل ، مما يخلق وحدة اولية صغيرة تكون المصدر الرئيسى للدفء والاشباع العاطفى لجميع اعضاء الأسرة . وقد أصبحت هذه الوظيفة من الملامح المميزة للأسرة الحضرية الحديثة ، بعكس الحال فى الأسرة الممتدة فى المجتمعات الريفية ، حيث يتم التفاعل الأولى بين حلقة كبيرة من الأقارب الذين يعيشون متجاورين(٣٤) .

* * *

الأسرة فى الاسلام

تحظى الأسرة فى التشريع الاسلامى باهتمام كبير ، خاصة وأنها تعتبر النواة التى تنبثق عنها جميع العلاقات البشرية . ويعطى الاسلام للأسرة من العناية والرعاية والحرص على الحماية من التفكك والانحلال ، ما لم تعطه لها شريعة أخرى ، مؤكدا بذلك على تقديره لمكانتها ودورها الفعال فى بناء المجتمع السليم(٣٥) .

وقد جعل الاسلام من الزواج أساسا تتحدد من خلاله علاقة الرجل بالمرأة ، وارسى به الخطوة الأولى فى البناء الأسرى . ولم يترك الاسلام نقطة البداية ـ فى هذا البناء ـ للناس ليقيموا قواعدها ويضعوا نظامها وأحكامها ، بل تولاها المشرع الأعظم ـ سبحانه ـ بفضله ، فوضع لأطرافها ، اى الزوجين ، دستورا للحياة الزوجية وطالبهما بالسير وفقا لأحكامه ونظمه وقواعده .. وتفيد نصوص القرآن الكريم أن الزوجية هى طبيعة المخلوقات فى الكون ، وكان مبدأ الكون أن خلق الله آدم ثم خلق منه حواء ليبدأ الإزدواج مع بدء الكون ، قال تعالى : « **يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء ..** » . (النساء : ١)

---

(٣٤) سناء الخولى ، **مرجع سابق** ، ص ٢٢٩ ـ ٢٣٠

(٣٥) زينب رضوان ، **النظرية الاجتماعية فى الفكر الاسلامى** . القاهر : دار المعارف ، ١٩٨٢ ، ص ١٤٥

واهداف الزواج تتمشى مع هذا .. فهى تكمل فى الرجل حاجته الى المرأة وفى المرأة حاجتها الى الرجل ، لتتم الزوجية . قال تعالى :

« ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة .. » . (الروم : ٢١)

وتوضح الآية الكريمة أن كلا من الزوجين يجد السكن والطمأنينة والاستقرار فى الآخر ، وأن ذلك يؤدى الى المودة والرحمة ، أى الحب والتسامح مجتمعين(٣٦) .

* * *

ولقد شرع الاسلام الزواج وجعله أساسا للنظام الأسرى فى المجتمع ، وحرص على تأكيد القوامة فيه .. فأعطى للرجل الحق فى القيام على الأسرة ورعاية شئونها ، وذلك لسببين : أحدهما أن الرجل هو المكلف بالانفاق على الأسرة ، ولا يستقيم مع العدالة فى شىء أن يكلف فرد بالانفاق على هيئة ما بدون أن يكون له حق الاشراف على شئونها . والسبب الثانى أن المرأة مرهفة العاطفة قوية الانفعال ، وأن ناحية الوجدان لديها تسيطر على مختلف نواحى حياتها النفسية(٣٧) .

كما شرع الاسلام الزواج لتحقيق هدف أسمى وهو حب البقاء .. فالانسان يدرك انه مهما طال به العمر فان مصيره الى الموت ، ولذلك يسعى جاهدا الى استمرار بقائه عن طريق الأولاد والأحفاد الذين يعتبرون امتدادا له .. ومن الوظائف الأخرى التى تضطلع بها الأسرة فى المجتمع هى الانجاب لتزويد المجتمع بالأعضاء الجدد . فالأولاد متعة صورها القرآن الكريم أدق تصوير حين قال :

- **« المال والبنون زينة الحياة الدنيا .. » .**

(الكهف : ٤٦)

---

(٣٦) عبد الله الخريجى ، **نظم المجتمع الاسلامى مع التطبيق على المجتمع العربى السعودى** . جدة : **رامتان** ، ١٩٨٣ ، ص ٥٠ – ٥١

(٣٧) على عبد الواحد وافى ، **حقوق الانسان فى الاسلام** (ط ٤) القاهرة : **دار نهضة مصر** ، ١٩٦٧ ، ص ١٠٣ .

● « **ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين اماما** » . (الفرقان : ٧٤)

وقد اعتبر الرسول الكريم ﷺ الأولاد الصالحين من خير ما يخلفه الإنسان ، حين قال : « اذا مات ابن آدم انقطع عمله الا من ثلاث : علم ينتفع به ، أو صدقة جارية ، أو ولد صالح يدعو له » .

(رواه مسلم)

كذلك تحقق الأسرة وظيفة الأمن والاستقرار النفسى ، ولهذا ينظر الاسلام اليها على انها أصل الحياة الاجتماعية الانسانية . ولكى تتحقق رؤى الاسلام للأسرة ، وضع لها دستورها الذى تسير عليه .. فبدأ أولا بأن حث الناس على الزواج بهدف الاحصان ، ونهى عن زواج المتعة لأنه لا يستهدف الا اشباع الشهوة ولا يكفل الاستقرار او الاستمرار . قال تعالى : « **والمحصنات من النساء الا ما ملكت أيمانكم ، كتاب الله عليكم ، واحل لكم ما وراء ذلكم أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين** .. » . (النساء : ٢٤)

ولقد ارتبطت وظيفة تحقيق الأمن والاستقرار للأسرة بوظيفة الحفاظ على النوع واستمراره وتزويد المجتمع بالأعضاء الجدد الذين يجددون شبابه وينعشون قواه الانتاجية والفكرية .. ومن هنا يتضح مثلا أن سكون الزوج لزوجته والزوجة لزوجها أن يستمر النوع البشرى من خلال كيان عائلى منظم ومستقر له تبعاته وحقوقه . ومعنى السكن هنا ان يطمئن كل منهما الى حياته بسبب الآخر ، بحيث تكون الحياة بعيدة عن القلق والهموم والمخاوف . هذا الى جانب أن يكون كل من الزوجين سترا للآخر يمنعه من أن يزل فتظهر زلته ، ويقيه من الجنوح والاغراق(٣٨) . قال تعالى :

● « **ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة** .. » . (الروم : ٢١)

---

(٣٨) زينب رضوان ، **مرجع سابق** ، ص ١٤٦ .

● « .. هن لباس لـكم وانتم لباس لهن .. » .

(البقرة : ١٨٧)

والمغزى أن للزواج فى الاسلام عدة أهداف ، ولكن يأتى على راس هـذه الأهداف ـ أو الوظائف ـ أمران رئيسيان هما الاستقرار النفسى والمـادى ، والتمكن من التغلب على نزوات الاغراق ودوافع الجنوح عن الطريق المستقيم فى سبيل تحقيق الانسانية .

* * *

● **الاختيـار فى الزواج :**

قصد الاسلام من الزواج أن يحيل العقد بين الاثنين الى هـذه الغاية من الاستقرار والمودة والرحمة ، ولهذا طلب مراعاة خطوات تيسر أمر هـذا العقد ، نظرا لأن اختيار العشير أعظم الأمور خطرا فى حياة الرجل والمرأة ، وهو عقد الحياة الذى يترتب عليه الاستقرار والتوفيق أو الاضطراب والشـقاء .. ولقد سن الاسلام تشريعات محكمة تمنع الشطط فى الاختيار ، وتمنع أن يكون هـذا الاختيار لأسباب وقتية سريعة الزوال ، ومع زوالها يكون انحلال الحياة الزوجية (٣٩) .. فعلى الزوجة أن تدرك أن البواعث الحسية سريعة الزوال ، والا تختار زوجا لشكله أو مركزه من غير ملاحظة الجانب المعنوى من حسن الطباع وقوة الأخلاق لأن ذلك يعرض حياتها للاضطراب الذى يترتب عليـه انحلال الحيـاة الزوجية . وكذلك الأمر بالنسـبة للزوج ، فعليه الا يختار زوجته ملاحظا فيها الجانب الحسى من غير ملاحظة الجانب المعنوى ، فهذا أمر يهدد الحياة الزوجية لأن الاعجاب الحسى غير مستمر وعرضة للتغير أو الزوال . وفى هـذا الصدد يخص الرسول عليه الصلاة والسلام كل من يقدم على الزواج بقوله : « انظر اليها ، فانه احرى أن يؤدم بينكما » (أى يدوم الوفاق بينكما) .

(رواه النسائى والترمذى)

---

(٣٩) عبد الله الخريجى ، علم الاجتماع العائلى مع دراسة العائلة فى الاسلام . جدة : دار الشروق ، ١٩٨١ ، ص ٣٨٢ .

وفى هـذا الحديث دعوة صريحة لكل شاب أن ينظر الفتاة التى يقبل على خطبتها قبل الزواج حتى يعرف جمالها واسلوب سلوكها ٠ وهـذه الدقة فى النظر ليست قاصرة على الشاب دون الفتاة ، وانما هى متضمنة ايضا لحث الفتاة على التروى والتفحص لشريك حياتها حتى تظفر بالزوج المناسب ٠

وقد نبه الرسول الكريم ايضا الى ان من العوامل المعينة على تحقيق المودة بين الزوجين ، هى أن يكون التفضيل عند الاختيار لذات الدين على ذات الجمال أو النسب أو المال ٠ فعن أبى هريرة رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ قال : « تنكح المرأة لأربع : لمالها ، ولحسبها ، ولجمالها ، ولدينها ، فاظفر بذات الدين تربت يداك » ٠ (متفق عليه)

ويلزم لصحة الزواج فى الاسلام توافر أربعة شروط أساسية :

أولها : الولى ، وهو أبو الزوجة أو الوصى أو الأقرب من عصبتها أو ذو الرأى والسلطان من أهلها ٠

ثانيها : الشاهدان ، وهما رجلان ذوا عدل من المسلمين ٠

ثالثها : صيغة العقد ، وهى قول الزوج أو وكيله فى العقد : « زوجنى ابنتك أو وصيتك فلانة » ، وقول الولى : « زوجتك ابنتى أو وليتى فلانة » ، وقول الزوج : « قبلت زواجها لنفسى » ٠

ورابعها : المهر أو الصداق ، وهو ما تعطاه المرأة حلية الاستمتاع بها ٠

وفى هـذه الشروط وردت نصـوص فى القرآن الكريم والحـديث النبوى الشريف ٠٠

يقول الله تعالى : « وآتوا النساء صدقاتهن نحلة ٠٠ » ٠

(النساء : ٤)

وعن رسول الله ﷺ : « خيرهن ايسرهن صداقا » ٠

(رواه الطبرانى)

ـ « لا يكون نكاح الا بولى وشاهدين ومهر ما كان قل أو كثر » .
(رواه الطبرانى)

***

● **حقوق الزوج والزوجة :**

لقد تناولت الشريعة الاسلامية العلاقة الزوجية منذ نشأتها الأولى ، فحددت التبعات والحقوق فيها ، والتى تستهدف أساسا صون الحياة الزوجية بما يكفل لها الاستقرار والاستمرار . وأول حق اثبتته للفتاة فى هذا الصدد أن تكون موافقتها على الزواج شرط صحة عقده . ثم أوجبت بعد هذا على الرجل أن للمرأة التى يريد الاقتران بها قدر من المال لم تحدده الشريعة بل تركته لكل على قدر استطاعته ، وجعلته رمزا للرغبة فى الاقتران واشعارا لها بأنها موضع بره وعطفه ، مما يساعد على تقوية عرى المحبة بينهما . ولعل اختصاص الرجل بالتبعة فى بناء الحياة الأسرية تتمشى وطبيعته التى تمكنه من السعى للرزق وكسب العيش للوفاء بمتطلبات المعيشة الزوجية ، ولهذا كانت كل التكاليف المالية ـ التى تقتضيها الحياة الزوجية ـ على الرجل دون المرأة(٤٠) ، ومن ثم كانت القوامة له عليها عملا بنص القرآن الكريم : « **الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم** .. » .
(النساء : ٣٤)

واذا كان القرآن الكريم يحدد حقوقا للزوجة على زوجها ، فانه لم يدع الزوج دون تحديد لحقوقه على زوجته .. ومن أول هذه الحقوق حق طاعة الزوجة لزوجها بما لا يتعارض مع طاعة الله ، ولا ينتقص من حسن المعاشرة بينهما . ويتمشى هذا الحق مع حق القوامة التى أوجبها الله تعالى له . وليست هذه القوامة سلطة يستبد بها الرجل .. فالغاية من الزواج الاطمئنان النفسى وتأكيد المودة والتعاطف بين الزوجين .

---

(٤٠) زينب رضوان ، مرجع سابق ، ص ١٥١ .

ولا تتحقق هــذه **الغاية** اذا قصد الاسلام من قوامة الرجل على المرأة أن يكون سيدا وهى مسودة ، لأن هذا لا يتفق مع النص القرآنى الذى جعل من الرجل والمرأة شطرين لذات واحدة ، قال تعالى : « **هو الذى خلقكم من نفس واحــدة وجعل منها زوجها ليســكن اليها ..** » .

(الأعراف : ١٨٩)

* * *

● **حقوق الزوجين فى القرآن والسنة :**

أولا ــ فى القرآن الكريم :

● « **الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم ..** » . (النساء : ٣٤)

● « **.. ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف ، وللرجال عليهن درجة ، والله عزيز حكيم** » . (البقرة : ٢٢٨)

● « **.. للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن ..** »

(النساء : ٣٢)

● « **.. ولا جناح عليكم أن تنكحوهن اذا آتيتموهن أجورهن ..** »

(**الممتحنة** : ١٠)

● « **.. فامســاك بمعروف أو تسريح باحســان ..** » .

(**البقرة** : ٢٢٩)

● « **.. ومتعوهن على الموســع قدره وعلى المقتر قدره متاعا بالمعروف ، حقا على المحسنين** » . (البقرة : ٢٣٦)

ثانيا ــ من الحديث النبوى الشريف :

ــ « حق الزوج على المرأة أن لا تهجر فراشه ، وأن تبر قسمه ، وأن تطيع أمره ، وأن لا تخرج الا باذنه ، وأن لا تدخل عليه من يكره » .

(رواه الطبرانى)

ـ « اذا باتت المراة هاجرة فراش زوجهـا لعنتها الملائكة حتى تصبح » . (متفق عليه)

ـ « لو كنت آمرا احدا أن يسجد لأحد لأمرت المراة أن تسجد لزوجهـا » . (رواه الترمذى)

ـ « لا يحل لامراة أن تصوم وزوجها شاهد (أى حاضر) الا باذنه ، ولا تأذن فى بيته الا باذنه » . (متفق عليه)

ـ « أيما امراة ماتت ، وزوجها عنها راض ، دخلت الجنة » . (رواه الترمذى)

ـ « النساء شـقائق الرجال » . (رواه أبو داوود وأحمد)

ـ « الا واستوصوا بالنســاء خيرا ، فانما هن عوان عندكم ليس تملكون منهن شـيئا غير ذلك (اى غير الاستمتاع وحفظ الزوج فى نفسها وماله) الا أن يأتين بفاحشة مبينة ، فان فعلن فاهجروهن فى المضاجع ، واضربوهن ضربا غير مبرح ، فان أطعنكم فلا تبغوا عليهن سـبيلا ، الا ان لكم على نسائكم حقا ، ولنسائكم عليكم حقا ، فحقكم عليهن أن لا يوطئن فرشـكم من تكرهون ، ولا يأذن فى بيوتكم لمن تكرهون ، الا وحقهن عليكم أن تحسنوا اليهن فى كسوتهن وطعامهن » . (رواه الترمذى)

* * *

الفصل الخامس

المجتمع المسلم

● مفهوم المجتمع :

يعرف « تيماشيف »(١) المجتمع بأنه « يتكون من بنى الانسان فى وجودهم الذى يقوم على التضامن والاعتماد المتبادل » . وهذا يعنى ان المجتمع يسمح بنوع من الاكتفاء الذاتى فى الغالب .. ذلك ان الجماعة لا تسمح - بمجالاتها الضيقة - باشباع كل حاجات الانسان بالمستوى الحضارى الملائم ، ما لم تتكامل تلك الجماعات مع غيرها بما يشكل المجتمع بالصورة التى تضم العديد من المؤسسات والنظم الاجتماعية التى تستطيع بامكاناتها الفسيحة ان توفر كل وسائل الاشباع الحضارى للانسان . وعلى ذلك فانه اذا كانت الثقافة هى طريق المجتمع واسلوبه ، فان المجتمع هو الحياة عينها ، حيث ان المجتمع حقيقة جوهرية فى حياة الانسان ، لا يستطيع بدونه ان يشبع دوافعه اشباعا حضاريا ملائما ، اذ ان المجتمع يجعل الحياة الاجتماعية ميسورة .. ان المجتمع هو الذى يشكل افكار الفرد وقيمه الاجتماعية ، ويحدد ادواره وانماط سلوكه ، ومن ثم فان وجود الفرد يتوقف على وجود المجتمع ، وبالتالى فان الثقافة لا توجد بدون وجود المجتمع . ومن هذا تتضح اهمية الفرد للمجتمع وأهمية المجتمع للفرد(٢) .

ويرجع الى الشعور الفطرى لدى الانسان « بالاحساس الجمعى Inherent Sociability » الفضل فى ضرورة قيام المجتمع ، ولذلك

---

(١) N. Timasheff Sociological Theory : Its Nature and Growth , (3 rd. ed.) (N. Y. : Random House. 1976). p. 10.

(٢) زيدان عبد الباقى ، مرجع سابق ، ص ٩٣ - ٩٤ .

فان الحد الأدنى للشروط المطلوب توافرها فى اى جماعة من الناس لكى يطلق عليها مصطلح « مجتمع » هو أن يتكون من اسيرتين او اكثر ترتبطان بروابط معينة ، وانسب وصف لهـذا المجتمع هو « العشـيرة Clan » ومن بعـدها « القبيلة Tribe » ثم القرية ، ثم المدينة المستقلة ، ثم الدولة .. وعلى الرغم من ان العشـيرة او القبيلة قد تكون - فى الحقيقـة - اقل عـددا من القرية او المدينـة ، غير ان القبيـلة ذات « ديمومة ذاتيـة Self - Perpetuating » بشكل يفوق ديمومة أفرادها او استمرارهم ، باعتبار أن الفرد فان والقبيلة باقية ومستمرة وقابلة للزيادة ، طالمـا كانت قادرة على ضم اعضاء جدد من المواليد . وليس معنى ذلك ان القبيلة باقية الى الأبد .. انما يمكن أن تتفكك كلية أو أن تذوب وتندمج فى مجتمع آخر اكبر منها ، أو ان تحتفظ بكيانها دون ان يكون لها وضع متميز . وهـذا ما حدث للقبائل التى هاجرت من الجزيرة العربية او من المغرب العربى الى مصر ، وادخلت بالتدريج فى نظام اجتماعى اوسع ، مما أدى الى صهرها فى بوتقة ذلك المجتمع ، بحيث أصبحت اثرا يذكر . وهـذا بعكس الحال فى مجتمعات القرى والمدن .

مما تقدم يمكن تعريف المجتمع « كجماعة منظمة من الناس ومرتبطة بروابط تضامنية فى شكل أنساق للحياة ، تقام لتوفير امكانية التفاعلات الطبيعية من خلال نظم تضمن لهم توفير متطلبات حياتهم والدفاع عن انفسهم » . وينطوى هـذا التعريف على بعض المصطلحات والمفاهيم التى يتطلب الأمر ضرورة تناولها بالدراسة ، ومن امثلتها ما يأتى(٣) :

١ - التنظيم (Organization) :

ان **المجتمع - ايا كان** مستوى تحضره - بدائيا كان **او** متخلفا او متحضرا ، فمن الضرورى أن يظهر فيه نمط من الحياة الاجتماعية **يميزه** عن أى مجتمع آخر سـواه .. ذلك ان الحياة الاجتماعية تتطلب **وجود قواعد وتنظيمات لتوجيه** انماط السلوك ولتوقيع الجزاءات على المخالفين

---

(٣) **المرجع السابق** ، ص ٩٥ - ٩٩ .

لتلك القواعد السلوكية أو المعتدين على النظام الاجتماعى ؛ ووجود مثل هـذه القواعد والتنظيمات ضرورى بل هو « ضرورة اجتماعية » لتيسير القيـام بالأعباء والمهام الناتجة عن خاصـية الانتماء الى المجتمع فى شكل متكامل .

وترتيبا على ذلك ، فان كل جماعة من الناس لا تملك تلك القواعد والتنظيمات ليست أهلا لأن يطلق عليها اصطلاح « مجتمع » ، ما دامت قد فشلت فى وضع القواعد التى تنظم حياتها الاجتماعية ، وبالتالى فان مثل تلك الجماعة تعتبر غير فعالة . ومن هنا ، فان الجماعة التى توصف عن جدارة بـ « المنظمة الاجتماعية » هى التى يعرف كل عضو فيها ما هو متوقع منه ، وما يتوقعه من الجماعة ككل ومن كل عضو من أعضائها ؛ وبالتالى فانه يؤدى دوره ــ كما تؤدى الجماعة دورها ــ فى وضوح كامل .
ومن شأن الأخذ بتلك القواعد والتنظيمات باستمرار أن يتحول على المدى البعيد الى عادات مكتسبة تؤدى الى توفير الجهود فى العلاقات والمعاملات بين الأفراد ، وتسمح للجميع بأداء واجباتهم تلقائيا ، وفى ذات الوقت يوجهون انتباههم الى الأعمال والمهام الأساسية .

٢ ــ **التضامن والتماسك** (Solidarity) :

لا يقوم المجتمع ــ كما أوضحنا ــ بدون روابط معينة تربط الأفراد والجماعات بعضهم بالبعض الآخر داخل المجتمع . ومن أهم تلك الروابط فى المجتمع ، « الرابطة الزواجية Conjugal » التى تقوم عليها الأسرة . وترجع أهمية تلك الروابط الأسرية الى أنها تنطوى على أسس بيولوجية ونفسية بالاضافة الى الأسس الاجتماعية . وبجوار تلك الروابط ، توجد الروابط القانونية وروابط الجوار والزمالة وما الى ذلك . وترجع قوة هـذه الروابط الى الأسس الاجتماعية التى تقوم عليها ، ومن هنا فاننا نستدل على بنـاء المجتمع أو « البنـاء الاجتماعى Social Structure » من معرفتنا لتلك الروابط .

وقد اسـتخدم الرسـول عليه أفضـل الصـلاة والسـلام مفهـوم

« البنـاء » بما يفيـد معنى « البنـاء الاجتماعى » فى مجال توضيحه للعـلاقات الاجتماعية التى تربط المجتمـع الاسـلامى ، مشـبها اياها بـ « البنيان المرصـوص » :

ـ « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشـد بعضـه بعضـا » .

(رواه البخارى ومسلم)

ـ « مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسـد الواحد ، اذا اشـتكى منه عضو تداعى له سـائر الجسد بالسهر والحمى » .

(رواه البخارى ومسلم)

ويلاحظ أن البناء الاجتماعى بالمعنى الاسـلامى له جانبان : أحدهما ثابت لا يتغير باعتباره بمثابة الوعاء الضرورى للحفاظ على صـورة التنظيم الأسـاسى للمجتمع الانسـانى ، وقـد اشـار اليه القرآن الكريم بقوله تعالى : « **يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا** .. » . (الحجرات : ١٣)

وذلك ليكفل للبناء الاجتماعى الاستمرار والاطراد والثبات . وثانيهما هو الجانب المتغير الذى يتجسـد فى شـكل العلاقات الاجتماعية مثل : المؤمن وغير المؤمن ، والمتزوج والعزب .. الخ . وهنـا تظهر بوضـوح سـمات البناء الاجتماعى ، اذ يمكن بالرجوع الى التاريخ الاسلامى التعرف على الأمم السـابقة وكيف انهار بناؤها الاجتماعى نتيجة عـدم الاطراد الايجابى للعلاقات الاجتماعية ، وذلك بانتشار عادات سـيئة تخالف الأوضـاع الطبيعية الملائمة لحياة الانسـان فى المجتمع .

واذا أخـذنا مجتمعا أبسـط مثل القبيلة ، فاننا نجـد التضـامن يقوم فيها على روابط الدم ، فتعتبر القبيلة أكثر التحاما ، وتنمو روابط القرابة التى تؤدى الى زيادة «التماسـك الاجتماعى Social Cohesion » الذى يربط بين الأفراد والقبـائل ويزيد من قوتها . وقد رأينا أن القبائل العربية فى صـدر الاسلام استطاعت ـ بتضـامنها ـ أن تنتصر على قوى

الفرنجة الأكثر عددا وعتادا ، نتيجة التضامن والتماسك الاجتماعى وقوة العقيدة الاسلامية .

***

مفهوم المجتمع الاسلامى

المجتمع فى الاسلام مجتمع معنوى ، أى أن العلاقات الاجتماعية فيه بنيت على أساس القيم الانسانية من مودة ورحمة ، لا على أساس من العلاقات المادية فقط ، لذلك يقول الرسول ﷺ : « مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم ، كمثل الجسد اذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » . ولا شك أن العلاقات المعنوية التى تقوم على المودة والرحمة هى التى يقوم عليها بنيان الجماعات الانسانية ، وهى الروابط التى تربط أفراد الناس بعضهم بالبعض الآخر .. أما المجتمع المادى الذى يبنى على الاقتصاد أو على الاجتماع فى مكان ، فانه كمثل الأحجار المتراصة التى يجاور بعضها بعضا من غير ارتباط وثيق بين أجزائها ، ولا يمكن أن يكون متلاحما متصلا ، ولا يستمر مجتمعا ثابتا مستقرا ، الا اذا كان مهندس البناء قائما عليه يتتبع ثغراته ، فيسارع بسد ما يظهر منها بعمل مادى قد يكون قوة غالبة على الارادات الانسانية الحرة .

أما المجتمع المعنوى فانه يقوم على أساس من العلاقات الروحية التى تربط بين أجزائه ، وهو متماسك غير قابل لأن تتداعى لبناته ، لأنه مترابط الأجزاء بما لا يقبل الانقطاع ما دام يغذى بالروح وبالدين .. لذلك كان كل نظام وضعه الاسلام بالقرآن أو السنة النبوية ، يقوم أساسا على التوجيه الدينى الذى يغذى نفوس الأفراد لتجتمع ، ونفوس الجماعات لتأتلف ، ونفوس الحكام ليعدلوا فى دولتهم وليعدلوا مع غيرهم وليعاملوهم بالمثل فى دائرة التقوى والفضيلة .

وقد عمل الاسلام على اقامة ذلك المجتمع الفاضل فى كل الأرض ، لأنه دين عام يخاطب الانسانية كلها .. وكان من ذلك محاربته للأوهام

وللأخيلة الفاسدة ، كما كانت دعوته الى الوحدة الانسانية العامة لايجاد مجتمع فاضل ، وكان منها دعوته العامة للانسانية ثم كانت شريعته العادلة .. بيد أنه لا بد من تربية للنفوس ، وتربية للجماعات ، **ليتكون** من ذلك **الاجتماع** الانسانى مجتمع متآلف متحاب **غير متنافر أو** متباغض .

وان التربية الروحية تقوم على تربية الضمير ليكون صاحبه مؤتلفا مع الجماعة ملتقيا معها ويؤثرها على نفسه ، ويحب الناس لله ، ويكون مستجيبا بقول رسول الله ﷺ : « لا يؤمن أحدكم ، حتى يحب الشىء لا يحبه الا لله » ، ويكون ممن قال فيهم النبى ﷺ : « ان لله عبادا ما هم بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء لمكانهم من الله تعالى يوم القيامة » . قيل : ومن هم يا رسول الله ؟ قال : « قوم تحابوا بروح من الله على غير أرحام تربطهم ولا أموال يتعاطونها ، والله انهم لنور وانهم لعلى نور ، لا يحزنون اذا حزن الناس ولا يخافون اذا خاف الناس » : **« ألا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . الذين آمنوا وكانوا يتقون . لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، لا تبديل لكلمات الله ، ذلك هو الفوز العظيم » .** (يونس : ٦٢ ـ ٦٤)

ولقد كانت العبادات لتربية الضمير الانسانى حتى يأتلف المؤمن مع غيره ، ويرتبط به ارتباطا روحيا . وما كانت العبادات لحاجة الله تعالى اليها ، ولا لمجرد التقرب اليه سبحانه ، حتى يكون ذات التقرب ولو بظاهر من القول غرضا مقصودا .. وانما كانت العبادات لتربية الضمير الدينى اللوام عند ارتكاب معصية أو مقاربتها ، وللاحساس بالاطمئنان اذا كان متذكرا لله سبحانه وتعالى(٤) عملا بقوله الكريم : **« الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ، ألا بذكر الله تطمئن القلوب » .** (الرعد : ٢٨)

* * *

---

(٤) محمد أبو زهرة ، **المجتمع الانسانى فى ظل الاسلام** (ط ٢) . جدة : الدار السعودية للنشر والتوزيع ، ١٩٨١ ، ص ١٢١ ـ ١٢٤

الجماعة المسلمة هى الأفراد جميعا فى صلات بعضهم ببعض . ووجودهم كحقيقة مستمد من وجود الأفراد كحقائق قائمة . ولم يعرف القرآن الكريم فى أوامره ونواهيه ، وفى وصاياه العامة ، الجماعة المسلمة بعيدة عن المؤمنين أنفسهم .. بعيدة عن ذواتهم وأشخاصهم . يقول الله تعالى : « **الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور ..** » . (البقرة : ٢٥٧)

ولا شك أنه يقصد بالولاية هنا – التى تعنى التولى والتدبير والحماية – الجماعة المؤمنة ، ولكنه فى اعلانه هذه الولاية أعلنها لهذه الجماعة فى أفرادها بصيغة الجمع وهم «الذين آمنوا» . وكذلك عندما يوجه امرا أو نهيا عاما يوجهه الى المؤمنين فى صيغة الجمع ، كما فى قوله تعالى : « **واوفوا بعهد الله اذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ..** » . (النحل : ٩١)

وكذلك الشأن عندما يخبر عن حال عامة ، يخبر عنها مسندة الى الأفراد مجتمعين ، كما فى قوله تعالى : « **والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتانا واثما مبينا** » (الأحزاب : ٥٨)

واذا كانت الجماعة المسلمة هى الأفراد بعينهم وأشخاصهم – كانت علاقة الفرد بالجماعة ، هى نفسها علاقة فرد ببقية الأفراد الآخرين معه . فالفرد لم يلغ اذن ، وهو باق بكيانه الشخصى المستقل ، ووجوده كفرد وكوحدة مستقلة لم يمس ، وكل ما وجد له من الجماعة التى هو عضو فيها – أنه قد أضيفت اليه اعتبارات خاصة بحكم هذه الجماعة ، وهى اعتبارات الروابط المتبادلة بين كل فرد والآخرين معه فى الجماعة . وهى اعتبارات الواجبات التى تؤدى من قبل الفرد نحو الآخرين معه ،

والحقوق التى تعطى له من هؤلاء الآخرين معه • وعلى ذلك فالفرد جزء هام من كيان الجماعة ، ليس استقلاله فى التصرف استقلالا مطلقا ، وليست حريته مستقلة عن كيان الجماعة •

والفرد مع الأفراد الآخرين ، أو الفرد مع الجماعة ـ من وجهة نظر الاسلام ـ وحدة تتفاعل مع غيرها ، تأخذ وتعطى ، لها استقلال مقيد ، وحرية مقيدة • والفواصل التى تحدد استقلال الفرد فى الجماعة المسلمة فى التصرف والتملك على السواء هى الفواصل التى بين الحلال والحرام • والحلال بين والحرام بين • فالحلال هو ما يمثل النفع الفردى أو النفع العام ، وهو نفع الآخرين مع الفرد فى الجماعة • والحرام عكس ذلك ، فهو يمثل الضرر الفردى أو الضرر العام ، وهو ضرر الآخرين مع الفرد فى الجماعة • وعلى ذلك فالفرد محدود بحدود علاقته بالآخرين •• فان تجاوز فى تصرفه وتملكه دائرة النفع ، فتصرفه وتملكه عندئذ غير مشروع • وحينئذ يجب أن يرد الفرد الى دائرة النفع ، ويحال بينه وبين الاضرار بالآخرين اضرارا ماديا أو أدبيا • وهنا يأتى دور الحكومة والولاية العامة • وقد أوجب الاسلام على المؤمنين طاعة رسالته ، كما أوجب الاحتكام اليها عند النزاع والاختلاف(٥) قال تعالى : « **يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ، فان تنازعتم فى شىء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، ذلك خير وأحسن تأويلا** » • (النساء : ٥٩)

* * *

● وحدة الجماعة :

كل منا قد انتمى فى وقت أو آخر الى احدى الجماعات الخاملة ، كما اننا خبرنا بالمثل عضوية جماعات ذات أهداف واضحة ووسائل فعالة

---

(٥) محمد البهى ، **الاسلام فى حياة المسلم** ، مرجع سابق ، ص ٢٤٦ ـ ٢٤٨

لتحقيق هذه الأهداف • ويلمس الناس عادة هذه السمة من سمات عمل الجماعة ، فاذا كان للجماعة أهداف واضحة وكانت تسعى لتحقيق هذه الأهداف ، ازداد عادة الرضا الشخصى للأعضاء وارتفعت روحهم المعنوية •

واننا فى الغالب نحتاج الى معرفة العوامل التى تحدد فاعلية الجماعة ، وما يساعدنا على تدعيم وحدة الهدف فى الجماعة ويجعلها أكثر قدرة على تحقيق أهدافها • ويمكن تحديد العوامل المؤدية الى فاعلية الجماعة فى العناصر التالية :

١ ـ درجة وجود هدف واضح •

٢ ـ درجة نجاح الهدف الجماعى فى تعبئة طاقات الأعضاء للقيام بالنشاط الجمعى •

٣ ـ درجة الصراع بين الأعضاء فيما يختص بالهدف الذى ينبغى أن يوجه نواحى نشاط الجماعة •

٤ ـ درجة الصراع بين الأعضاء فيما يختص بالوسائل التى يجب أن تستخدمها الجماعة للوصول الى أهدافها •

٥ ـ درجة التنسيق بين أوجه نشاط مختلف الأعضاء على النحو الذى تستلزمه أعمال الجماعة •

٦ ـ مدى حصول الجماعة على الموارد المطلوبة ، سواء أكانت اقتصادية أو ثقافية أو غير ذلك(٦) •

* * *

● **الجماعة الاسلامية ذات هدف موحد :**

ان الجماعة لا تكون جماعة الا اذا اتحدت على هدف ، وتمثلت صورة هذا الهدف فى نفس كل فرد من أفرادها تمثلا واضحا ••

---

(٦) محمد طلعت عيسى ، مرجع سابق ، ص ١٣٠ ـ ١٣١

وبظهور الاســـلام قامت الجماعة الاسـلامية ، فأى شىء وحـد هـذه الجماعة ؟ أى هدف التف حوله ومن أجله المســلمون حتى صاروا جماعة معينة ؟ وما هى ايجابية الاســلام نحو وحدة الجماعة المسلمة ؟ ٠٠ ان وحدة الهدف فى الجماعة الاسلامية هى عبادة الله الواحــد ، قال تعالى فى كتــابه الكريم : « **ذلكم الله ربكم ، لا اله الا هو ، خالق كل شىء فاعبدوه ، وهو على كل شىء وكيل** » ٠ (الأنعام : ١٠٢)

وسبيل الله هو سبيل الوحدة اذن بين المسلمين ٠٠ فالله غاية الجماعة الاسلامية ، وسبيله هو السبيل لهذه الغاية ، قال تعالى : « **يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ٠ تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ، ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون** » ٠ (الصف : ١٠ – ١١)

السبيل الى الله ايمان وعمل ٠٠ ايمان بالله ورسوله ، وعمل بما جاء به الله ورسوله ٠٠ ايمان بالله ورسوله حتى يكون الله ورسوله أحب شىء لدى الفرد ، وعمل بما جاء به الله ورسوله حتى تكون الطاعــة لمــا جاء به الله ورسوله فوق رغبات النفس واغراء المــادة ٠

ان ايجابية الاســلام فى وحدة الجماعة عن طريق عبادة الله ٠٠ وهى ليست فحسب نصحا للأفراد بأن يعبدوا الله ، ولكن فى حملهم على أن يترجموا هذه العبادة لله فى سلوكهم(٧) ٠ قال تعالى :

● « **ومن الناس من يعبد الله على حرف ، فان أصابه خير اطمأن به ، وان اصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ، ذلك هو الخسران المبين** » ٠ (الحج : ١١)

● « **٠٠ ان الانسان ليطغى ٠ أن رآه استغنى** » ٠

(العلق : ٦ – ٧)

---

(٧) محمد البهى ، **الاسلام فى حياة المسلم** ، ص ٢٥٧

● « ان الانسان خلق هلوعا • اذا مسه الشر جزوعا • واذا مسه الخـير منوعا » •
(المعارج : ١٩ – ٢١)

● « واذا مس الانسان ضر دعا ربه منيبا اليه ثم اذا خوله نعمـة منـه نسى ما كان يدعوا اليه من قبل وجعـل لله أندادا ليضـل عن سـبيله •• »
(الزمر : ٨)

● « فاذا مس الانسان ضر دعانا ثم اذا خولناه نعمة منا قال انما أوتيته على علم ، بل هى فتنة ولكن أكثرهم لا يعلمون » •
(الزمر : ٤٩)

وما اكثر ما تستولى شهوات النفس على الانسان فاذا هـو منقاد لها ، اسـير فى قيد مطالبها ، لا يرى الحياة الا فى ظل هذا الأسر الذى الفه وركن اليه • ولم يدرك هذا الانسـان أنه خليفة لله على الأرض ، وانه بحكم هذه الخلافة هو خليفة على نفسه أولا ، وانه حاكم على نفسـه غير محكوم لها ، وانها قوة من القوى التى وهبها الله له ، وان عليه أن يسخرها لمـا فيه خيره فى دنياه وآخرته •

ان رسالة الاسلام هى رسالة توازن وانسـجام بين الأفـراد ، فـ « التوازن » أساس تكوين الجماعة الاسلامية •• وعبـادة المسلمين لله هى تنفيذ هذا التوازن والانسـجام • ولا شىء أدل على التوازن من « الايثار » ، كما أنه لا شىء أدل على عدم الانسجام من « الأثرة » (الأنانية) • وما أوجبه الاسـلام من عبادة وأحكام هو طريق التوازن ، وما حرمه ونهى عن فعله هو عدم الانسجام • فبين الانسان وأخيـه الانسان علاقات ، فاذا سيطر الايثار – على كل منهما فى تعامله مع الآخر كانت المحبة وكان التوازن ، واذا تغلبت الأثرة فى عـلاقاتهما كانت الكراهية والاحتكاك والصراع وعدم الانسجام بينهما •

ان الايثار مجاهدة وجهاد •• مجاهدة فى حمـل النفس على أن تدرك حـق غيرها فى المشـاركة فى الحياة ، وجهاد فى أن تعطى هـذا الحق عمليا لغيرها بصورة فيهـا وفـاء للوجود المشترك • فالايثـار هو

التغلب على تحكم النفس .. تغلب على طمعها ، وتغلب على حقدها .
واذا كان الايثار مجاهدة وجهادا ، فالنفس لا تقبل عليه الا اذا كانت لها غاية تتمثلها تمثلا واضحا وتسعد بادراكها ..

وسبيل الله هو سبيل الوحدة ، وسبيل القوة ، وسبيل البقاء . ولن يصل انسان ما الى الوحدة فى نفسه وفى جماعته ، والى القوة فى نفسه وفى جماعته ، الا بالتحكم فيما تدعو اليه نفسه من نزعات ، وفيما تطلب من عز وجاه متمثلا فى مال أو ولد ، قال تعالى : « **المال والبنون زينة الحياة الدنيا ، والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا** » . (الكهف : ٤٦)

***

● تماسك الجماعة :

من المشكلات الرئيسية التى تواجه من يحاولون فهم الجماعات والعمل معها على نحو فعال ، مشكلة الوقوف على كيفية تفسير الاختلافات الكبيرة فى « دوافع التجمع » التى تميز الجماعات بعضها عن البعض الآخر .. لماذا تكون المواظبة غير منتظمة فى جماعة ما بحيث يؤدى ذلك الى موتها ببطء فى حين تظل المواظبة وانواع النشاط وأساليب القيادة فى جماعة أخرى على مستوى عال من الانتظام ؟ ما الذى يجعل جماعة ما تبدو صحيحة وثابتة بصورة تجعل اعضاءها يؤدون عملا شاقا ، ويبذلون فى سبيلها تضحيات كبيرة ، ويكونون اشد اقبالا على تمجيد فضائلها وابراز محاسنها ، ويبدون أكثر سعادة حينما يكونون معا ، ويكونون أسرع فى التأثير على بعضهم بعضا ، وأسرع فى الاتفاق فيما بينهم .. من اعضاء منظمة أخرى لا حياة فيها ؟ هذه الأغراض وما اليها مما نلاحظه كل يوم ، ولكن لا يزال يعوزنا تفسير كامل لطبيعة تماسك الجماعة ومصادر هذا التماسك(٨) .

---

(٨) محمد طلعت عيسى ، **مرجع سابق** ، ص ٣٩

عندما نصف جماعة ما بأنها جماعة متماسكة فاننا نعنى بذلك أن تلك الجماعة يرتبط اعضاؤها بعضهم بالبعض الآخر ارتباطا وثيقا حول بعض الأمور المشتركة فيما بينهم ۰ وترجع اهمية تماسك الجماعة الى ما يعزى اليه من حيث تهيئة الجو الملائم لنمو روح الفريق ، وزيادة الرضا بين أعضاء الجماعة ، وتنمية الروح المعنوية للأعضاء واقتناعهم بأدوارهم فى الجماعة واستمرار احتفاظهم بعضويتها فى مواجهة المعوقات الداخلية والخارجية ۰ ويعتمد ارتباط الفرد بالجماعة بمجموعتين من العوامل :

الأولى : بعض خصائص الجماعة كأهدافها ، وتنظيمها ، ومركزها فى المجتمع المحلى ۰

الثانية : حاجة الشخص الى الانتماء ، والتقبل ، والأمن ، وغيرها من الأمور التى يمكن أن تكون الجماعات مجالا لتوفيرها(٩) ۰

وتتعدد العوامل التى تؤثر فى تماسك الجماعة أو تفككها ، كما تتداخل بعضها مع البعض الآخر ۰ وتتلخص هذه العوامل فى الآتى(١٠) :

١ ـ هدف الجماعة :

قد تتجمع الجماعة وتلتف حول هدف واحد أو عدة أهداف ، يتطلب كل منها توجيه بعض جهود أعضاء الجماعة نحو تحقيقه ۰ وكلما كان الهدف واضحا ومحددا فى المجال النفسى لأعضاء الجماعة كلما كان ادراكهم لذلك الهدف دقيقا واضحا ۰ ومن ناحية أخرى فان الجماعة ـ بحكم تعريفها ـ يجمعها أصلا هدف مشترك فيما بين أعضائها ۰ وما لم يجد كل عضو فى الجماعة أن تحقيق أهدافه الذاتية لا يتم الا من خلال تحقيق أهداف الجماعة ، فانه لن يبذل جهدا يذكر لتحقيق أهداف الجماعة ، ولن يشعر بانتماء قوى للجماعة ، وبالتالى

---

(٩) سيد عبد الحميد مرسى ، **العلوم السلوكية فى مجال الادارة والانتاج** ، مرجع سابق ، ص ٢٠٦

(١٠) **المرجع السابق** ، ص ٢٠٧ ـ ٢١١

فان تماسك الجماعة قد يتعرض لبعض العوامل التى تساعد على تفكك الجماعة .

وكلما كانت الجماعة ناجحة فى تحقيق أهدافها كلما أدى ذلك الى تماسك أعضائها . فنجاح الجماعة أو فشلها يعنى ضمنا نجاحها أو فشلها فى تحقيق الأهداف الذاتية لكل عضو فيها ، مما يمثل حافزا ايجابيا أو سلبيا للتمسك بعضوية الجماعة والانتماء اليها .

٢ ـ درجة التجانس بين أعضاء الجماعة :

يلعب التجانس دورا اساسيا فى ايجاد التقارب والتماسك بين أفراد الجماعة ، فكلما زاد التجانس زادت احتمالات التماسك فى الجماعة والعكس صحيح . ويرجع ذلك الى تزايد القدر المشترك من الأبعاد النفسية فيما بين الأعضاء .. فحيث ان مظهر التماسك فى الجماعة هو التزامها بمعايير سلوكية معينة خلال تعامل الأفراد بعضهم مع البعض الآخر ، ولما كانت أنماط السلوك ومعاييره تدور أساسا حول ايمان الأعضاء بقيم مشتركة ، فأن التجانس بين الأعضاء ـ وهو فى أساسه التفاف الأعضاء حول مجموعة معينة من القيم ـ لا بد وأن يؤدى فى النهاية الى زيادة التفاهم والتماسك فيما بينهم . وتمتد احتمالات التجانس لتشمل أبعادا مثل : الجنس ، والسن ، والمهنة ، والثقافة ، والمستوى الاقتصادى والاجتماعى ، والميول ، والعقيدة .

٣ ـ مكانة الجماعة بين الجماعات الأخرى :

كلما كانت الجماعة ذات مكانة مرموقة فى نظر الجماعات الأخرى ، كلما كان الانتساب اليها يكسب الفرد مكانة خاصة نتيجة انتمائه اليها ، بما يؤدى الى توحد الفرد مع الجماعة ، وبذلك يزداد تماسك الجماعة .

٤ ـ حجم الجماعة :

كلما ازداد حجم الجماعة كلما قلت احتمالات التعامل والتفاعل بين أفرادها وجها لوجه . ومن المعروف أن كفاية الاتصال بين أعضاء

الجماعة كفيلة بزيادة التفاهم المشـــترك وأدعى الى تقارب المجـــال الادراكى للأعضـــاء . ومن ناحية اخرى فان زيادة حجم الجماعة يتيح فرصـة أكبر لزيادة التباعد الاجتماعى والنفسى فيما بين اعضـــاء الجماعة ، ومن ثم تضعف القوى التى تعمل على تماسك الجماعـــة وتزداد آثار القوى التى تؤدى الى التفكك .

٥ ـ درجة استقرار العضوية فى الجماعة :

المقصود بذلك هو سرعة الانضمام والانفصال فى عضوية الجماعة . فالمـألوف ان يلتزم أعضـــاء الجماعة بمعايير وقيم معينة مشتركة للجماعة بحيث تصبح ممثلة فى معايير الفرد وقيمه الى درجة أن يعتبرها معاييره وقيمه الخاصـــة . ويســتغرق امتصاص الفرد لهذه القيم والمعايير بعض الوقت حتى تصبح جزءا من مكونات شخصيته . فانفصال بعض قدامى الأعضاء وانضمام اعضاء جدد يعنى حاجة الجماعة لمزيد من الوقت حتى يتعلم الأعضاء الجدد تلك القيم والمعايير لتعويض الجماعة عن الأعضـــاء الذين انفصلوا عنها . لهذا يلاحظ أن زيادة معدل الدوران فى عضـــوية الجماعة يمثل تهديدا لاســتمرار تماسك الجماعة ، مما يؤدى الى تفككها فى بعض الظروف .

٦ ـ نوع التعامل السائد بين الأفراد :

لمـــا كانت عضـــوية الفرد فى جماعة معينة تستلزم قيامه بأعبـــاء معينة ، ولمـــا كانت الأدوار المختلفة فى الجماعة الواحـــدة مترابطة ، فان نوع التعامل الذى يســود فيما بين الأعضاء له اثر كبير على درجة تماسك الجماعة . فاذا كان الطابع السائد للتعامل السائد بين الأعضاء هو التنافس ، فان أثر ذلك على درجـــة تماسك الجماعـــة يختلف تماما عما اذا كان الطابع السائد للتعامل هو التعـــاون . وعلى ذلك فكثيرا ما تكون طبيعة العمل المشترك الذى تؤديه الجماعة ، وما يفرضـــه ذلك على نمط العلاقات الســائدة بين أفرادها ، ســـببا فى زيادة التماســـك أو التفكك بين الأعضـــاء ، كنتيجة طبيعيـــة لنوع العلاقات الســائدة بين الأعضـــاء .

٧ ـ الضغوط الخارجيــة :

لمـا كان اســاس تكوين الجماعة هو القيام بعمل مشترك ، ولمـا كانت المحافظة على البقاء هى احدى الوظائف الأســاسية للجماعة ، لذلك فان تعرض الجماعة لظروف او ضغوط خارجيـــة مهددة يؤدى الى زيادة التماسك بين الأعضــاء ٠ وكلما ادرك الفرد أن اشــباع حاجاته وتحقيقها مرتبط ببقاء الجماعة ، وان بقاء الجماعة مهدد من خارجها ، كلما ازداد تماسك أعضــاء الجماعة ٠

٨ ـ توافق متطلبات الجماعة مع امكانات الفرد :

لمـا كان قيام الفرد باعباء دوره ومتطلباته فى الجماعة يستلزم منه بذل جهود معينة ، فان تناسب ما يقوم به من اعبـــاء مع قدراته وامكاناته شرط أســاسى لاحتفاظه بعضوية الجماعة ٠ وفى حالة ما اذا كانت تلك المتطلبات تشــكل خبرات غير سارة أو عبئا ينوء الفرد عن تحمله وتعجز امكاناته عن الوفاء بها ، فان استمراره فى عضوية الجماعة يشــعره دائما بالاحباط والفشــل ولا يغريه على الاحتفاظ بعضـــوية الجمـــاعة ٠

٩ ـ مدى شعور الفرد بعدالة ما تفرضه عليه الجماعة :

تتمثل عدالة ما تفرضه الجماعة على الفرد فى ناحيتين اساسيتين : الأولى ، عدالة ما تفرضه الجماعة على العضو من أعباء بالنســبة لمــا تمنحه له من حوافز ، والثانية ، عدالة ما تفرضه عليه الجماعة بالنســبة لمــا تفرضه على غيره من الأعضاء ٠٠ ففى الظروف العادية بالنسبة للفرد تزداد جاذبية الجماعة للفرد وبالتالى تمسكه بعضويتها وانتمائه اليها ، كلما ازداد احساسه بعدالة الجماعة فى هــذه النواحى ٠

والخلاصــة : أن تماسك الجماعة يمكن أن يزداد كلما أتيحت فرص افضل لاشــباع حاجات الأفراد ٠ وسوف تزداد جاذبية الجماعة كلمــا تمكنت من أن تهيىء لأعضائها درجــة افضل من المكانة والقبــول وان تهيىء فرص قيام علاقات تعاونية وتفاعل على درجة أعلى من الحرية ٠

ويمكن أن يؤدى الهجوم الخارجى الى جعل الجماعة أكثر تماسكا ٠ ومن الواضح أن التماسك لا يزداد ـ عندما تتعرض الجماعة للهجوم ـ الا اذا كانت الجماعة تعتبر مصدرا للشعور بالأمن ٠ وعندما يظهر الجمهور الخارجى تقديرا مناسبا للجماعة فمن الواضح أنها تزداد تماسكا ، وينشأ هذا عن ادراك أعضاء الجماعة بأن العضوية تسهم فى رفع المكانة الشخصية لأعضائها ٠٠

ويبدو أن ميزان القوى التى تؤدى الى تماسك الجماعة وتلك التى تؤدى الى تفككها فى تذبذب مستمر ٠ وعندما يتذبذب الميزان بدرجة كبيرة فان دوران العضوية سوف يكون كبيرا ، واذا كانت فاعلية الجماعة تشجع الجانب السلبى لغالبية الأعضاء فان الجماعة سوف تتفكك دون شك ٠

ولقد قامت الجماعة الاسلامية على الأسس الآتية :

١ ـ ان تتجه عبادتها الى معبود واحد ، قال تعالى : « **واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ٠٠** » ٠ (النساء : ٣٦)

٢ ـ أن تبقى فى سلام مع غيرها من الجماعات الأخرى ، قال تعالى : « **يا أيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان ، انه لكم عدو مبين** » ٠ (البقرة : ٢٠٨)

٣ ـ اذا هوجمت من جماعة أخرى يجب عليها الا تستكين لهذا الهجوم : « **وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ، ان الله لا يحب المعتدين** » ٠ (البقرة : ١٩٠)

واذا اعتدى عليها يجب أن ترد الاعتداء بمثله ، قال تعالى : « **٠٠ فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ، واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين** » ٠ (البقرة : ١٩٤)

هذه هى تعاليم الاسلام فى شأن قيام جماعة المسلمين فى علاقاتها

مع الجماعات الأخرى . ان ما أتى به الاسلام فى شأن تماسك الجماعة وبقائها صلبة قوية ، ينبثق اساسا من ذات الايمان بالله ، ويعود **اغلبه** الى الجانب الروحى فى الانسان(١١) .

فالايمان بالله ـ لا غيره ـ هو الذى ربط بين الفرد وأخيه فى الجماعة الاسلامية . وبناء على ذلك يجب الا يهجر المؤمن بولائه مؤمنا آخر معه ، ويتجاوز بهذا الولاء وهذا الاخلاص الى من هو عدو لهما معا . قال تعالى فى محكم كتابه : **« لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شىء الا أن تتقوا منهم تقاة ، ويحذركم الله نفسه ، والى الله المصير »** .

(آل عمران : ٢٨)

وتوضح هذه الآية الكريمة الى اى مدى حرص الاسلام على تماسك الجماعة الاسلامية وبقائها قوية ، بعد ان قامت واصبحت لها شخصيتها .. ان تجارب الأيام فى تاريخ البشرية تؤكد أن العامل النفسى فى حياة الفرد والجماعة اقوى من اى عامل آخر سواه . فاذا ضعفت نفس الفرد أو ضعف الترابط النفسى بينه وبين غيره من اعضاء الجماعة ، كان التلاشى والفناء للفرد نفسه وكانت القطيعة والعزلة بينه وبين غيره . وعلى العكس تبرز صورة الوجود والحياة واضحة لمن قويت نفسه ، وكذلك للجماعة التى قويت الصلات الروحية فيما بين افرادها .

وولاء المؤمن للمؤمن ـ الذى يدعو اليه القرآن الكريم هو اكثر من صلة نفسية وأكبر من شعور روحى متبادل قائم على التعاطف وعدم التنافر بين فرد وآخر . ان هذا الولاء هو الاخلاص فى العلاقة ، هو ايثار الصديق لصديقه ، هو الاحساس القوى بالكيان المشترك للاثنين معا .. وكل ما أتى به الاسلام فى آدابه ووصاياه الخلقية هو فى واقع

---

(١١) محمد البهى ، **الاسلام فى حياة المسلم** ، ص ٢٥٩ .

الأمر ذلك الولاء الذى عبر عنه فى صورة هى تعبير عن الواقع ، أو عما يجب أن يكون ، كما فى قوله تعـالى : « **والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ٠٠** » ٠ (التوبة : ٧١)

وكما عبر عنه فى الآية السابقة : « **لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ٠٠** » ٠ (آل عمران : ٢٨)

ان الجماعة الاسـلامية لم تقم بالأمس لتفنى اليوم أو غـدا ٠٠ ان قيامها كان نتيجة لرسالة من الله ، وكذلك بقاؤها وتماسكها ذو صلة قوية بالايمان ، قال تعالى : « **٠٠ ولينصرن الله من ينصره ، ان الله لقوى عزيز** » ٠ (الحج : ٤٠)

* * *

● **الشعور بالأمن والطمانينة :**

سكينة النفس ـ بلا ريب ـ هى الينبوع الأول للسعادة ٠٠ ولكن كيف السـبيل اليها اذا كانت شـيئا لا يثمره الذكاء ، ولا العلم ، ولا الصحة والقوة ، ولا المـال والغنى ، ولا الشـهرة والجاه ، ولا غير ذلك من نعم الحياة المـادية ؟

اننا نجيب مطمئنين : أن للسكينة مصدرا واحدا ـ وليس سواه ، هو الايمان بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر ، الايمان الصادق العميق ، الذى لا يكدره شك أو يفسده قلق أو نفاق ٠٠ هـذا ما يشهد به الواقع المـاثل ، وما أيده التاريخ الحافل ، وما يلمسه كل انسان مدرك بصير ٠٠ فى نفسه وفيمن حوله ٠

ولقد علمتنا الحياة أن اكثر الناس قلقا وضيقا واضطرابا ، وشعورا بالضياع ، هم المحرومون من نعمة الايمان واليقين ٠٠ ان حياتهم لا طعم لهـا ولا مذاق ، وان حفلت بالمـلذات ، لأنهم لا يدركون لهـا معنى ،

ولا يعرفون لهـا هدفا ، ولا يفقهون لهـا سرا ٠ فكيف يظفرون مع هـذا بسكينة النفس أو انشراح الصدر ؟

ان هـذه السكينة ثمرة من ثمار دوحة الايمان ، وشجرة التوحيد الطيبة التى « **تؤتى اكلها كل حين باذن ربها** » (ابراهيم : ٢٥) ٠٠ فهى نفحة من السماء ينزلها الله على قلوب المؤمنين ليثبتوا اذا اضطرب الناس ، ويرضوا اذا سخط الناس ، ويوقنوا اذا شك الناس ، ويصبروا اذا جزع الناس ، ويحلموا اذا طاش الناس ٠

هـذه السكينة هى التى عمرت قلب رسول الله ﷺ يوم الهجرة ، فلم يعره هم ولا حزن ، ولم يستبد به خوف ولا وجل ، ولم يخالج صدره شك ولا قلق ٠ قال تعالى : « ٠٠ **فقد نصره الله اذ اخرجه الذين كفروا ثانى اثنين اذ هما فى الغار اذ يقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا ، فانزل الله سكينته عليه ٠٠** » ٠ (التوبة : ٤٠)

هـذه السكينة روح من الله ونور ، يسكن اليه الخائف ، ويطمئن عنـده القلق ، ويسـتروح به المتعب ، ويقوى به الضعيف ، ويهتـدى به الحائر ٠

* * *

● **اسباب السكينة لدى المؤمن :**

قد يسـأل سائل : لمـاذا كان المؤمن اولى الناس بسـكينة النفس وطمأنينة القلب ، ولمـاذا لا يجد الانسان السـكينة فى العلم والثقـافة والفلسفة ، وفيما انتجه التقدم العلمى من وسـائل وادوات يسرت العيش وجملت الحيـاة ؟

والجواب عن ذلك يتلخص فى النقاط الآتيـة(١٢) :

---

(١٢) يوسف القرضاوى ، **الايمـان والحياة** (ط ٧) ٠ القاهرة : مكتبة وهبة ، ١٩٨٠ ، ص ٧٧ ـ ١٠٠

١ ـ استجابة المؤمن لنداء الفطرة :

ان أول أسباب السكينة لدى المؤمن أنه قد هدى الى فطرته التى فطره الله عليها ، وهى فطرة متسقة كل الاتساق مع فطرة الوجود الكبير كله ، فعاش المؤمن مع فطرته فى سلام ووئام · ان فى فطرة الانسان فراغا لا يملؤه علم أو ثقافة أو فلسفة ، وانما يملؤه الايمان بالله جل وعلا · وستظل الفطرة الانسانية تحس بالتوتر والجوع والظمأ ، حتى تجد طريقها الى الله ، وتؤمن به ، وتتوجه اليه ·· هناك تستريح من تعب ، وترتوى من ظمأ ، وتأمن من خوف ، هناك تحس بالهداية بعد الحيرة ، والاستقرار بعد التخبط ، والاطمئنان بعد القلق · ولقد قال ابن القيم فى كتابه « مدارج السالكين » :

« فى القلب شعث لا يلمه الا الاقبال على الله ·
وفيه وحشة لا يزيلها الا الأنس بالله ·
وفيه حزن لا يذهبه الا السرور بمعرفته ، وصدق معاملته ·
وفيه قلق لا يسكنه الا الاجتماع عليه ، والفرار اليه ·
وفيه نيران حسرات لا يطفئها الا الرضا بأمره ونهيه وقضائه ، ومعانقة الصبر على ذلك الى وقت لقائه ·
وفيه فاقة لا يسدها الا محبته والانابة اليه ، ودوام ذكره ، وصدق الاخلاص له ، ولو أعطى الدنيا وما فيها لم تسد تلك الفاقة أبدا » ·

* * *

٢ ـ اهتداء المؤمن الى سر وجوده :

ان فى أعماق كل انسان أصواتا خفية تناديه ، وأسئلة تلح عليه منتظرة الجواب الذى يذهب به القلق ، وتطمئن به النفس : « ما العالم ؟ ما الانسان ؟ من أين جاءا ؟ من صنعهما ؟ من يدبرهما ؟ كيف بدءا ؟ كيف ينتهيان ؟ ما الحياة ؟ ما الموت ؟ أى مستقبل ينتظرنا بعد هذه الحياة » ؟ ·· هذه الأسئلة التى الحت على الانسان منذ خلق ، وستظل تلح عليه الى أن تطوى صفحة الحياة ، لم تجد ـ ولن تجد ـ

لها أجوبة شـافية الا فى الدين • فالدين وحده هو الذى يحل عقدة الوجود الكبرى ، وهو المرجع الوحيد الذى يستطيع أن يجيبنا عن تلك الأسئلة بما يرضى الفطرة ، ويشفى الصدور •

والاسـلام ـ خاصة ـ خـير دين أجاب عن هـذه الأسئلة اجابة شـافية ، ترضى الفطرة النيرة والعقل السـليم ، **بل أعلن القرآن** الكريم ان هذا الدين هو الفطرة الأصيلة نفسها • قال تعالى : « **فأقم وجهك للدين حنيفا ، فطرة الله التى فطر الناس عليهـا ..** » •

(**الروم : ٣٠**)

تقول الفطرة والعقل : ان الناس لم يخلقوا من غير شىء ، ولم يخلقوا هم أنفسـهم ، ولم يخلقوا ما حولهم ، فيقول القرآن الكريم :

« **أم خلقوا من غير شىء أم هم الخالقون • أم خلقوا السموات والأرض ، بل لا يوقنون** » • (الطور : ٣٥ ـ ٣٦)

وتقول الفطرة والعقل : لا بد ـ اذن ـ من خالق لهـذا الانسان العجيب ، ولهـذا الكون العريض ، ولا بد أن يكون هـذا الخالق واسع العلم ، بالغ الحكمة ، نافذ المشـيئة ، عظيم المقدرة • يقول القرآن :

« **ذلكم اللـه ربكم خـالق كل شىء لا اله الا هـو ، فأنى تؤفكون • كذلك يؤفك الذين كانوا بآيات الله يجحدون • الله الذى جعـل لكم الأرض قرارا والسـماء بناء وصـوركم فأحسن صـوركم ورزقكم من الطيبات ، ذلكم الله ربكم ، فتبارك الله رب العالمين** » •

(**غافر : ٦٢ ـ ٦٤**)

وتقول الفطرة والعقل : ان هـذا الخالق الحكيم لا بد أن يكون وراء تنظيمه لهذا الكون ووضع الانسان فيه غاية وحكمة ، وتعالت حكمته ان يكون خلق هـذا كله عبثا • وأن لهذا الانسان فى الوجود رسالة ، وأن وراء هـذه الحياة الدنيا حياة أخرى هى الغاية واليها المنتهى ، يجزى فيها المحسن باحسانه والمسىء باساءته ، حتى لا يستوى الخبيث

والطيب ، وهـذا ما تقتضيه الحكمة • وأن لهذا الخالق العظيم ـ بحكم خلقه لعباده وأمدادهم بنعم لا تحصى ـ حقا عليهم : بأن يعرف فلا يجحد ، ويشكر فلا يكفر ، ويطاع فلا يعصى ، ويفرد بالعبادة فلا يشرك به • وفى هـذا المجال يقول القرآن الكريم :

● « **وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين • ما خلقناهما الا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون** » • (الدخان : ٣٨ ـ ٣٩)

● « **وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ، ذلك ظن الذين كفروا ، فويل للذين كفروا من النـار • ام نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض ام نجعل المتقين كالفجار** » •

(سورة ص : ٢٧ ـ ٢٨)

● « **افحسبتم انما خلقناكم عبثا وانكم الينا لا ترجعون** » •

(المؤمنون : ١١٥)

● « **يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون • الذى جعل لكم الأرض فراشـا والسـماء بناء وانزل من السـماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم ، فلا تجعلوا لله اندادا وأنتم تعلمون** » • (البقرة : ٢١ ـ ٢٢)

● « **الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شىء قـدير وان الله قـد أحاط بكـل شىء علما** » • (الطلاق : ١٢)

● « **وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون • ما اريد منهم من رزق وما أريد ان يطعمون** » • (الذاريات : ٥٦ ـ ٥٧)

❋ ❋ ❋

٣ ـ نجاة المؤمن من عذاب الحيرة والشك :

بهذا الايمان الواضح العميق ، سلم المؤمن من الشك والاضطراب ، واستراح من البلبلة والحيرة العقليـة والنفسـية ، حين عرف مبـدأه

ومصيره ، وغايته ومهمته .. بل عرف مبدأ الوجود كله وغايته وهـدفه ومنتهاه ، فانحلت عقدة الشـك من نفسـه ، وزالت علامات الاستفهام الكبيرة من حياته .

لقد عرف أن له ربا ـ هو رب كل شيء ـ **هو الذي خلقه فسواه** ، وكرمه وفضله ، وجعله في الأرض خليفة ، وكفل له رزقه ، وسخر له ما في السموات وما في الأرض ، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة .. فاطمأن الى ربه ، واعتصم بحبله ، فأوى بهذا الايمان الى ركن شـديد ، ولاذ بقرار مكين ، واستمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها .

وعرف المؤمن أنه لم يخلق في هـذه الحياة عبثا ، ولم يترك سـدى ، فبعث الله اليه رسله بالبينات ، هداة ومعلمين ، ليهتدى الناس الى الحق ، ويستبينوا معالم الطريق ، ويعرفوا ما يرضى الله فيتبعوه ، وما يسخطه فيتقوه . وعرف المؤمن أنه ليس غريبا على الكون الكبير من حوله أو معزولا عنه ، انه بايمانه لم يعد وحده . ان هـذا الكون كله معه . ففطرة هذا الكون هي الايمان .. هي التسبيح للرب الأعلى . الذي خلق فسوى ، والذي قدر فهدى . قال تعالى : « **تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن ، وان من شيء الا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم ، انه كان حليما غفورا** » . (الاسراء : ٤٤)

* * *

٤ ـ المؤمن يعيش في معية الله وفي صحبة النبيين والصديقين :

والمؤمن لا يعتريه ذلك المرض النفسي الوبيل ، الذي يفتك بالمحرومين من الايمـان ، ذلك هو مرض الاحساس بالوحدة المقلقة ، فيحس من يتعرض له أن الدنيـا مقفلة عليـه ، وأنه يعيش فريدا منعزلا ، وأي احساس أمر من هـذا الاحسـاس .. ويجمع المختصون على أن هـذا مرض نفسي شـديد ، لمـا يجلبه على صاحبه من عزلة وفقدان الثقة بمن حوله . والايمان القوى هو دواء ناجع لهذا المرض ، كما أنه خير وقاية

من شره • والمؤمن يعتقد ان الله معه حيثما كان • ان الله تعالى يقول في الحديث القدسى : « أنا عند ظن عبدى بى ، وانا معه اذا ذكرنى ، فان ذكرنى فى نفسه ، ذكرته فى نفسى ، وان ذكرنى فى ملأ ، ذكرته فى ملأ خير منهم ، وان تقرب الى شبرا ، تقربت اليه ذراعا ، وان تقرب الى ذراعا ، تقربت اليه باعا • وان أتانى يمشى ، أتيته هرولة » •

(رواه البخارى)

ويقول الله تعالى فى كتابه الكريم :

● **« ولله المشرق والمغرب ، فأينما تولوا فثم وجه الله ، ان الله واسـع عليم »** • (البقرة : ١١٥)

● **« وهو معكم اين ما كنتم ، والله بما تعملون بصير »** • (الحديد : ٤)

● **« •• اذ يقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا ، فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها •• »** • (التوبة : ٤٠)

والمؤمن لا يشعر أنه فى عزلة عن اخوانه المؤمنين • انهم يعيشون دائمـا فى ضميره ، ويحيون فى فكره ووجدانه •• فهو اذا صلى – ولو منفردا – تحدث باسمهم : « **اياك نعبد واياك نستعين** » ، واذا دعا كان دعاؤه باسمهم « **أهـدنا الصراط المسـتقيم** » ، ويقـول ما قال الصالحون : « ••• **ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان** •• » •

(الحشر : ١٠)

والمؤمن يشـعر بأنه يعيش بايمانه وعمله الصـالح مع الأنبياء والرسل ، ومع كل صديق وشـهيد وصالح من كل أمة وفى كل عصر ،

قال تعالى : « **ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين انعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وحسن أولئك رفيقا** » .
(النساء : ٦٩)

* * *

٥ ـ الرضا واليقين :

ان شعور الانسان بالرضا من اول أسباب السكينة والأمن والاستقرار النفسى ، التى هى سر السعادة . وفى الحديث الشريف : « من سعادة المرء استخارته ربه ، ورضاه بما قضى ، ومن شقاء المرء تركه الاستخارة وعدم رضاه بعد القضاء » . (رواه البزار)

فالرضا نعمة روحية جزيلة ، يصل اليها من قوى ايمانه بالله وحسن اتصاله به . وقد خاطب الله رسوله بقوله : « **فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ، ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى** » . (طه : ١٣٠)

وقال رسول الله ﷺ : « ذاق طعم الايمان من رضى بالله ربا ، وبالاسلام دينا ، وبمحمد رسولا » . (رواه أحمد ومسلم والترمذى)

فالمؤمن يشعر بنعمة الله عليه فى كل شىء حوله ، ويرى فى كل ذرة فى الأرض أو فى السماء منحة من الله له ، تيسر له معيشته ، وتعينه على القيام برسالته فى الحياة .. انه يرى نعمة الله فى هبوب الرياح ، وسير السحاب ، وتفجر الأنهار ، وبزوغ الشمس ، وطلوع الفجر ، وضياء النهار ، وظلام الليل ، وتسخير الدواب ، وانبات النبات . قال تعالى :

● « **ألم تروا ان الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض واسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ..** » (لقمان : ٢٠)

● « **الله الذى سخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون • وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعا منه ، ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون** » •

(الجاثية : ١٢ ـ ١٣)

● « **وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون • وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون • ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم ، أفلا يشكرون • سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون** » •

(يس : ٣٣ ـ ٣٦)

● « **أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما فهم لها مالكون • وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون • ولهم فيها منافع ومشارب ، أفلا يشكرون** » • (يس : ٧١ ـ ٧٣)

● « **وهو الذى جعل لكم الليل لباسا والنوم سباتا وجعل النهار نشورا • وهو الذى أرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته ، وانزلنا من السماء ماء طهورا • لنحيى به بلدة ميتا ونسقيه مما خلقنا أنعاما وأناسى كثيرا** » • (الفرقان : ٤٧ ـ ٤٩)

وهكذا يرى المؤمن ـ بتوجيه كتاب الله له ـ آثار رحمة الله ونعمته فى كل شيء حوله ، أما نعمة الله عليه فى شخصه فما اعظمها وما أغزرها • فأولها : نعمة الخلق ، وثانيها : نعمة الانسانية ، وثالثها : نعمة العلم والادراك ، ورابعها : نعمة البيان اللفظى والخطى ، وخامسها : نعمة الرزق ، وسادسها : نعمة الايمان والهداية الى صراط الله المستقيم ، وسابعها : نعمة الأخوة والمحبة •• وهذا على سبيل المثال لا الحصر •

وتتفق جميع المدارس الفكرية للعلاج النفسى على أن القلق هو السبب الرئيسى فى نشوء أعراض الأمراض النفسية ، ولكنها تختلف فيما بينها فى تحديد العوامل التى تسبب القلق • وتتفق هذه المدارس

أيضا على أن الهدف الرئيسى للعلاج النفسى هو التخلص من القلق ، وبث الشعور بالأمن فى نفس الانسان ، ولكنها تتبع لتحقيق هذا الهدف أساليب علاجية مختلفة .

وتمدنا دراستنا لتاريخ الدين الاسلامى بأدلة عن نجاح الايمان بالله فى شفاء النفس من أمراضها ، وتحقيق الشعور بالأمن والطمأنينة والوقاية من الشعور بالقلق وما ينشأ عنه من أمراض نفسية . ومما هو جدير بالملاحظة أن العلاج يتدخل عادة بعد حدوث الاصابة بالمرض النفسى ، أما الايمان بالله اذا ما بث فى نفس الانسان منذ نعومة أظفاره ، فانه يكسبه مناعة ووقاية من الأمراض النفسية(١٣) . وقد وصف القرآن الكريم ما يحدثه الايمان من أمن وطمأنينة فى نفس المؤمن بقوله :

● « الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون » . (الأنعام : ٨٢)

● « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ، ألا بذكر الله تطمئن القلوب » . (الرعد : ٢٨)

● « ما أصاب من مصيبة الا باذن الله ، ومن يؤمن بالله يهد قلبه ، والله بكل شىء عليم » . (التغابن : ١١)

● « بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » . (البقرة : ١١٢)

● « ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون » .
(فصلت : ٣٠)

***

---

(١٣) محمد عثمان نجاتى . القرآن وعلم النفس . ص ٢٤١ – ٢٤٢

مقومات المجتمع الاســـلامى

لقد قام المجتمع الاســـلامى منذ نشـــأته على عدة مقومات أساسـية تتلخص فى الآتى(١٤) :

١ ـ المجتمع الاسلامى قام على الايمان بالمثل والدفع الذاتى الى تحقيقهـــا :

لقد قام المجتمع الاســـلامى منـــذ اللحظة الأولى للدعوة الاســـلامية على الايمان بالله الواحـــد القهار ، والايمان بالمثل العليـــا فى حيـــاة الانسان • ان الايمان هو الحافز على الســـلوك المستقيم للأفراد ، وعلى حســـن العلاقات والمودة فيما بينهم • وليس هنـــاك مجتمع انســـانى قائم دون أن يكون بين أفراده هـــدف مشـــترك ، أو حســـن علاقة وترابط فى ســـبيل تحقيق هـــذا الهدف المشـــترك •• ان نضـــال المســـلمين فى سبيل دعوة التوحيـــد وكفاحهم المرير ضـــد الشرك فى بداية ظهور الاســـلام ، يوضح الى اى مدى قيمة الايمان بالله وحده كهدف مشـــترك بين المسلمين الذين آمنوا بدعوة الرســـول عليه الصـــلاة والســـلام ـ منذ أن دعا الى الاســـلام سرا ثم جهرا بعـــد ذلك ـ كمـــا يوضح الى أى مدى لا يحتاج المؤمنـــون الى دفع خارجى عن ذواتهم نحو العمل بما يحقق نتائج هـــذا الايمان فى حيـــاة الانســـان ســـواء بمفرده أو فى جماعة •

ان الايمان بالله وحـــده هو أســـاس قيـــام المجتمع الاســـلامى فى ماضيه وحاضره ، وعن هـــذا الايمان تتحقق أهـــداف المجتمع الاســـلامى من قوة الترابط وحســـن العلاقات بين الأفراد ، وحسن الاستعداد للدفاع عن الحق والقيم والمثل العليـــا • وان وظيفة فروض العبادات هى تأكيد هـــذا الايمان من جانب ، وتحقيق المثل الانسانية فى حياة المجتمع الاسلامى

---

(١٤) محمد البهى ، الاسلام فى حياة المسلم ، مرجع ســـابق • باب ٣ ف ٤

من جانب آخر . وشـعارنا دائما ـ فى المـاضى والحاضر ـ لا اله الا الله ، محمد رسـول الله .

٢ ـ المجتمع الاسـلامى قام على أساس الاقرار بالوجود المشترك ورعاية الحرمات الفردية :

لا يتحقق مجتمع انسـانى على وجـه الأرض ، اذا ركز الأفراد تفكيرهم فيما يحفظ على كل فرد حياته الخاصـة وفيما يصـون وجـــوده الضرورى فحسـب . فلا يكون هنـــاك مجتمع انسـانى بحال من الأحوال ، اذا كان كل فرد يعتبر نفســه عالمـا مستقلا عن غيره ، يجول فيـه حرا طليقـا ، دون أن يرعى حيـاة هؤلاء الذين يشـاركونه فى الوجـود .. ان وجـود أى مجتمع بشرى معناه قيود والتزامات يتبادلها أفراده .. معناه واجبـات تؤدى ، وحقوق تؤخـذ ، معناه تبادل المعاونة فى السـلم ، والتكتل ضـد أى دخيـل أو خطر خارجى . وهنا يستلزم قيـام المجتمع الوعى بين الأفراد والوجود المشترك الذى يظلل حياتهم جميعـا .

والاســـلام ـ فى رسـالته ـ جاء ليوقظ فى نفوس المؤمنين الشعور بهذا الوجود المشـترك ، ووســيلته الى ذلك ان جعـل لكل فرد من المسـلمين حرمة تراعى ، وحدد له حقا يؤدى ، وفرض عليـه واجبـا يقوم به ازاء غيره . قال تعالى : « **قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ، الا تشركوا به شيئا ، وبالوالدين احسانا ، ولا تقتلوا أولادكم من املاق ، نحن نرزقكم واياهم ، ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق ، ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون . ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده ، وأوفوا الكيل والميزان بالقسط ، لا نكلف نفسا الا وسعها ، واذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى ، وبعهد الله أوفوا ، ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون** » .

(الأنعام : ١٥١ ـ ١٥٢)

ان هـذه الآيات الكريمة تحـدد معالم الوجود المشترك بين افراد المجتمع الاسـلامى ، وتجعل لكل فرد فيـه مكانه ، ووضعه ، ومأمنـه فى الحيـاة من ان يعتدى عليـه من غيره فى نفســـه ، او فى ماله ، او فى عرضـه ، او فى ان يســـقط حقه فى الحيـاة بسبب ضعفه لصغره او وهنـه بشـيخوخته ٠

٣ ـ المجتمع الاسـلامى قام على التعاون :

من الضرورى ـ لبقاء المجتمع الانســـانى ـ ان يكون هنـاك ميل واســـتعداد لدى الانســـان كى يســـاعد غيره فى المجتمع الذى يعيش فيـه مع اقرانه ، وان يقوى هـذا الميـل الى المعاونة فى نفس كل فرد بحيث يصبح ذا مظهر عملى فى حيـاة الأفراد ، بحيث ينشـأ بينهم التعاون وتظهر آثاره فى سـد حاجات الأفراد ٠٠ ولا تنحصر حاجـة الفرد فى حيـاته الى المـال او الى تيسـير العمـل له حتى يحصـل على المـال ليدبر به شـئونه ويشـبع حاجاته ٠ بل قـد تكون حاجتـه اشـد الى المعرفة او النصح والارشـــاد ، او الى دفع الأذى البـدنى او النفسى عنـه ، حتى لا تكون هنـــاك عقبة فى طريق ســـيره فى المجتمع ٠

ونظرا لأن التعاون له اثره الحيوى فى محافظة الانســان على حياته المـادية والمعنوية ، فقـد لقى رعاية من الاســـلام ، مما جعله مظهرا من مظاهر الامتنان التى امتن به الخالق سـبحانه على المجتمع الاسلامى بعـد قيـامه ٠ فيذكر القرآن الكريم هـذا المجتمع بنعمة التعاون التى انعم بها عليـه ، والتى بلغت مداها حتى اصبحت العلاقة بين افراده علاقة اخوة فى القلب والايمان وفى المحبة والمودة ، اى فى العـــلاقة الانسانية الخالصة ، فيقول تعالى : « **٠٠ واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم اعداء فالف بين قلوبكم فاصبحتم بنعمته اخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فانقذكم منها ، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون** » ٠

(آل عمران : ١٠٣)

ولكى يبقى التعاون ذا اثر حيوى فى المجتمع ، يجب ان يكون تعاونا فيما يؤدى الى الأخوة الانسانية ، والى صهر العلاقات بين الأفراد ، بحيث تكون علاقات مودة ومحبة ٠٠ فذلك هو التعاون فى سبيل المصلحة العامة ، وفى سبيل الخير ، الذى لا يتأتى الا اذا ضعفت روح الفردية وسيطرة الأنانية ، واصبح الشعور عند الفرد بحب الغير لا يقل عن الشعور بحب الذات ٠ ولذا كان من وصايا الرسول الكريم ﷺ : « لا يؤمن احدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » ٠ (متفق عليه)

وهى وصية قصد منها الرسول ﷺ ان يصفى النفوس من الحقد والكراهية والبغضاء ، حتى تكون بعد ذلك على استعداد لأن تتقبل الغير على نحو ما تتقبل نفسها فى الحياة ٠

٤ ـ المجتمع الاسلامى يقوم على رعاية الطبيعة البشرية للأفراد :

فالمجتمع الاسلامى ـ بانتسابه وانتمائه الى الاسلام ـ لم يخرج عن كونه مجتمعا بشريا يتكون من افراد لهم ميول واستعدادات وسمات فردية توحى بها طبائعهم ، ككائنات حية لها صفاتها الفطرية المختلفة ، بجانب ما تميزت به من قدرة على التفكير ٠٠ ودور الاسلام ازاء هذه الطبائع البشرية لا يتعدى حملها ـ عن طريق الاقناع والايمان ـ على ان تحقق فى حياتها الخير والسلام ٠ وعلى ذلك فان الاسلام يعترف بما لدى الأفراد من استعدادات وميول واهتمامات ، ولا يحاول ان ينكر واحدا منها او يتجاهله ٠ كما لا يحاول ان يعمل على افناء بعضها او محوها حتى لا تظهر فى الأجيال القادمة ، اذ لو حاول ذلك ، لكانت وظيفته تبديل خلق الله ، وليس ذلك من رسالة اى دين سماوى ، فضلا عن تكون رسالة الاسلام وهو دين الانسانية ٠

ولهذا يقر الاسلام ميل الانسان الى التملك ، وميله الى النسل ، وميله الى العلم والمعرفة ، وميله الى الاجتماع ٠ يقر الاسلام ميل الانسان الى حب الذات وكذا ميله الى مشاركة الغير مشاركة

وجدانية •• ومن هنـا لا يحرم الاســلام على الفرد الملكية الفردية ، على شرط الا تكون ملكيـة مســتغلة يتحكم عن طريقها فى غيره من الأفراد • وقـد ايقظ الاســلام فيه روح البذل لغيره ، وحبب اليه المنح والعطاء لصـاحب الحاجة • قال تعالى :

- « **يمحق الله الربا ويربى الصدقات ••** » (البقرة : ٢٧٦)
- « **•• وآتوهم من مال الله الذى آتاكم ••** » (النور : ٣٣)
- « **•• وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه ••** »

(الحديد : ٧)

- « **وفى اموالهم حق للسائل والمحروم** » • (الذاريات : ١٩)

وكذلك لا يحرم الاسلام على الفرد النســل والانجاب والذرية •• وانما يوجهه فحسب الى ان يكون تحقيق ذلك عن طريق شرعى هــو « الزواج » ، لا عن طريق آخر • لأن ذلك اكرم بالانســان واليق بالمنهج المســتقيم فى الحيـاة ، واحفظ لمســتوى الانســان ككائن له وحـدة شـعور بالمسـئولية ، وله وحدة شخصيته واستقلاله فيها ـ وان كان يدور فى اطار الحياة مع غيره فى مجتمعه • قال تعالى : « **ومن آياته ان خلق لكم من انفسكم ازواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة ••** » •

(الروم : ٢١)

وكما لا يحرم الاســلام على الفرد حق التملك وحق النســل ـ لأنهما من فطرته البشرية ـ فانه لا يحرم عليـه الاطلاع والبحث والتنقيب عن المعرفة وطلب العلم • ويوجهه فحسب الى أن يســتخدم علمه ومعرفته فى ســبيل الخير ، فى ســبيل البناء والتعمير ، فى ســبيل التعاون ، فى ســبيل دفع الأذى والمكروه ، فى ســبيل رفع مســتوى المعيشــة للانســان ، وفى ســبيل أمنه وســلامته بدنيا ونفسـيا ، وليس فى ســبيل التدمير أو التخريب أو الايذاء •• ومعرفة الانســان لا تكون خيرة الا اذا عرف فى النهاية بها ربه وآمن به عن طريقها ، وادرك بها

الكون وخالقه .. فعندئذ فقط يضمن ان يطيع الله فى توجيه ما حصله لمعرفة الكون وطاعة الخالق سبحانه . وعن ابى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من تعلم علما مما يبتغى به وجه الله ، لا يتعلمه الا ليصيب به عرضا (اى منفعة مادية) من الدنيا ، لم يجد عرف الجنة (اى الريح الطيبة) يوم القيامة » . (رواه احمد وابو داوود)

٥ ـ المجتمع الاسلامى ليس مجتمع طوائف او طبقات :

يقول الله تعالى فى كتابه الكريم : « **وان هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون** » . (الأنعام : ١٥٣)

بهذه الآية الكريمة يحرص الله جل شانه على أن يكون المجتمع الاسلامى ـ كما هو ذا غاية واحدة ـ ذا سبيل واحدة ، وذا طريق واحد الى هدف واحد . ويحذر المؤمنين من الفرقة التى تؤدى بالمجتمع الى طوائف ، وهى تلك الفرقة التى تجعل من الافهام للقرآن الكريم ولتعاليم الاسلام ، مذاهب يتعصب اليها التابعون لها ، ويؤثرون الطاعة لها على طاعة القرآن ذاته . وبذلك يتوزع المجتمع الى مجموعات .. كل مجموعة لا ترى الحق الا فيما تتبعه ، وتخاصم المجموعات الأخرى فى سبيل الدفاع عنه ، وعندئذ تكون طاعة كل مجموعة فى واقع الأمر هى الطاعة لانسان ، هو امام ذلك المذهب الذى تتبعه الطائفة . وحينئذ يتردى المجتمع وينزل الى مجال الشخص والمخاصمة فى أمره ، بعد أن رفع الاسلام المؤمنين به الى ما فوق مستوى الأشخاص .. الى المبادىء ، والى الله جل شأنه الذى هو مجمع كل كمال ، ومركز المثل الرفيعة كلها .

ونظرا لأن الاسلام يقر اختلاف الأفهام ، بل ويدفع الأفراد المؤمنين به الى الفهم والتفقه ، ولأنه من جانب آخر لا يقر الطائفية ولا الفرقة على أساس من اختلاف الفهم ، فانه رسم الطريق الى وحدة الأمة بقوله تعالى : « **اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولى الأمر منكم ،**

فان تنازعتم فى شىء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر .. » . (النساء : ٥٩)

فأوجب طاعة الله فى قرآنه ، وأوجب طاعة الرسول فى أقواله وفى افعاله مما يعد توضيحا لكتاب الله ، ثم علم أن سيكون حتما اختلاف فى فهم قول الله وقول رسوله ، ولكنه حذر أن يدخل هذا الاختلاف منطقة التنازع بينهم .

وعندما قامت الدعوة الاسلامية ، دعت الى تحرير الانسان من اثر العوامل التى أوجدت حواجز وفواصل بين الأفراد ، وخلقت منهم مجموعات وطبقات .. فانها دعت الى الغاء الاعتزاز بشرف النسب ، وثراء المال ، وسلطة الجاه ، ووضعت جميع المسلمين بالمجتمع وضعا متساويا أمام الله ، وأمام تعاليم رسالة الاسلام ، وهيأت لهم فرصا متكافئة للسعى فى الحياة . ويأتى تفاوتهم بعد ذلك حسبما تدفعهم استعداداتهم ويدفعهم ايمانهم قوة وضعفا .

ولذلك ، فالمجتمع الاسلامى ليس مجتمع طبقات .. أى ليس مجتمعا يقوم على تفاضل فى الوضع الاجتماعى حسب الطبقة التى ينتمى اليها الأفراد ، وليس مجتمعا يقوم على تحكم عنصر الشرف فى النسب أو عنصر الثراء أو عنصر الجاه . فكل ذلك عنصر غريب عن خصائص الانسانية ، بعيد كل البعد عن البشرية ذاتها فى تقييم الأفراد ، وفى وضعهم فى منازل مختلفة فى النظرة والاعتبار .. ولكن المجتمع الاسلامى أولا وأخيرا مجتمع بشرى انسانى ، يتميز أفراده بما تميزت به البشرية ذاتها بالسلوك المهذب القائم على الادراك المستقيم ، وبالقلب العامر بمحبة الغير ، وهو القلب الذى يؤمن أولا بالله .

لقد قرر الاسلام مبدأ المساواة الانسانية ، ومبدأ العدل

بين الجميع ، ثم ترك الباب مفتوحا للتفاضل بالجهد والعمل ، كما وضع فى الميزان قيما اخرى غير القيم الاقتصادية . قال تعالى :

- « .. ان اكرمكم عند الله اتقاكم .. » (الحجرات : ١٣)
- «.. يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين اوتوا العلم درجات ..» (المجادلة : ١١)
- « المال والبنون زينة الحياة الدنيا ، والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير املا » . (الكهف : ٤٦)
- «.. ان الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين». (غافر : ٦٠)
- « ساصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض .. » (الأعراف : ١٤٦)
- « فاذا نفخ فى الصور فلا انساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون . فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون . ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا انفسهم فى جهنم خالدون » . (المؤمنون : ١٠١ – ١٠٣)

– وقال رسول الله ﷺ : « قال الله عز وجل : العز ازارى ، والكبرياء ردائى ، فمن ينازعنى عذبته » . (رواه مسلم)

– وعن رسول الله ﷺ انه قال : « اذا كان يوم القيامة امر الله مناديا ينادى : الا انى جعلت نسبا ، وجعلتم نسبا . فجعلت اكرمكم اتقاكم ، فأبيتم الا أن تقولوا : فلان ابن فلان . فاليوم ارفع نسبى واضع انسابكم » . (رواه البيهقى)

***

المعاملات بين الأفراد فى المجتمع الصالح(١٥)

أولا ـ بين الجار وجاره والصديق وصديقه :

* من القرآن الكريم :

● « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، وبالوالدين احسانا وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم ٠٠ »
(النساء : ٣٦)

● « الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين » ٠
(الزخرف : ٦٧)

● « ويوم يعض الظالم على يديه يقول ياليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا ٠ يا ويلتى ليتنى لم اتخذ فلانا خليلا ٠ لقد اضلنى عن الذكر بعد اذ جاءنى ، وكان الشيطان للانسان خذولا » ٠ (الفرقان : ٢٧ ـ ٢٩)

* ومن الحديث النبوى الشريف :

ـ عن ابى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، فلا يؤذ جاره ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، فليكرم ضيفه ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، فليقل خيرا أو ليسكت » ٠ (متفق عليه)

ـ وعن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ :
« ما زال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه » ٠
(متفق عليه)

ـ « حق الجار ان مرض عدته ، وان مات شيعته ، وان افتقر اقرضته ، وان اصابه خير هنأته ، وان أصابته مصيبة عزيته ، ولا ترفع بناءك فوق بنائه فتسد عليه الريح ، ولا تؤذه بريح قدرك الا أن تغرف له منها » ٠ (رواه الطبرانى)

---

(١٥) عز الدين بليق ، مرجع سابق ، ص ٣٧٧ ـ ٤٢١

ـ « من أحب أن يحبه الله ورسوله فليصدق الحديث ، وليؤد الأمانة ، ولا يوذ جاره » (رواه البيهقى)

ـ « خير الأصحاب عند الله تعالى خيرهم لصاحبه ، وخير الجيران عند الله تعالى خيرهم لجاره » . (رواه الترمذى)

ـ « مثل الجليس الصالح كمثل صاحب المسك ان لم يصبك منه شيء اصابك من ريحه . ومثل الجليس السوء كمثل صاحب الكير ان لم يصبك من سواده أصابك من دخانه » (رواه أبو داوود)

* * *

ثانيا ـ بين العامل ورب العمل :

*** من القرآن الكريم :**

- **« .. ولا تعملون من عمل الا كنا عليكم شهودا .. »**
(يونس : ٦١)

- **« ولكل درجات مما عملوا ، وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون ».**
(الأحقاف : ١٩)

- **« .. فنعم أجر العاملين » . (الزمر : ٧٤)**

- **« وان لك لأجرا غير ممنون » . (القلم : ٣)**

- **« .. انا لا نضيع أجر من أحسن عملا » (الكهف : ٣٠)**

- **« ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم ، أفلا يشكرون » .**
(يس : ٣٥)

*** ومن الحديث النبوى الشريف :**

ـ « ان أشرف الكسب كسب الرجل من يده » . (رواه أحمد)

ـ « أعطوا الأجير أجره قبل أن يجف عرقه » .

(رواه ابن ماجه)

ـ « قال الله تعالى : ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة : رجل أعطى بى ثم غدر ، ورجل باع حرا فأكل ثمنه ، ورجل استأجر أجيرا فاستوفى منه ولم يعطه أجره » . (رواه البخارى)

ـ « ظلم الأجير أجره من الكبائر » (رواه أحمد)

* * *

ثالثا ـ بين البائع والمشترى والدائن والمدين :

* من القرآن الكريم :

● « يا أيها الذين آمنوا اذا تداينتم بدين الى أجل مسمى فاكتبوه ، وليكتب بينكم كاتب بالعدل ، ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله ، فليكتب وليملل الذى عليه الحق وليتق الله ربه ولا يبخس منه شيئا ، فان كان الذى عليه الحق سفيها أو ضعيفا أو لا يستطيع أن يمل هو فليملل وليه بالعدل ، واستشهدوا شهيدين من رجالكم ، فان لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل احداهما فتذكر احداهما الأخرى ، ولا يأب الشهداء اذا ما دعوا ، ولا تسأموا أن تكتبوه صغيرا أو كبيرا الى أجله ، ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا ، الا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح ألا تكتبوها ، وأشهدوا اذا تبايعتم ، ولا يضار كاتب ولا شهيد ، وان تفعلوا فانه فسوق بكم ، واتقوا الله ، ويعلمكم الله ، والله بكل شىء عليم » .

(البقرة : ٢٨٢)

● « .. وأحل الله البيع وحرم الربا .. » (البقرة : ٢٧٥)

● « يمحق الله الربا ويربى الصدقات .. » (البقرة : ٢٧٦)

● « يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل الا أن تكون تجارة عن تراض منكم .. » . (النساء : ٢٩)

● « والى مدين أخاهم شعيبا ، قال ياقوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره ، قد جاءتكم بينة من ربكم ، فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا

الناس أشياءهم ولا تفسدوا فى الأرض بعد اصلاحها ، ذلكم خير لكم أن كنتم مؤمنين » . (الأعراف : ٨٥)

● **« .. للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن .. »** (النساء : ٣٢)

❋ من الأحاديث النبوية :

ـ « التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء يوم القيامة » . (رواه الترمذى)

ـ « دع الناس يرزق بعضهم بعضا » . (رواه البيهقى)

ـ « عليكم بالتجارة فان فيها تسعة أعشار الرزق » . (رواه أحمد)

ـ « رحم الله رجلا سمحا اذا باع ، واذا أشترى ، واذا اقتضى » . (رواه البخارى)

ـ « من حمل علينا السلاح ، فليس منا ، ومن غشنا ، فليس منا » . (رواه مسلم)

ـ « من احتكر على المسلمين طعامهم ضربه الله بالافلاس والجذام » . (رواه أحمد وابن ماجه)

ـ « لا يحتكر الا خاطىء » . (رواه مسلم)

ـ « اياكم والدين فانه هم بالليل ومذلة بالنهار » . (رواه البيهقى)

ـ « رأيت على باب الجنة مكتوب : القرض بثمانية عشر والصدقة بعشر ، فقلت : ياجبريل : ما بال القرض اعظم أجرا ؟ قال : لأن صاحب القرض لا يأتيك الا وهو محتاج ، وربما وقعت الصدقة فى غنى » . (رواه الطبرانى)

ـ « نفس المؤمن معلقة بدينه حتى يقضى عنه » .

(رواه أحمد)

ـ « لا تخيفوا أنفسكم بعد أمنها ، قالوا : وما ذاك يارسول الله ؟ قال : الدين » . (رواه أحمد)

* * *

رابعا ـ التعاون على البر والتقوى :

* من القرآن الكريم :

● « .. وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الاثم والعدوان .. » . (المائدة : ٢)

● « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخوانا .. » .

(آل عمران : ١٠٣)

● « انما المؤمنون اخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون » . (الحجرات : ١٠)

● « ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات ، وأولئك لهم عذاب عظيم » . (آل عمران : ١٠٥)

● « وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم .. »

(الأنفال : ٤٦)

● « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله ، أولئك سيرحمهم الله ، ان الله عزيز حكيم » . (التوبة : ٧١)

* ومن الحديث النبوى الشريف :

ـ « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » .

(رواه البخارى ومسلم)

- « مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » .
(رواه البخارى ومسلم)

- « المؤمن مرآة المؤمن . والمؤمن اخو المؤمن ، يكف عليه ضيعته ويحوطه من ورائه » . (رواه أبو داوود)

- « انصر أخاك ظالما أو مظلوما ، ان كان ظالما فاردده وان كان مظلوما فانصره » . (رواه البخارى)

- « من جهز غازيا فى سبيل الله فقد غزا ، ومن خلف غازيا فى أهله بخير فقد غزا » . (متفق عليه)

- « ان لله عبادا اختصهم لحوائج الناس ، يفزع الناس اليهم فى حوائجهم ، أولئك الآمنون من عذاب الله » . (رواه الطبرانى)

- وعن على كرم الله وجهه قال : قال لى رسول الله ﷺ : « ياعلى . ان الله تعالى خلق المعروف ، وخلق له أهلا فحببه اليهم ، وحبب اليهم فعاله ، ووجه اليهم طلابه ، كما وجه فى الأرض الجدبة لتحيا به ، ويحيا به أهلها . ان أهل المعروف فى الدنيا هم أهل المعروف فى الآخرة » .

* * *

خامسا - النصيحة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر :

*** من القرآن الكريم :**

● « **ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون** » . (آل عمران : ١٠٤)

● « **كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ..** » . (آل عمران : ١١٠)

● « **لعن الذين كفروا من بنى اسرائيل على لسان داوود وعيسى ابن مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ، لبئس ما كانوا يفعلون** » . (المائدة : ٧٨ ، ٧٩)

● « فلما نسوا ما ذكروا به انجينا الذين ينهون عن السوء واخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون » . (الأعراف : ١٦٥)

● « والعصر . ان الانســان لفى خسر . الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » . (سورة العصر)

● « .. وما اريد ان اخالفكم الى ما انهاكم عنه ، ان أريد الا الاصلاح ما استطعت ، وما توفيقى الا بالله ، عليه توكلت واليه انيب » .
(هود : ٨٨)

❊ ومن الأحاديث النبوية الشريفة :

ـ « الدين النصيحة » . (رواه مسلم)

ـ عن جرير بن عبد الله رضى الله عنه قال : « بايعت رسول الله ﷺ على اقام الصلاه ، وايتاء الزكاة ، والنصح لكل مسلم » .
(متفق عليه)

ـ « من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فان لم يستطع فبلسانه ، فان لم يستطع فبقلبه وذلك اضعف الايمان » . (رواه مسلم)

ـ « الآمر بالمعروف كفاعله » . (رواه الديلمى)

ـ « والذى نفسى بيده لتأمرن بالمعروف ، ولتنهون عن المنكر ، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابا منه ، ثم تدعونه فلا يستجاب لكم » .
(رواه الترمذى)

ـ « افضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر » .
(رواه أبو داوود والترمذى)

ـ « لا ينبغى للرجل أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر حتى يكون فيه خصــال ثلاث : رفيق بما يأمر رفيــق بما ينهى ، عالم بما ينهى ، عدل فيما ينهى » . (رواه الديلمى)

ـ « يا ايها الناس مروا بالمعروف ، وانهوا عن المنكر قبل أن تدعوا الله فلا يستجيب لكم ، وقبل أن تستغفروه فلا يغفر لكم ، ان الأمر بالمعروف

لا يقرب أجلا ، وان الأحبار من اليهود والرهبان من النصارى لما تركوا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لعنهم الله على لسان أنبيائهم وعمهم البلاء » . (رواه الطبرانى)

ـ « اذا أراد الله بعبد خيرا جعل له واعظا من نفسه يأمره وينهاه » . (رواه الديلمى)

ـ عن أبى زيد أسامة بن زيد بن حارثة ، رضى الله عنهما ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى فى النار ، فتندلق أقتاب بطنه (أى أمعاؤه) فيدور بها كما يدور الحمار فى الرحا ، فيجتمع اليه أهل النار فيقولون : يافلان ، مالك ؟ ألم تك تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ؟ فيقول : بلى ، كنت آمر بالمعروف ولا آتيه ، وأنهى عن المنكر وآتيه » . (متفق عليه)

* * *

سادسا ـ الاصلاح بين المواطنين والمبادرة الى فعل الخيرات :

* من القرآن الكريم :

● « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، فان بغت احداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء الى أمر الله ، فان فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا ، ان الله يحب المقسطين . انما المؤمنون اخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون » . (الحجرات : ٩ ـ ١٠)

● « لا خير فى كثير من نجواهم الا من أمر بصدقة أو معروف أو اصلاح بين الناس ، ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضات الله فسوف نؤتيه أجرا عظيما » . (النساء : ١١٤)

● « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ، واعلموا ان الله شديد العقاب » . (الأنفال : ٢٥)

● « .. فاستبقوا الخيرات .. » . (البقرة : ١٤٨)

● « .. وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا .. » . (المزمل : ٢٠)

● « .. وما تنفقوا من خير فان الله به عليم » .

(البقرة : ٢٧٣)

● « .. وافعلوا الخير لعلكم تفلحون » . (الحج : ٧٧)

❊ ومن الحديث النبوى الشريف :

– عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « بادروا بالأعمال الصالحة فتنا كقطع الليل المظلم ، يصبح الرجل مؤمنا ويمسى كافرا ، ويمسى مؤمنا ويصبح كافرا ، يبيع دينه بعرض من الدنيا » .

(رواه مسلم)

– وعنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مر رجل بغصن شجرة على ظهر طريق ، فقال : والله لأنحين هـذا عن المسلمين لا يؤذيهم ، فأدخل الجنة » . (رواه مسلم)

❊ ❊ ❊

الفصل السادس

العمليات الاجتماعية

● التفاعل والعمليـة الاجتماعية :

لعل « التفاعل الاجتماعى Social Interaction » : » من أهم المصطلحات فى تعريف المجتمع ، ذلك ان أى نشــاط اجتماعى منظم « ظاهرة اجتماعية » فى المجتمع عبارة عن نتاج تفاعل اجتماعى فيما بين الأفراد أو الجماعات ٠ فعندما يكون المجتمع فى شــكل جماعات من الناس فى تفاعل مســتمر ، كل مع الآخر ، يصبح التفاعل من أهم المفاهيم الأساسية فى دراســة الحياة الاجتماعية ، وعلى ذلك فان حقيقة الحياة الاجتماعية ليست أكثر من الأسلوب الذى يتفاعل به الأفراد والجماعات ٠

ويمكن تعريف التفاعل الاجتماعى بأنه « مجموعة من الأفعال وردود الأفعـــال التى تصــــدر عن أفــراد الجمـــاعة فى موقف من المواقف الاجتماعية »(١) ٠ والتفاعل الاجتماعى بهذه الصــورة يؤدى الى تمايز تركيب الجماعة وتكوينها نظاميا ، بمعنى أن تفاعل الأفراد عمليا انما يؤدى الى ظهور الزعامات والقيادات داخل الجماعة ، ويؤدى كذلك بالتبعية الى اعادة تنظيم مجال الجمــاعة وفقا للقيادات التى ظهرت فيهــا ٠ ويؤدى تفاعل الأفراد الى ظهور المهارات الفردية الســلوكية والقدرات الاجتماعية التى يمكن أن تستفيد منها الجماعة ، وبالتالى يكون هناك تمايز وتنظيم فى تركيب الجماعة نتيجة لتفاعل أفرادها ٠

ويتحقق التفاعل الاجتماعى من خلال ثلاثة مواقف هى :

١ ــ **التفاعل وجها لوجه** (Face - to - Face) : أى بين فرد وآخر أو أفراد آخرين ٠

---

(١) زيدان عبد الباقى ، مرجع سابق ، ص ١٠٣

٢ ـ **التفاعل الداخلى** (Internal) : فالفرد يستطيع من الناحية النفسية أن يقيم داخل نفسه موقفا ما ، يؤثر فيه ويتأثر به ، أو يغير اتجاهه نحو نفسه أو نحو الآخرين .

٣ ـ **التفاعل عن طريق وسيط** (Madium) : وذلك مثل التفاعل بين المؤلف والقراء من خلال كتاب ، وبين القراء وأنفسهم حينما يتأثرون بالمؤلف . فان الوسيط هو « الكتاب » . وقد يزداد تأثير مثل هذا « الوسيط » ، فيتخذ شكل وسيلة اتصال جماهيرية (Mass Media) كالاذاعة والتليفزيون والصحافة والكتب والمطبوعات .. الخ . ولهذا فان التفاعل الذى يتحقق من خلال وسائل الاتصال الجماهيرية يمكن أن يؤثر على تفكير العديد من الناس ووجهات نظرهم من خلال تفاعلهم بعضهم مع البعض الآخر ، ولهذا يوصف « الاتصال الجماهيرى » بأنه من أعظم الظواهر الاجتماعية فى العصر الحديث .

تلك هى المواقف التى يتحقق فيها التفاعل الاجتماعى .. أما الأشكال أو العمليات الاجتماعية التى تتحقق من خلال التفاعل الاجتماعى ، فانه يمكن تناولها على الوجه التالى : ان العملية الاجتماعية عبارة عن « تفاعل » بين شخصين أو اكثر من خلال موقف اجتماعى مثل « الدراسة » ذلك الموقف الذى يدفع طالبين الى « التعاون » فى الاستذكار والدراسة ، أو الى « التنافس » أملا فى أن يفوز أحدهما بالمركز الأول بين الناجحين . وقد يتحول هذا التنافس بينهما الى « صراع » ، وعندما يشتد هذا الصراع بينهما ، فقد يتدخل شخص ـ زميل ثالث لهما ـ ويحاول « تلطيف الجو » بينهما ، فيتحول الصراع الى « تكيف اجتماعى » ، ثم ينتهى الأمر بأن « **يتمثل** » كل منهما مبادىء الطرف الآخر وأهدافه ، وبالتالى يصبح « الاتصال » بينهما ايجابيا . وترتيبا على ذلك يمكن القول ان « الموقف الاجتماعى » يمكن ان يؤدى الى عمليات اجتماعية متعددة ، تعتبر من أهم وسائل التغير الاجتماعى فى المجتمع .

ان طبيعة التفاعل الاجتماعى تحدد نوعية العمليات الاجتماعية ، وبالتالى تحدد الدور الذى يؤديه داخل الجماعة . وبذلك يصل بعض

الأفراد الى بؤرة التفاعل الاجتماعى أو الى مراكز قريبة منها ، ويصبحون هدفا للاستجابات الاجتماعية لبقية أفراد الجماعة ، سواء أكانت هذه الاستجابات موجبة أم سالبة . وقد نجد أحد أفراد الجماعة ـ أو أكثر ـ قد رضى العيش على هامش الحياة الاجتماعية للجماعة ، وأصبح بعيدا عن بؤرة التفاعل للجماعة ، ويوصف مثل هذا الفرد بأنه « هامشى Marginal » أو « منعزل Isolated » ، وقد تضطر الجماعة ، ازاء عدم تفاعله معها ، الى عزله فيوصف بأنه « معزول » . وقد يؤدى موقف مثل هذه الجماعة الى أن يشعر بعض افرادها بالأمن والطمأنينة فى علاقاتهم بالآخرين ، كما قد يؤدى الى معاناة الآخرين من القلق والاضطراب نتيجة للرفض الاجتماعى والنبذ والاحباط من باقى أفراد الجماعة .. واذا حللنا العمليات الاجتماعية من زاوية التنبيهات المتبادلة وكذلك الاستجابات بين الأفراد والجماعات ، نجد أن الأشكال الرئيسية للتفاعل هى : التعارض (ويشمل التنافس والصراع) ، والتعاون ، اما « الانعزال Isolation » فيمثل أدنى درجة ـ درجة الصفر ـ فى التفاعل الاجتماعى .

ـ ويتميز التفاعل الاجتماعى بعدة خصائص يمكن سردها فيما يأتى :

١ ـ التفاعل الاجتماعى يعتبر وسيلة الاتصال الأساسية بين افراد الجماعة ، اذ عن طريقه يتم التفاهم بين الأفراد فى سبيل حركة الجماعة .

٢ ـ يتميز التفاعل بين الأفراد « بالأداء والانجاز Performance » فهو العنصر الأول من عناصر التفاعل . فأداء الفرد فى الموقف الاجتماعى هو الذى يسبب الأداء الآخر (رد الفعل) ، وبالتالى ينشأ التفاعل .

٣ ـ يتميز التفاعل الاجتماعى الذى ينشأ بين افراد المجموعة « بالتوقع Expectation » ، لأن الفرد عندما يقوم بأداء معين فى محيط الجماعة فان لهذا الفرد عدة توقعات معينة .. فقد يتوقع الاستجابة أو الرفض من اعضاء الجماعة أو الثواب أو العقاب . ويكون توقعه قائما على خبرات سابقة أو القياس بالنسبة لأحداث مشابهة .

٤ ـ يقود التفاعل بين اعضاء الجماعة الى تمايز تركيب الجماعة وتكوينها تكوينا نظاميا . فتفاعل الأفراد عمليا أو لفظيا انما يؤدى الى

ظهور الزعامات والقيادات داخل الجماعة ، ويؤدى ـ تبعا لذلك ـ الى اعادة تنظيم مجال الجماعة تبعا للقيادات التى ظهرت فيها • ويؤدى تفاعل الأفراد كذلك الى ظهور المهارات الفردية السلوكية والقدرات الاجتماعية التى يمكن ان تستفيد بها الجماعة ، وبالتالى يكون هناك تمايز وتنظيم فى تركيب الجماعة نتيجة لتفاعل افرادها •

٥ ـ من شأن التفاعل الاجتماعى ان يعطى الجماعة الصفة الكلية ، بمعنى ان تصبح الجماعة اكبر من مجموع افرادها ، اذ يدخل فى الحساب نوع العلاقات السائدة وكميتها ودرجة شدة هذه العلاقات ممثلة فى معدل التفاعل • والواقع ان موضوع التفاعل وعلاقته بكلية الجماعة يثار حوله كثير من النقاش والجدل •• فهناك بعض الآراء تعتبر ان مجرد وجود مجموعة من الأفراد مع بعضهم البعض يمكن ان يسمى جماعة ، وهناك رأى آخر تؤيده البحوث وهو ان الشرط الأساسى فى قيام الجماعة هو « التفاعل الاجتماعى » الذى يعتبر مظهر الحياة داخل الجماعة •

٦ ـ التفاعل الاجتماعى داخل الجماعة يحدد السلوك الفردى للأشخاص ، كما يساعد على تمييز المحصلة العامة لاستجابات الأفراد فى المواقف الاجتماعية ، وبالتالى فان التفاعل الاجتماعى يحدد نمط السلوك لكل فرد فى الجماعة • وبالاضافة الى ذلك ، فانه يساعد على اتاحة الفرصة للأفراد كى يتميز كل منهم بشخصيته وفرديته بالنسبة للآخرين •

٧ ـ التفاعل الاجتماعى بين الأفراد يصدر نتيجة لاختلال تنظيم الطاقة فى المجال الاجتماعى للجماعة •• فان توتر هذا المجال هو أساس سلوك الأفراد واستجابتهم للأحداث القائمة التى يواجهونها • وكلما تقاربت القوى فى المجال ، قلت فروق الجهد وبالتالى اقترب التفاعل الاجتماعى من حالة الركود والسكون • وبمعنى آخر ، فان التفاعل الاجتماعى يكون نشطا كلما اختل توازن المجال الاجتماعى للجماعة(٢)

---

(٢) سعد عبد الرحمن ، أسس القياس النفسى الاجتماعى • القاهرة : مكتبة القاهرة الحديثة ، ١٩٦٧ ، ص ٧ ـ ١٠

تلك هى أهم الخصائص التى تميز التفاعل الاجتماعى الذى يمكن اعتباره الأساس الأول فى نشأة العلاقات البشرية وتطورها فى اى جماعة من الجماعات ·

ولما كانت القيم الاجتماعية تمثل المراكز النشطة فى النسق الاجتماعى النفسى لكل فرد ـ والذى يستقبل الأحداث بصورها المختلفة ، ثم يقوم بعملية انتاج السلوك الذى يؤدى بدوره الى تكوين العمليات الاجتماعية فى الجماعات ـ فان تلك القيم هى التى توجه سلوك الفرد فى حياته اليومية ·· وتنشأ القيمة الاجتماعية فى ابسط صورها فى مواقف المفاضلة والاختيار ، حيث يتحتم على الفرد أن يختار أحد حلين بقدر ما تسمح به استعداداته وامكانياته · وكلما ازدادت خبرة الفرد بمواقف المفاضلة ونمت ، زاد رصيده من القيم الاجتماعية التى تصقلها الأيام ، الى أن تتحول الى نسق يستطيع عن طريقه اصدار الأحكام على الأشياء والأحداث ·

وتعرف « القيم الاجتماعية Social Values » بأنها : « مجموعة من الاتجاهات الاجتماعية التى تكون فيما بينها نسقا شبه مقنن يستخدمه الفرد فى قياس المواقف الاجتماعية وتقديرها »(٣) · وبمقتضى هذا التعريف ، فان القيم الاجتماعية تتطور مع الأيام الى وحدات معيارية فى الضمير الاجتماعى لدى الانسان ، واثناء هذا التطور والنمو تتخذ القيم الاجتماعية صفة الثبات النسبى · ومن هنا تصبح القيم الاجتماعية ركنا اساسيا فى تكوين العمليات الاجتماعية ، وتحديد اشكالها (ايجابية أو سلبية) ، ذلك أن القيمة هى التى تنتج السلوك ، والسلوك (التفاعل الاجتماعى) هو الذى يؤدى الى تكوين شبكة من العمليات الاجتماعية ، وهذه الأخيرة تؤثر مرة أخرى فى تكوين القيم وتطويرها ·

وهناك اساس آخر لتكوين العمليات الاجتماعية ، الا وهو « قنوات الاتصال » بين افراد الجماعة ، وتقوم قنوات الاتصال هذه بتوصيل التفاعل من نقطة الى اخرى فى مجال الجهد الاجتماعى ، لربط تلك

---

(٣) المرجع السابق ، ص ١٠٤

النقاط بعضها بالبعض الآخر لتكوين شبكة من العمليات الاجتماعية فى الجماعة . واللغة ـ سواء اكانت منطوقة أو رمزية ، أو مكتوبة ، أو وسيلة سمعية أو بصرية ـ هى فى نفس الوقت التى تحدد نوع العمليات الاجتماعية وطبيعتها فى أى جماعة ، وعن طريق قنوات الاتصال هذه يمكن احداث الضغوط الاجتماعية المختلفة التى تؤثر على القيم السائدة ، وبالتالى يتأثر السلوك البشرى والتفاعل الاجتماعى ، فينتج نوع من العمليات الاجتماعية يتناسب مع الوسائل والضغوط . ومن هنا فان القيم تعتمد الى حد ما على الضغوط الاجتماعية التى تحدث عن طريق وسائل الاتصال الجمعى والفردى .

ونتيجة للأهمية الواضحة للعمليات الاجتماعية « كعمليات مترابطة Associative Processes » تؤدى الى التماسك والترابط فى المجتمع مثل : التعاون ، والتنافس ، والزواج .. الخ ، أو « كعمليات مفككة Dissociative Processes » تؤدى الى الاضطراب والفوضى مثل : الصراع ، والكراهية ، والطلاق .. الخ .. فقد كان لمثل هذه العمليات اهمية واضحة على النحو التالى :

أولا ـ التنشئة الاجتماعية (التطبيع الاجتماعى Socialization) :

الطفل الانسانى اكثر الكائنات عجزا واشدها ضعفا عند ولادته ؛ هذا اذا نظرنا الى قدراته الفعلية فى مواجهة الحياة . ولكن هذا العجز والضعف تقابله حساسية كبيرة للمؤثرات الخارجية ، ومرونة كبيرة تمكنه من اكتساب انماط سلوكية متعددة متباينة بحسب المواقف العديدة وخبرات الحياة المتنوعة التى يمر بها .. والطفل وحدة بيولوجية تكون جزءا متكاملا مع وحدة اكبر هى وحدة البيئة . واهم جوانب البيئة فى حياة الانسان وفى تكوين شخصيته هو الجانب الاجتماعى ، ويرجع هذا الى عجز الوليد الانسانى ـ كما ذكرنا ـ عند ولادته ولفترة طويلة نسبيا من حياته هى مرحلة الطفولة ، واعتماده فى مبدأ الأمر اعتمادا كليا على الكبار فى تربيته وتعليمه وتوجيه سلوكه تدريجيا ، كى يعنى بنفسه ، ويتشرب عادات مجتمعه وتقاليده ، ويتكيف لثقافته . ونستطيع أن نميز

عملية التطبيع الاجتماعى/التنشئة الاجتماعية بسمات ومعالم معينة نوجزها فيما يلى(٤) :

١ ـ أن سلوك الفرد يرتبط تدريجيا بالمعانى التى تتكون عنده عن المواقف التى يتفاعل فيها ٠

٢ ـ تتحدد هذه المعانى بالخبرات السابقة التى مر بها الفرد وعلاقة تلك الخبرات بالمواقف الراهنة ٠

٣ ـ أن الطفل يولد بين جماعة قد حددت فعلا معانى معظم المواقف العامة التى تواجهه ، وكونت لنفسها قواعد مناسبة للسلوك ازاءها ٠ ويتأثر الطفل بهذه المعانى منذ ولادته وتصاغ شخصيته فى مراحلها الأولى بحسب هذه المعانى التى تصبح جزءا من كيانه الشخصى بصفة عامة ٠

ويمكن أن نميز مراحل ثلاث يمر بها الطفل فى عملية التطبيع الاجتماعى(٥) :

ـ المرحلة الأولى :

يتعلم الطفل فى المرحلة الأولى من مراحل التنشئة الاجتماعية أن يتكيف لمطالب جسمه وحاجاته البيولوجية والظروف البيئية المحيطة ٠ وهو مضطر فى هذه المرحلة الى قبول المعانى التى حددها الكبار للمواقف التى يمر بها كما يظهر ذلك فى معاملتهم له ، ومعنى هذا أن الطفل يكيف نفسه لسلوك الكبار ٠ ولكن بالرغم من انه لا يقاوم سلوك الكبار فى هذه المرحلة بمقاومة ذات بال ، فان هذا لا يعنى أن الطفل سلبى تماما فى هذه المرحلة ٠٠ فالطفل يستجيب للمواقف المختلفة بكل حواسه ، وتتحدد بالتدريج بعض أنماطه السلوكية نتيجة لما يترتب على

---

(٤) نجيب اسكندر ابراهيم وآخرون ، **مرجع سابق** ، ص١٤٢ ـ ١٤٣
(٥) **المرجع السابق** ، ص ١٤٣ ـ ١٥٨

استجاباته من نتائج ، فيتعلم بالتدريج أن يستبعد بعض الأنماط السلوكية التى لا تؤدى الى نتيجة أو التى لا تؤدى الى اشباع حاجاته البيولوجية .

ويتعود الطفل بالتدريج أن يركز نشاطه نحو جوانب محورية فى المواقف التى يتفاعل معها ، ويتحدد سلوكه ويتركز نحوها ، وبذا يمر سلوكه فى عمليات تمايز (Differentiation) مستمرة . ويحدث هذا نتيجة عملية سلوك ادراكى نحو الجوانب المحورية فى المواقف التى يمر بها ، وتصبح هذه الجوانب بمثابة اشارات أو علامات يستجيب لها فى الموقف الكلى ، ويكرر استجابته لها بتكرار ظهورها . ويمكن القول انه بهذا الشكل يكون الطفل اتجاهات نحو الأشياء المحيطة به ، وتبدأ شخصيته فى التكوين والنمو .

ولكن عملية التطبيع الاجتماعى / التنشئة الاجتماعية لا تسير دائما سيرا هادئا منتظما ، فان الكبار لا يستطيعون دائما مراعاة التواصل (الاتصال) فى تمايز سلوك الطفل .. فاقتراب شخص كبير من الطفل قد يكون علامة على رفعه وحمله ، ولكن هذا قد لا يحدث . وقد يؤدى الى استجابات كثيرة منوعة يقوم بها الطفل مثل الصراخ أو الرفص برجليه أو غير ذلك ، وقد تنجح بعض هذه الاستجابات فى تحقيق أغراض الطفل وقد لا تنجح . ومعنى هذا أن الطفل يعانى صراعا فى استجاباته وأنماط سلوكه باستمرار ، وذلك بتغيير دلالات « العلامات » التى يستجيب لها .

ولكن حدة الصراع الذى يعانيه الطفل قد يبلغ مبلغا كبيرا ؛ وذلك عندما تكون عاداته قد تميزت واستقرت وقويت ، وبخاصة عندما تكون مرتبطة باشباع حاجاته البيولوجية ، ثم تتغير « العلامات » التى يستجيب لها الطفل تغيرا مفاجئا .. وهذا ما يحدث عند الفطام المفاجىء ، وبخاصة عندما تضع الأم على الثدى مادة مرة المذاق - مثل الصبار - بقصد ابعاد الطفل عنه . ونستطيع أن ندرك ما يتعرض له الطفل من صراع أليم .. فبعد أن كان ثدى الأم « علامة » على الرضاعة والاشباع والحضانة والراحة والارتباط بجسم الأم ، وبعد أن كانت توقعات الطفل

مرتبطة بهذه المعانى ، اذ بالموقف يتغير ، و « العلامة » تتغير وتصاب توقعات الطفل بالاحباط ، وتصبح ألما وحرمانا وبعدا عن الأم وعزلة عن مصدر الدفء والحضانة • فالطفل يقبل على الثدى ولكنه يحرم منه أو يصاب بألم واحباط قاسيين • ولذلك فان المتخصصين فى دراسة الطفولة والنمو النفسى ينصحون الأمهات بفطام الأطفال تدريجيا وبشكل يسمح للطفل بتعديل سلوكه ، دون التعرض لآلام الصراع الحاد الناتج عن الفطام المفاجىء •

واذا تعددت مواقف الصراع وزادت حدتها ، فان شخصية الطفل تعانى من ذلك ، وتبقى آثار الصراع وتصاحب شخصيته عندما يكبر ، وتظهر فى سلوكه • وقد أوضحت الدراسات الاكلينيكية أن كثيرا من الانحرافات التى تظهر فى الكبر ترجع الى ما يتعرض له الطفل من صراع حاد فى مرحلة الطفولة • وقد يحدث هذا نتيجة لتذبذب الكبار فى معاملة الطفل بالنسبة للموقف الواحد مما يعيق الطفل عن تكوين توقعات مستمرة بالنسبة « للعلامات » التى يستجيب لها ، فيتسم سلوكه بالتردد حيث يستدعى الموقف الواحد استجابات متباينة أو متناقضة فى نفس الوقت •

ومما يزيد المسألة سوءا أن الطفل لا يكون قد تعلم بعد التعبير عن نفسه لغويا ، ولهذا يعجز عن التفاهم مع الكبار أو توصيل رغباته اليهم • كما يعجز عن التفكير فى مشكلاته لافتقاره الى اللغة التى هى أداة التفكير ، ولذلك يكون سلوكه أو انحرافه فى الكبر لا شعوريا •

ـ المرحلة الثانية :

هذه المرحلة متصلة بالأولى ومتداخلة معها •• وأهم ما يميزها نمو الطفل الحركى، واكتسابه القدرة على الانتقال من مكان الى آخر مستقلا ـ نسبيا ـ عن الكبار • واستقلال الطفل فى حركته وتنقلاته يتطور تدريجيا (الحبو ـ الوقوف ـ السير البطىء المتعثر ـ السير بثبات ـ ثم الجرى) ، وبمكنه نموه فى هذا الاتجاه من التعامل مع الأشياء بدرجة أكبر من

الحرية وبعيدا ـ الى درجة ما ـ عن رقابة الكبار • فالطفل فى المرحلة السابقة قد تعلم مثلا أن يمسك بالأشياء التى توجد فى متناول يده أو تقدم له ويضعها فى فمه أو يأكلها أو يضرب بها الأرض ، وقد يسمع لها صوتا يستجيب له بأن يكرر سلوكه هذا ، ويعتاد تكرار مثل هذا السلوك • ويساعده فى هذا أن الكبار من حوله ييسرون له هذا العمل ويطربون له • أى أن الطفل يكتشف بالتدريج أنه قادر على أن يحدث أثرا واضحا فى البيئة المادية والاجتماعية المحيطة ، وقلما يمنعه الكبار عن هذا السلوك خاصة أنهم لا يقدمون اليه من الأشياء الا ما يعتقدون ألا خطر منها ولا ضرر • ولكنه بعد أن يصل فى نموه الى درجة تمكنه من الاستقلال النسبى عن الكبار فى التنقل بالحبو أو المشى مثلا ، فانه قد يمسك شيئا ما يجده على الأرض ويدخله فى فمه ، فاذا شاهده أحد الكبار منعه من ذلك وربما عاقبه بطريقة أو بأخرى اذا كرر هذا العمل وذلك لوقايته مما قد يتعرض له من اضرار •

ومعنى هذا أن كثيرا من عادات الأطفال وأفعالهم التلقائية فى هذه المرحلة تجد مقاومة من الكبار الذين يتدخلون لمنعه ، ويترتب على هذا حدوث الصراع بين الطفل وبين الكبار من حوله • وقد يتحول هذا الى صراع فى شخصية الطفل نتيجة للتناقض الذى يحدث فى معانى الأشياء على ضوء خبراته السابقة والمعانى التى ارتبطت بها الأشياء فى المرحلة الأولى من تطبيعه الاجتماعى ، أى حول العلامات التى كان يستجيب لها فى الماضى والمعانى الجديدة (العلامات الجديدة) التى يفرضها الكبار • وتتعدل معانى الأشياء بتغير توقعاته ، وتتمايز الأشياء والعلامات التى تحدد استجابات الطفل مما يؤدى الى تعديل سلوكه بحسب قيم الكبار وعاداتهم والمعانى التى حددوها للمواقف المختلفة التى يواجهها الطفل فى حياته اليومية •• ذلك أن الكبار فى البيت يعملون على أن يطبعوا الطفل وينشئوه بحسب قيمهم واتجاهاتهم ووفقا لآرائهم ومعتقداتهم فى أفضل الطرق لتربيته •

وهكذا يمر الطفل فى هذه المرحلة بمواقف متعددة تسبب له صراعا

يتفاوت خفة وشدة بما يؤدى الى تعديل معانى المواقف والعلامات التى يستجيب لها بناء على ما يترتب على سلوكه من عواقب • ويتعدل سلوكه بشكل أو بآخر ليتوافق مع حياته فى المرحلة الجديدة ، وتكتسب مواقف حياته معان جديدة ـ تختلف بطبيعة الحال من طفل الى آخر بحسب ظروف الأسرة وعاداتها وانماط سلوكها • ولكن الصراع قد يشتد نتيجة سوء معاملة الآباء ، أو عدم وعيهم بأساليب التربية ، أو بسبب متاعبهم ومشكلاتهم النفسية مما يسىء الى شخصية الطفل • وقد يتذبذب الآباء فى معاملة الطفل بالنسبة للمواقف الواحدة أو المتشابهة ، فيعجز الطفل عن تكوين معان مستقرة للسلوك • وقد ينجم عن هذا التذبذب فى معاملة الطفل انحرافات شديدة فى سلوكه ، كما أوضحت الدراسات الاكلينيكية • ومما يزيد من حدة الموقف ، أن الطفل فى هذه المرحلة ـ كما فى المرحلة السابقة ـ لا يكون قد تعلم استخدام اللغة بصورة تمكنه من التعبير عن نفسه ، ولهذا فقد تصبح دوافع سلوكه المنحرف مستقبلا لا شعورية •

ـ المرحلة الثالثة :

تمثل هذه المرحلة امتدادا للمرحلة السابقة وهى متداخلة معها ، وفيها يكتسب الطفل اتجاهات الكبار نحو المواقف الهامة فى حياته • فالطفل لا يستطيع أن يتوقع تصرفات الكبار حيال سلوكه ـ كالأم مثلا ـ ما لم تصبح اتجاهاتها جزءا من شخصيته ، أى أن معانى المواقف و « العلامات » التى يواجهها تتضمن المعانى التى ترتبط بتصرفات الأم حياله بالنسبة لسلوكه فى تلك المواقف أو بازاء تلك « العلامات » • وبالتدريج يعتاد الطفل أن يسلك بشكل عام فى غيبة الأم كما يسلك فى وجودها • ومفتاح هذه العملية هو « اللغة » • فالكلمات رموز أو « علامات » تشير الى أشياء فى مواقف معينة وتحمل معانى تلك الأشياء فى تلك المواقف • فاللغة سلوك لفظى يرتبط بمواقف واقعية يواجهها الطفل فى حياته اليومية ويسلك نحوها سلوكا معينا • ويمكن باستخدام اللغة نقل ما تحمله الألفاظ من معان من موقف الى آخر ، أى يمكن تعميمها وتعميم سلوك الطفل نحو المواقف المتشابهة •

ومعنى هـذا أن الكبار يسـتطيعون باسـتخدام السـلوك اللفظى (اللغـة) أن ينقلوا الى الطفل معانى المواقف المختلفة التى يواجهها فى حياته ، وتصبح اللغـة ذات أهمية كبرى وأثر بالغ فى توجيه الطفل وفى عملية تطبيعه الاجتماعى • فاستخدام الكبار للغـة ذات معان حسنة أو سـيئة عند الحديث عن أفراد معينين أو نحو اتجاه معين قد تكون عند الطفل اتجاهات ايجابية أو سلبية نحو أولئك الأفراد أو تلك الاتجاهات والمذاهب • وينسى الطفل فى غالب الأحيان الظروف التى اكتسب فيها تلك الاتجاهات ، ومع ذلك فان سلوكه يظل متأثرا بها ومعبرا عنها ، أى أن هـذه الاتجاهات قد تكون ذات دوافع شعورية أو لا شعورية • وبمثل هـذه الطريقة يتعلم الطفل قيم الأسرة واتجاهاتها ومعاييرها الخلقية والاجتماعية • كما يمكن أن ينمى الآباء على هـذا النحو اتجاهات الأطفال نحو أحداث مسـتقبلة بعيدة ، مثل اختيـار نوع من التعليم أو المهنـة او غير ذلك •

وتعلم الطفل اللغـة هو الوسيلة التى تساعده على تكوين « الذات Self » ، فاللغة هى الأداة الأساسية التى تساعد الطفل على اكتساب اتجاهات الآخرين ، وبخاصة الكبار ، وذلك بأن تتضمن « العلامات » التى يستجيب لها الطفل فى المواقف المختلفة سلوك الأشخاص الآخرين كالوالدين أو الاخوة ، وتصبح الكلمات التى يتعلمها الطفل بمثابة رموز أو « علامات » للسلوك تتضمن اتجاهات الآخرين عن الكبار خاصـة • ولكن الطفل لا يكتسب تلك الاتجاهات بشكل منظم الا عن طريق السلوك الواقعى فى مواقف حقيقية أو « وهمية Phantasy » •• فمن الملاحظ أن الطفل أثناء لعبه كثيرا ما يتقمص شخصية الأم أو الأب أو الأخ أو الأخت أو المعلم أو البائع المتجول أو رجل البوليس أو غيرهم من الأشـخاص الذين كان له احتكاك بهم أو تأثر بهم ويقوم بأدوارهم الاجتماعية فى لعبه الوهمى • وهو فى نشاطه هـذا يتكلم ويسلك بالشكل الذى خبره منهم ، وبهـذا الأسلوب فان الطفل يسـتدعى فى سلوكه وعند اللعب الرموز والعلامات التى تعبر عن اتجاهات الآخرين •

ونتيجة لهذه العملية قد يصبح كثير من الاتجاهات التى كونها الطفل شديدة التمكن من شخصيته ، ويتحدد سلوكه وينتظم تبعا لها • وينسى الطفل أنها اتجاهات أفراد آخرين ، وعلى هـذا تصبح اتجاهاته الخاصة ، فبدلا من أن يفكر فيما يتوقعه الآخرون منه ، فانه يتوقع من نفسه أن يصدر عنه السلوك المناسب فى المواقف التى يواجهها • وقد تصبح هـذه الأنماط السلوكية من القوة بحيث تبدو كأنها عادات « تلقائية » لا تتطلب من الطفل أن يفكر فى توقعات الغير منه •• أما فى المواقف التى لا يكون سلوك الطفل قد تحدد إزاءها بدرجة كافية ، أو عندما يتضمن الموقف بعض الجوانب الجـديدة ، فان الطفـل يصـبح « واعيا بذاته Self - Conscious » ، حيث يضطر الى تفهم اتجاهات الآخرين من خلال أنماط سلوكهم ، وتوقعاتهم منه ، وأن يحدد معنى الموقف – فى ضوء خبراته المـاضية – قبل أن يقوم بدوره فى الموقف الجديد •

مما تقـدم نستنتج أن الذات والشـخصية نتاج اجتماعى ، وأنهما يتشـكلان أصـلا ، وفى المقام الأول ، نتيجـة تفاعل الفرد فى البيئـة الاجتماعية الأولى التى ينشأ فيها الطفل وينمو ، ونعنى بذلك «الأسرة» • ولذلك نستطيع أن نرجع السمات الأساسية أو المعالم الأساسية للسـلوك الاجتماعى للفرد الى المرحلة الأولى من حياته ، والى علاقاته بأفراد أسرته ، واتجاهات هؤلاء الأفراد وأنماط سلوكهم •

ويحدد بعض الكتاب الأهداف الرئيسية لعملية التنشئة الاجتماعية فى أن يكتسب الفرد المعرفة والقدرة والرغبة فى النمو ويستوعبها تدريجيا من خلال التزامه بالقيم والمبادىء والمعايير التى تنطوى عليها الثقـافة السائدة فى المجتمع • ويتحقق ذلك من خلال عدة مراحل هى(٦) :

١ – المرحلة الانفرادية العشوائية الوقتية :

(Stage of Erratic and Ephemeral Individualism)

وهى تستمر طوال السنتين الأولى والثانية من عمر الطفل ، حيث

---

(٦) O. Brim, and S. Wheelers ; Socialization After Childhood. (N. Y. Wiley, 1966), p. 25.

يحاول خلالهما أن يفهم مظاهر الحياة ويعتبرها رموزا تمثل معانى معينة ، وان كان لا يستطيع التمييز بين الأشياء ، ويتعلم كيف يتحكم فى طلب الأشياء التى تمثل مصدر غذائه .

٢ ـ مرحلة التمركز حول الذات (Ego - Centric Stage) :

وتستمر من أواخر السنة الثانية الى الخامسة من عمر الطفل ، حيث يقوم فيها بالتشبه بالآخرين وتقليدهم ، بحيث يتحقق له من خلال ذلك الشعور بالسعادة وبالاستحسان الاجتماعى .

٣ ـ مرحلة التعاون الأولى (Stage of Incipient Cooperation) :

وتستمر ما بين السادسة والثامنة من عمر الطفل ، وفيها يبدأ فى اتباع القواعد السلوكية الاجتماعية فى مواقف محددة .

٤ ـ مرحلة تبنى الأنماط السلوكية الاجتماعية :

(Codification of Rules)

وهى المرحلة الأخيرة من مراحل التنشئة الاجتماعية ، وفيها يشرع الطفل فى اعتناق القواعد السلوكية والالتزام بها ، واعتبارها جزءا من شخصيته ، كما يدرك أن هذه القواعد لها وجودها الخارجى الذى يفرض نفسه على أفراد المجتمع ، باعتبارها ظاهرة اجتماعية .

* * *

● التنشئة الاجتماعية فى الاسلام :

لقد ضرب الرسول الكريم ﷺ أروع الأمثلة فى مجال التنشئة الاجتماعية ، كما بذل من صفاته الرائعة الكثير حتى يقف الناس على كل زوايا معانى الرسالة التى جاء بها ﷺ .. فقد كان خلقه القرآن الكريم ، كما كانت سجاياه الرحمة ، فهو الرحمة المهداة الى العالمين ، وصدق الله العظيم اذ يقول : « **وما أرسلناك الا رحمة للعالمين** » (الأنبياء : ١٠٧) . ولقد كان ﷺ يعرف للعلاقة الأبوية مكانتها التربوية وأثرها فى تنشئة الأطفال . وقد اشتهر بالحدب والعطف على الأطفال ، فقد روى

انه ﷺ مر ببيت فاطمة فسمع حسينا يبكى فقال لفاطمة : « الا تعلمين ان بكاءه يؤذينى » .

وقد عنى رسول الله ﷺ بالتنشئة الاجتماعية السليمة للشباب ، فكان يتعهده بالموعظة وينقنه المبادىء الصحيحة والأخلاق الكريمة ، تقديرا منه لرسالته وانه عماد الأمة وقوتها . وقد قال عليه الصلاة والسلام : « يا معشر الشباب .. من استطاع منكم الباءة (أى ما يستلزمه الزواج) فليتزوج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فانه له وجاء » (أى خصاء)(٧).
(متفق عليه)

***

● **الحقوق التربوية فى الاسلام :**

المقصود بالتربية اعداد الطفل بدنيا وعقليا وروحيا حتى يكون عضوا نافعا لنفسه ولأمته . ولقد اهتم الامام الغزالى بهذه الحقوق ، وأوجب ان تكون التربية من اول مراحل النمو والنشأة على النحو التالى(٨) :

الاعداد البدنى : تهيئة الطفل ليكون سليم الجسم قوى البنية ، قادرا على مواجهة الصعاب التى تعترضه ، بعيدا عن الأمراض والعلل التى تشل حركته وتعطل نشأته .

الاعداد العقلى : ان يهيا الطفل كى يكون سليم التفكير ، قادرا على النظر والتأمل ، يستطيع ان يفهم البيئة التى تحيط به ، ويحسن الحكم على الأشياء ، ويمكنه أن ينتفع بتجاربه وتجارب الآخرين .

الاعداد الروحى : بمعنى أن يكون الطفل جياش العواطف ، يتبسط للخير ويفرح به ويحرص عليه ، وينقبض عن الشر ويضيق به ويفر منه .

ـ وسائل الاعداد البدنى :

ان الوسائل التى وضعها الاسلام لجعل الطفل صحيح البدن ، بعيدا عن الأسقام والعلل ، تتخلص فى الآتى :

---

(٧) سعاد ابراهيم صالح ، **علاقة الآباء بالأبناء فى الشريعة الاسلامية** . جدة : تهامة ، ١٩٨١ ، ص ٥٦ ـ ٦٤

(٨) أبو حامد الغزالى ، **احياء علوم الدين** ، ج ٣ ، ص ٧٢ ـ ٧٤

١ ـ الحرص على النظافة فى البدن والثـــوب والمكان ، اذ أن النظافة ركن من اركان الصحة ودعامة من دعاماتها • وابلغ دليل على ذلك أن العبادات الاســلامية تقوم على الطهارة والنظافة ، وتجعـــل الطهارة شرطا لصحة الدخول فى العبادة •

٢ ـ ان يعود الطفل الأكل من الطيبات التى تغـذى البـدن وتقويه ، مع البعد عن الاسراف الذى يضر الجســم ويعرضه للأمراض ، لقوله تعالى :

« •• وكلوا واشربوا ولا تسرفوا •• » (الأعراف : ٣١)

ويتعلم الطفل آداب الطعام •• فلا يأخـذ الطعام الا بيمينه ، وان يبداه « بسم الله » ، وان يأكل مما يليه ، وان لا يبادر الى الطعام قبل غيره ، وان لا يحدق النظر به ولا الى من يأكل ، وان لا يسرع فى الأكل ، وان يجيـد المضـغ ، ولا يلطخ يده او ثوبه •

٣ ـ أن يحبب اليه ممارسة الألعاب الرياضية مثل السباحة والرماية والمصـارعة وركوب الخيل ، وان يمنع عن النوم نهارا لأنه يورث الكسل ، ويعود المشى والحركة والرياضة فى بعض النهار •

ـ وسـائل الاعداد العقلى :

الاسـلام دين الفطرة ، فهو يحترم الطاقات البشرية كلها ، لأنها هبة الله المنعم الوهاب ، ولكنه يعطيها اقدارها الصحيحة ، قال تعالى :

« قل هو الذى انشــاكم وجعل لكم الســمع والأبصـار والأفئـــدة ، قليـلا ما تشـكرون » • (الملك : ٢٣)

ويمكن تلخيص هذا الاعداد باتخاذ الوسائل الآتية :

١ ـ القراءة والكتابة والتعليم : يقول الله تعالى : **« اقرا باسم ربك الذى خلق • خلق الانســان من علق • اقرا وربك الأكرم • الذى علم بالقلم • علم الانسـان ما لم يعلم »** • (العلق : ١ ـ ٥)

ويرشـدنا الامام الغزالى الى تدعيم هـذه الناحية التربوية العقليـة

بقـوله : « ينبغى حفظ الصبيان عن رداءة الأخلاق من كذب وحسـد ونميمة ، وانما يحفظ عن جميـع ذلك بحسـن التأديب · ثم يشـغل فى المكتب فيتعلم القرآن واحاديث الأخبار وحكايات الأبرار واحوالهم لينغرس فى نفســه حب الصـالحين · وينبغى ان يؤذن له بعـد الانصراف من الكتاب ان يلعب لعبـا جميلا يسـتريح اليه من تعب المكتب بحيث لا يتعب من اللعب · فان منع الصبى من اللعب وارهاقه فى التعلم دائما يميت قلبه ويبطل ذكاءه وينغص عليـه العيش حتى يطلب الحيلة فى الخلاص منـه راسـا · وينبغى ان يعلم طاعة والديه ومعلمه ومؤدبه ومن هو اكبر منه سـنا »(٩) ·

٢ ـ **التأمل والتفكير** : وهما ضروريان لتنمية العقل واستقلاله بالفهم والادراك ، والقرآن الكريم حافل بالآيات التى تدعو الانسـان الى **التأمل** وايقاظ النفس واستشعارها لعظمـة الخالق ـ سـبحانه ـ وقدرته ، لقوله تعالى : **« ان فى خلق السـموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما انزل الله من السـماء من ماء فأحيا به الأرض بعـد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السـماء والأرض لآيات لقوم يعقلون »** ·

(البقرة : ١٦٤)

ـ وسـائل الاعداد الروحى :

وجه الاسـلام عناية خاصـة لتربية الروح لأنها فى نظره مركز الكيان البشرى ونقطة ارتكازه والمهيمن الأكبر على حياة الانسـان ، لأنها صلة الانسـان بخالقه ، قال تعالى : **« فاذا سويته ونفخت فيـه من روحى فقعوا له ساجدين »** · (الحجر : ٢٩)

ويمكن ان نلخص وسائل الاعداد الروحى فيما يأتى :

١ ـ ابراز قيمة الفضـائل وآثارها الفردية والاجتماعية ، واظهار

---

(٩) **احياء علوم الدين** ، جـ ٣ ، ص ٧٣

مساوىء الرذائل وآثارها أمام الطفل بقدر ما يتسع له فهمه ٠٠ وذلك بمراقبته وتعويده على الحياء والاحتشام ، وأن يحبب اليه الايثار ويحفظه عن الصبيان الذين عودوا التنعم والرفاهية ٠

٢ ـ أن يكون الآباء أنفسهم مثلا صالحا لأبنائهم ، فان من عادة الأطفال أن يتشبهوا بآبائهم ويحاكوهم فى أقوالهم وأفعالهم ٠ والقدوة الصالحة ما هى الا عرض مجسم للفضائل ، وان الطفل الذى يرى والديه يهتمان بأداء الشعائر والبعد عما يخل بتعاليم الدين من الرذائل ، لا بد وان يتأثر تأثرا بالغا بما يراه ويشاهده من والديه ٠ وفى هذا يقول الغزالى(١٠) : « فأوائل الأمور هى التى ينبغى أن تراعى ، فان الصبى بجوهره خلق قابلا للخير والشر جميعا ، وانما أبواه يميلان به الى أحد الجانبين ٠ قال ﷺ : « كل مولود يولد على الفطرة ، وانما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » ٠ (متفق عليه)

٣ ـ تلقين الطفل مبادىء الدين ، وتدريبه على العبادات ، وتعويده ممارسة فعل الخير ، فان ذلك يجعل منه نواة صالحة لمجتمع سليم ٠ ومهما بلغ سن التمييز ، فينبغى أن لا يسامح فى ترك الطهارة والصلاة ويؤمر بالصوم فى بعض أيام رمضان ، ويجنب لبس الديباج والحرير والذهب ، ويعلم كل ما يحتاج اليه فى حدود الشرع ٠ يقول الرسول الكريم ﷺ : « مروا أولادكم بالصلاة لسبع ، واضربوهم عليها لعشر » ٠ (رواه الترمذى)

٤ ـ على الآباء أن تكون معاملتهم لأولادهم قائمة على أساس الملاطفة وخفض الجناح ٠ وقد كان النبى ﷺ يعلم أصحابه أن يعاملوا أولادهم بالرفق واللين ويضرب لهم المثل فيما يمارسه هو بنفسه ٠ فعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قبل رسول الله ﷺ الحسن بن على وعنده الأقرع بن حابس التيمى فقال : ان لى عشرة من الولد

---

(١٠) المرجع السابق ، ص ٧٤

ـ قبلت منهم أحدا . فنظر اليه رسول الله ﷺ ثم قال : « من لا يرحم لا يرحم » . (رواه البخارى وابو داوود)

٥ ــ ومما هو ضرورى أن يحبب الآباء أبناءهم فى اختيار الأصدقاء الأخيار ومزاملة أصحاب الخلق الفاضل . فان الأطفال يحاكى بعضهم بعضا ويتشبه كل بالآخر . ويحفظ الصبى عن الصبيان عن مخالطة من يجرى نسانه بلغو الكلام وفحشه . ولننظر الى الصورة المثلى للتربية الحسنة كما يرويها القرآن الكريم فى حديث لقمان وهو يعظ ابنه ، اذ يقول :

● **« واذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بنى لا تشرك بالله ، ان الشرك لظلم عظيم »** . (لقمان : ١٣)

● **« يا بنى انها ان تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة او فى السموات أو فى الأرض يأت بها الله ، ان الله لطيف خبير . يابنى اقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما اصابك ، ان ذلك من عزم الأمور . ولا تصعر خدك للناس ولا تمش فى الأرض مرحا ، ان الله لا يحب كل مختال فخور . واقصد فى مشيك واغضض من صوتك ، ان انكر الأصوات لصوت الحمير »** . (لقمان : ١٦ ــ ١٩)

ففى هذه الآيات الكريمة نرى تدرج الدعوة وأخذها بالأهم فالمهم فى خطوات أو مراحل متتابعة ومتكاملة لا انفصال بينها ..

***

ثانيا ـ التعاون كعملية اجتماعية :

يقصد بالتعاون أن يعمل اثنان أو اكثر سويا من اجل تحقيق هدف مشترك . فالتعاون من العمليات الأساسية فى الحياة الاجتماعية ، ذلك أن كل انسان فى المجتمع يتعاون مع الآخرين بصورة مباشرة أو غير مباشرة . فليس باستطاعة كل فرد أن يزرع ويحصد ويطحن القمح الذى يأكله فى شكل « خبز » يوميا ، وانما يتعاون كل فرد فى المجتمع بما يقوم به من عمل مع الآخرين لتيسير الحياة الاجتماعية

على نفسه وعلى الآخرين • والتعاون ضرورى حتى تمضى الحياة الاجتماعية فى مسارها السوى ، لمواجهة احتياجات الأفراد والجماعات ، ولزيادة الدخل القومى لرفاهية المجتمع ، وللحفاظ على سلامة المجتمع وأمنه •

وليست هناك دواع معقولة تحمل الناس على ان يعيشوا أشتاتا متنافرين ، بل ان الدواعى القائمة على المنطق الحق والعاطفة السليمة تعطف البشر بعضهم على البعض الآخر ، وتمهد لهم مجتمعا متكافلا يسوده المحبة والوئام والتعاون ، ويمتد به الأمان على ظهر الأرض • والله عز وجل رد انساب الناس واجناسهم الى أبوين اثنين ، ليجعل من هذه الرحم الماسة ملتقى تتشابك عنده الصلات وتستوثق • قال تعالى : « **يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، ان اكرمكم عند الله اتقاكم ، ان الله عليم خبير** » •
(الحجرات : ١٣)

فالتعارف ـ لا التنافر ـ اساس العلاقات بين البشر • وقد تطرأ عوائق تمنع هذا التعارف الواجب من المضى فى مجراه وامداد الحياة بآثاره الصالحة •• ففى زحام البشر على موارد الرزق ، وفى اختلافهم على فهم الحق وتحديد الخير ، قد يثور نزاع ، ويقع صدام • بيد أن هذه الأحداث السيئة لا ينبغى ان تنسى البشر الحكمة المنشودة من خلق الناس وتعمير الأرض بجهودهم المتناسقة • وكل رابطة توطد هذا التعارف وتزيح من طريقه العوائق فهى رابطة يجب العمل على تدعيمها والانتفاع بخصائصها •

وليس الاسلام مجرد رابطة تجمع بين عدد قل او كثر من الناس فحسب ، ولكنه جملة الحقائق التى تقر الأوضاع الصحيحة بين الناس وربهم ، ثم بين الناس أجمعين • ومن ثم فأصحاب الاسلام وحملة رسالته يجب أن يستشعروا جلال العقيدة التى شرح الله بها صدورهم ، وجمع عليها أمرهم ، وأن يولوا التعارف عليها ما هو جدير به من عناية واعزاز •• انه تعارف يجدد ما درس من قرابة مشتركة بين الخلق ،

ويؤكد الأبوة المادية المنتهية الى آدم بأبوة روحية ترجع الى تعاليم الأديان الملخصة فى رسالة الاسلام • وبذلك يصير الدين الخالص أساس أخوة وثيقة العرى ، تؤلف بين اتباعه فى مشارق الأرض ومغاربها ، وتجعل منهم – على اختلاف الأمكنة والأزمنة – وحدة راسخة الدعامة قوية البناء ، لا تنال منها العواصف والأعاصير •• وهذه الأخوة هى روح الايمان الحى ، ولباب المشاعر الرقيقة التى يكنها المسلم لاخوانه ، حتى أنه ليحيا بهم ويحيا لهم ، فكأنهم أغصان انبثقت من دوحة واحدة ، أو روح واحد حل فى أجسام متعددة(١١) •

ولقد حارب الاسلام الأثرة الظالمة بالأخوة العادلة ، وأوضح لكل مسلم أن الحياة ليست له وحده ، وانها لا تصلح به وحده ، فليعلم ان هناك أناسا مثله ، ان ذكر حقه عليهم ومصلحته عندهم فليذكر حقوقهم عليه ومصالحهم عنده • ومن حق أخيك عليك أن تكره مضرته ، وأن تبادر الى دفعها ، فان مسه ما يتأذى منه شاركته الألم ، وأحسست معه بالحزن • ومن علائم الأخوة الكريمة ان تحب الخير والنفع لأخيك المسلم ، وأن تهش لوصوله اليه كما تبتهج بالنفع والخير يصل اليك • فاذا اجتهدت فى تحقيق هذا ، فقد تقربت الى الله بأزكى الطاعات وأجزلها مثوبة • وفى هذا يقول رسول الله ﷺ : « مثل المؤمنين فى توادهم وتعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد ، اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى » •

(رواه البخارى)

والتألم الحق هو الذى يدفعك دفعا الى كشف ضوائق اخوانك ، فلا تهدأ حتى تزول غمتها وتدبر ظلمتها ، فاذا نجحت فى ذلك استنار وجهك واستراح ضميرك •

قال رسول الله ﷺ : « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه (أى يخذله) • من كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته ، ومن فرج

---

(١١) محمد الغزالى ، مرجع سابق ، ص ١٦٥ – ١٦٦

عن مسلم كربة فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة ، ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة » . (متفق عليه)

وعن أبى هريرة رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ قال : « من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا ، نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن يسر على معسر يسر الله عليه فى الدنيا والآخرة ، ومن ستر مسلما ستره الله فى الدنيا والآخرة ، والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون اخيه ، ومن سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له طريقا الى الجنة . وما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله تعالى ، يتلون كتاب الله ، ويتدارسونه بينهم الا نزلت عليهم السكينة ، وغشيتهم الرحمة ، وحفتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده » .
(رواه مسلم)

ومن حق الأخوة أن يشعر المسلم بأن اخوانه ظهير له فى السراء والضراء ، وان قوته لا تتحرك وحدها ، بل ان قوى المؤمنين تساندها وتشد أزرها . قال رسول الله ﷺ : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » . (رواه البخارى)

ومن ثم كانت الأخوة الخالصة نعمة مضاعفة .. لا نعمة التجانس الروحى فحسب ، بل نعمة التعاون المادى كذلك . وقد كرر الله عز وجل هذه النعمة مرة ومرة فى آية واحدة ، فقال تعالى :
« .. واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخوانا .. » (آل عمران : ١٠٣)

واخوة الدين تفرض التناصر بين المسلمين ، لا تناصر العصبيات العمياء ، بل تناصر المؤمنين المصلحين لاحقاق الحق وابطال الباطل ، وردع المعتدى واجارة المهضوم ، فلا يجوز ترك مسلم يكافح وحده فى معترك ، بل لا بد من الوقوف بجانبه على أى حال ، لارشاده ان ضل ، وحجزه أن تطاول ، والدفاع عنه ان هوجم .. فذلك معنى التناصر الذى فرضه الاسلام .

قال رســول الله ﷺ :

ـ « انصر اخاك ظالمــا أو مظلوما ، ان كان ظالمــا فاردده ، وان كان مظلوما فانصره » • (رواه البخارى)

ـ « المؤمن مرآة المؤمن • والمؤمن اخو المؤمن ، يكف عليــه ضيعته ويحوطه من ورائه » • (رواه ابو داوود)

ـ « من جهز غازيا فى سبيل الله فقد غزا ، ومن خلف غازيا فى اهله (اى قام بما يحتاجون اليه) فقد غزا » • (متفق عليه)

ـ « ان لله عبادا اختصهم لحوائج الناس يفزع الناس اليهم فى حوائجهم ، أولئك الآمنون من عذاب الله » • (رواه الطبرانى)

ـ « يا أيها الناس : افشــوا الســلام واطعموا الطعــام ، وصلوا الأرحام ، وصلوا والناس نيام ، تدخلوا الجنة بسلام » •

(رواه الترمذى)

ـ « لا يقفن احدكم موقفا يضرب فيه رجل ظلما ، فان اللعنة تنزل على من حضره حين لم يدفعوا عنه » • (رواه الطبرانى)

ـ « ان لله عند اقوام نعما اقرها عنــدهم ما كانوا فى حــوائج المســلمين ، ما لم يملوهم ، فاذا ملوهم نقلها الى غيرهم » •

(رواه الطبرانى)

* * *

ثالثا ـ التنافس كعملية اجتماعية :

يقصــد « بالتنافس Competition » تلك العملية الاجتماعية التى بواسطتها نجد شــخصين او اكثر او جماعتين او اكثر تجتهد فى الوصول الى هدف معا أو اهداف معينة • والتنــافس قد يكون بناءا انشــائيا (Constructive) هو التنافس المفضل اجتماعيا ، وقد يكون التنافس هداما (Destructive) وهو التنافس الذى لا يقره المجتمع • ويخــذ التنــافس اشكالا عديدة •• فقد يكون ذهنيا عقليــا (Intellectual) مثل ما يحدث

بين الطلاب ، وقد يكون ترويحيا كما فى ممارسة الأنشطة الرياضية وسائر الأنشطة المتعلقة بشغل أوقات الفراغ ، وقد يكون التنافس فى مجال العمل بهدف الاستحواذ على النفوذ او السلطة او المركز او لرفع الكفاية الانتاجية ٠

والشرط الأساسى للتنافس هو أن يتم بين اثنين من الأفراد أو الجماعات ، كل منهما يكافح من أجل تحقيق نفس الهدف ، أى هدف واحد ومتنافسين اثنين على الأقل ، وبالتالى فان الانسان لا يتنافس مع نفسه ، وان كان من الميسور أن يتفوق على نفسه ٠ وقد يكون مثل هذا التنافس هداما أو بناءا ٠٠ فاذا كان هدف المتنافسين أن ينجح واحد أو اكثر على حساب الآخرين ورسوبهم ، فان التنافس هنا يصبح هداما ٠ أما اذا كان هدف التنافس أن ينجح كل طالب بالمجموع الذى يتفق مع الجهد الذى يبذله فى الدراسة ، فان التنافس هنا يصبح انشائيا ايجابيا بناءا ٠ ومن هنا يمكن القول بأن المتنافسين بصورة هدامة يحاول كل منهم القضاء على الآخرين بشتى الوسائل الشريفة وغير الشريفة ، أستنادا الى ما جرى عليه العرف من أن « الغاية تبرر الوسيلة » ، بينما يستهدف التنافس البناء تحقيق المصلحة العامة للجماعة أو المجتمع ، مثل ما حدث فى حرب أكتوبر ١٩٧٣ من تنافس أفراد القوات المسلحة على عبور القناة وتحرير سيناء من العدو الاسرائيلى ٠

والتنافس فى الاسلام عملية تنبثق عن « التعاون » فى العمل أو فى الدراسة أو فى اللعب ٠ وهو عملية محببة الى النفس فى مختلف مجالات النشاط الاجتماعى سواء بين أفراد الأسرة ، أو بين ذوى القربى ، أو أهل الجيرة ، أو طلاب المدرسة أو المعهد أو الكلية ، أو بين الفرق الرياضية فى مختلف النوادى ، أو بين المتنافسين على عضوية مجالس الادارة ، أو مجلس الشعب وما أشبه ، طالما كان ذلك التنافس فى حدود الاعتدال ٠ وكلما كان التنافس قائما على أسس أخلاقية مستمدة من الشريعة الاسلامية ، فهو تنافس ايجابى مطلوب لاطلاق القوى الكامنة لدى أفراد المجتمع ثم استثمارها فيما يفيد الناس ٠

وكان محمد رسول الانسانية ﷺ ينافس أصحابه فى سائر الوان الشجاعة والبسالة والدفاع عن القوم ، وفى الكرم والجود ٠٠ فعن انس ابن مالك قال : « كان رسول الله ﷺ احسن الناس ، وكان أجود الناس ، وكان اشجع الناس ٠ فلقد فزع أهل المدينة ذات ليلة على صوت ، فانطلق ناس قبل الصوت ، فتلقاهم رسول الله ﷺ راجعا ، وكان قد سبقهم الى الصوت ، وهو على فرس لأبى طلحة ، وفى عنقه السيف ، وهو يقول : « لم تراعوا ، لم تراعوا » ٠

وقد حث الرسول الكريم المسلمين على التنافس فيما اشتهر فيه العرب من خصائص تتفق مع الاسلام ٠٠ مثل اكرام الضيف ، ورعاية الجار ، والنجدة والشهامة والفروسية باعتبارها من الصفات العربية الأصيلة التى كانت على لقاء مع مبادىء الاسلام الحنيف ، وكذلك حث الناس على التنافس فى عبادة الله عن طريق التعمق فى دراسة الدين واتباع أوامره واجتناب نواهيه حتى تنتشر العقيدة الاسلامية ٠ ذلك أن انتشارها يحتاج الى افراد اقوياء فى حجتهم ، يملكون ناصية البيان ، قادرون على المناقشة والاقناع ٠ ولم يكن عند مبعث خاتم النبيين أمة اقوى جنانا وافصح لسانا ، واقدر على المناقشة والجدل من العرب ، الذين هيأتهم حياة الصحراء للصبر على المجاهدة والقدرة على المجالدة ، ممن عرفوا بحضور البديهة وصفاء القريحة ، فاختارهم الله سبحانه دعاة لدينه ، وجعل من ديارهم مهبطا لوحيه الذى أوحى به الى صفوة خلقه وخاتم انبيائه ٠

والذى يستعرض أسماء الدعاة فى فجر قيام المجتمع الاسلامى يجد من بينهم أو على قمتهم ابو بكر ، عمر ، عثمان ، على ، عائشة ، طلحة ، الزبير ، معاوية ، حمزة ، خالد ، عمرو ، ابو عبيدة ، وغيرهم ممن أثنى الله عليهم فى قوله تعالى : « **محمد رسول الله ، والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم فى وجوههم من اثر السجود ، ذلك مثلهم فى التوراة ، ومثلهم فى الانجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه**

يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار ، وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما » ٠ (الفتح : ٢٩)

فلقد كان التنافس على اشده بين هؤلاء فى التعبد وفى الدعوة لدين الله وفى الدفاع عن تلك الدعوة ومن اعتنقوها وفى طلب المغفرة من الله ٠

ولقد سرى التنافس الاسلامى بهذه الصورة فى نفوس أصحاب رسول الله ﷺ ومن سار على نهجهم ، حيث كانوا يسعون الى التخفيف عن كاهل مواطنيهم ٠٠ فهذا أمير المؤمنين ـ عمر بن الخطاب ـ مثلا حيا للتواضع والتعاون والرحمة ، حين حمل الدقيق على كاهله ليطعم أولئك الصغار الذين كانوا يتضورون جوعا على مشارف المدينة ، وحين راح ينضج لهم الطعام بنفسه ، وينفخ فى النار فيتخلل دخانها لحيته ، وأم الصغار ـ لا تعلم أن ذلك العطوف الرحيم هو أمير المؤمنين عمر ـ حيث قالت له : « أو ما كان عمر أولى منك بهذا الذى تصنع » ؟ ٠٠ ولم يكن عمر وحده هو المتواضع المتعاون فى هذه الأمة الاسلامية ، فكم بين بناة هذه الأمة ومشيديها من تواضع وتعاون وتنافس ٠٠ وهكذا كانت المنافسة بين أصحاب رسول الله ﷺ فى اعطاء القدوة الحسنة فى التواضع والتعاون لخدمة المجتمع الاسلامى ٠

ومن صور التنافس فى الاسلام تلك المتعلقة بالعمل المنتج النافع التى كان الرسول الكريم يحرص على تربية المسلمين عليها ، حيث كان يحث الناس على العمل ويبغضهم فى التواكل ٠ فقد قال عليه الصلاة والسلام :

ـ « لا يقبل ايمان بلا **عمل ولا عمل بلا ايمان** » ٠

(رواه الطبرانى)

ـ « ان الله يحب العبد المحترف ، ومن كد على عياله كان كالمجاهد فى سبيل الله » ٠ (رواه أحمد)

ـ « ما اكل احد طعاما قط خيرا من ان يأكل من عمل يده ، وان نبى الله داوود كان يأكل من عمل يده » . (رواه البخارى)

ـ « من أمسى كالا من عمل يديه أمسى مغفورا له » .
(رواه أحمد)

ـ « باكروا فى طلب الرزق والحوائج ، فان الغدو بركة ونجاح » .
(رواه الطبرانى)

ـ « خير الكسب كسب يدى عامل اذا نصح » . (رواه أحمد)

* * *

رابعا ـ التوافق / التكيف الاجتماعى (Social Adjustment) :

تميل الكائنات الحية الى تغيير نشاطها استجابة لما يحدث فى بيئتها من تغير .. فعندما يطرأ تغير على البيئة التى يعيش بها الكائن ، فانه يعمل على تعديل سلوكه وفقا لهذا التغير ويبحث عن وسائل جديدة لاشباع حاجاته . فاذا لم يجد اشباعا لهذه الحاجات فى بيئته فهو اما أن يعمل على تعديلها أو يعمل على تعديل حاجاته ، وهذا النوع من السلوك يسمى « بالتكيف / التوافق » فالتكيف / التوافق يشير الى ان الأحداث النفسية تعمل على استبعاد حالات التوتر واعادة الفرد الى مستوى معين هو المستوى المناسب لحياته ، واذا لم يحدث تكيف على الاطلاق فان الكائن لا يستطيع الاستمرار فى الحياة أو البقاء .

واذا اشبعت جميع دوافع الانسان فى الحال اشباعا معقولا سهلا فلن تصبح هناك حاجة لعملية التكيف ، ولكن ذلك لا يحدث فى أغلب الأحوال ، فهناك عقبات معينة تحول دون الاشباع المباشر للدوافع .. فمثلا قد تستثار لدى الفرد دوافع للسيطرة والسيادة أو الشهرة والمكانة المرموقة ، وقد لا يستطيع اشباع هذه الدوافع وازالة التوتر الناجم عنها فى الحال ؛ وقد يكون سبب ذلك بعض العقبات الخارجية كالمنافسة التى يواجهها من أشخاص آخرين تحركهم نفس الدوافع ، أو قد يرجع ذلك الى عقبات أخرى داخلية ناتجة

عن نقص قـــدرات الفرد ذاته • ولكن من شـــأن الدافع القـوى متى استثير أن يجعل الفرد فى حالة نشـاط وحركة ، حتى تحدث استجابة تشـبع الدافع وتزيل التوتر • وهـذه الأفعال التى تظهر عنـدما يستثار الدافع وتنتهى عندما يشـبع هى التى تسـمى فى مجموعها بـ « عملية التكيف »(١٢) •

وهناك علامات أو مؤشرات يمكن أن تفيدنا فى الاستدلال على مدى توافق الأفراد ، وتتلخص هذه المؤشرات فيما يأتى(١٣) :

١ ـ مدى تقبل الفرد للحقائق المتعلقة بقدراته وامكاناته •
٢ ـ مدى اسـتمتاع الفرد بعلاقاته الاجتماعية •
٣ ـ مدى نجاح الفرد فى عمله ورضاه عنـــه ، أى الاشـــباع المهنى •
٤ ـ مدى كفاءة الفرد فى مواجهة مشكلات الحياة اليومية •
٥ ـ تنوع نشاط الفرد وشـموله •
٦ ـ اشـباع الفرد لحاجاته ودوافعه •
٧ ـ ثبات اتجاهات الفرد •
٨ ـ تصدى الفرد لمسـئولية افعاله وقراراته •

ومن أجل توفير التكيف الاجتماعى السـليم فى المجتمع الاسـلامى ، فان الرسـول الكريم ﷺ تناول بأحاديثه العقيدة والايمان الحق بالله ، كما تناول الضعف الانســـانى وأمراض النفس ، والدعوة الى العلم ، والاقتصاد وقيمة المال ، واهمية العمل للكسب الحلال ، والحقوق والواجبات الاجتماعية ، والتماســـك الاجتماعى ، والحرية ، والعدالة والعدل فى الحكم والقضـاء ، والعلاقة بين الأزواج وبين الآباء والأبناء ، والاخاء ، والتعاون والاتحاد ، وضبط النفس ، واصـلاح ذات البين •• تناول كل

---

(١٢) L. Shaffer, and E. Shoben, Jr., **The Psychology of Adjustment** (2 nd. ed). (Boston : Houghton - Mifflin, 1956) , p. 9.

(١٣) سيد عبد الحميد مرسى ، **الارشـاد النفسى والتوجيه التربوى والمهنى** • القاهرة : الخانجى ، ١٩٧٦ ، ص ٢٠ ـ ٢٤

هـذه الأمور وغيرها بحيث تكون واضحة لكل أفراد المجتمع ، وبصورة تجعل علاقاتهم ومعاملاتهم خالية من كل عناصر الخلاف ، حتى يتحقق التكيف الاجتماعى السليم بينهم ٠

ومن سمات التكيف الاجتماعى فى الرسالة المحمدية أن الرسول الكريم ذاته كان واحدا ممن بعث اليهم ، فالقرآن الكريم يقول : **« لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم »** ٠ (التوبة : ١٢٨)

ولذلك كانت رحمته بالمؤمنين جميعا ، وكان حرصه على خير قومه خلقا من أخلاقه ، حيث جمع الله فيه كل الفضائل ، فكان المثل الأعلى ، والأسوة الحسنة ، والقدرة الطيبة ، ولهذا أمر الله سبحانه باتباعه فى كل ما يصدر عنه من قول أو فعل ، بقوله تعالى : **« لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجوا الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا »** ٠ (الأحزاب : ٢١)

ولقد قام المجتمع الاسلامى على أساس الحرية الدينية ، أى حرية العقيدة ، والحرية من أهم عوامل التكيف الاجتماعى ، وفى هذا يقول القرآن الكريم : « **وقل الحق من ربكم ، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر** ٠٠ » ٠ (الكهف : ٢٩)

ودعوة الاسلام الى الحرية لم تكن دعوة نظرية ، وانما كانت دعوة تطبيقية عملية ، حيث عايش الاسلام اليهودية والنصرانية ، وقد وصل هذا التعايش الى الذروة عندما أباح الاسلام للمسلم أن يتزوج بكتابية من غير دينه ٠ فاذا علمنا أن الدين كان هو حياة كل البشر ، أدركنا ما وصل اليه الاسلام من احترام حرية الانسان ومعتقداته ٠٠ واذا كان حق الحياة والحرية والتكافل الاجتماعى هى من حقوق الانسان ، فان هذه الحقوق لا يمكن أن تصان الا من خلال حكم صالح ٠ والحكم الصالح له أساس يقوم عليه ومنهاج يعمل من خلاله ٠٠

أما الأســاس فهو العدل ، وأما المنهاج فهو الشــورى . ويأمر اللــه تعالى سيدنا محمدا أن يشــاور أصحابه ليكون قدوة فى ذلك ، فيقول له :

« .. **فاعف عنهم واســتغفر لهم وشــاورهم فى الأمر** .. » .

(آل عمران : ١٥٩)

ويضاعف من أهمية هــذا التكليف وخطــورته ، انه بعــد غزوة « أحــد » التى انهزم فيها المســلمون نتيجة مخالفتهم لرأى رســول الله ﷺ ، نزلت الآية الكريمة تطلب من الرســول أن يعفو عنهم ويستغفر لخطئهم ولا يكف عن استشارتهم . وانه لا يكتفى بجعل التشــاور منهاجا للحكم فقط ، بل انه ليفرضــه على الفرد العادى مع أسرته فى بعض الظروف ، فقال تعالى : « .. **فان أرادا فصالا عن تراض منهما وتشاور فلا جناح عليهما** .. » . (البقرة : ٢٣٣)

فالأسرة التى تقوم حياتها على التشــاور تكون حياتها الاجتماعية أكثر تكيفا ، والعكس صحيح .

ولمــا كان التكيف الاجتماعى من عوامل التقارب والتماسك بين الناس فى المجتمع ، فقد كان ﷺ حريصــا فى اجاباته وأحاديثه على تأكيد العوامل التى تؤدى الى التكيف الاجتماعى ، وخاصــة التمسـك بالأخلاق الكريمة بما يســاعد على تدعيم مظاهر التكيف الاجتماعى الســليم . ومن الأحاديث النبوية الكريمة فى هذا الشــأن :

ـ « تبســمك فى وجه أخيــك صدقة ، وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر صــدقة ، وارشــادك الرجل فى أرض الضـــلال لك صــدقة ، واماطتك الأذى والشــوك والعظم عن الطريق لك صــدقة ، وافراغك من دلوك فى دلو أخيــك لك صــدقة ، وبصرك للرجل الردىء البصر لك صــدقة » . (رواه البخارى)

ـ « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، فليقل خيرا ، أو ليصمت » . (متفق عليه)

ـ « من لا يرحم من فى الأرض لا يرحمه من فى السماء » .

(رواه الطبرانى)

ـ « ليس المؤمن بطعان ولا لعان ولا فاحش ولا بذىء » .

(رواه الترمذى)

ـ «ان الرفق لا يكون فى شىء الا زانه ، ولا ينزع من شىء الا شانه».

(رواه مسلم)

* * *

خامسا ـ عملية الاتصال (Communication Process) :

يمكن القول ان « الاتصال لا يتحقق الا من خلال عملية اجتماعية ، وهذه العملية الاجتماعية هى « التفاعل » ، ولا يتحقق هذا التفاعل الا فى مجتمع ، بمعنى أن « الاتصال » هو نتاج التفاعل بين الفرد والمجتمع . وعلى ذلك يصبح « الاتصال » من العمليات الاجتماعية المستمرة ، ذلك ان الفرد يعيش طوال يومه ـ بل طوال عمره ـ فى اتصالات لا تنتهى من اجل اشباع حاجاته المتعددة .

وخلاصة القول ان « الاتصال » يمكن اعتباره عملية اجتماعية ، كما يمكن اعتباره ظاهرة اجتماعية . وسواء نظرنا اليه كعملية اجتماعية أو كظاهرة اجتماعية ، فانه من الضرورى ان ندرك بصفة اساسية أن كل ظاهرة اجتماعية عبارة عن نتاج تفاعل الأفراد أو الجماعات . بمعنى أنه عندما يكون المجتمع فى شكل جماعة من الناس فى تفاعل مستمر كل مع الآخر ، فانه يتضح من ذلك أن « التفاعل » من المفاهيم الأساسية الهامة فى المجتمع(١٤) .

وترتيبا على ذلك ، فان الاتصال ـ كمصطلح أو مفهوم ـ يشير الى العلاقة التى تقوم بين الناس فى اطار نسق اجتماعى معين يختلف من حيث الحجم ومن حيث نوع النشاط السائد فيه .. بمعنى أن هذا

---

(١٤) زيدان عبد الباقى ، وسائل واساليب الاتصال فى المجالات الاجتماعية والتربوية والادارية والاعلامية (ط ٢) . القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٧٩ ، ص ١١ ـ ١٢

النسق قد يكون مجرد علاقة ثنائية نمطية بين شخصين (اخصائى اجتماعى .. ومبحوث ، محرر .. وقارىء ، مذيع .. ومستمع) أو بين جماعة صغيرة ومجتمع محلى ، ويمكن ان يكون على المستوى القومى او الدولى . ولكى تعبر تلك العلاقة عن مفهوم الاتصال، فمن الضرورى ان تنقل داخل تلك العلاقات بعض الخبرات او المعلومات .. الخ .

ويمكن القول بأن الاتصال هو عملية المشاركة فى المعرفة ونقلها ، فقد يشاركك الشخص فى بعض المعلومات او الافكار او المشاعر . وتتم المشاركة بين الناس الذين يستخدمون رموزا او علامات معينة متفق عليها فيما بينهم ، وقد تكون هذه الرموز اشارات او ارقام او كلمات او رسوم بيانية وما اشبه . وتعتبر اللغة التى نتحدث بها من اهم الرموز المتفق عليها فى الاتصال . وبالاضافة الى اللغة ، فهناك العديد من الوسائل الأخرى التى ترمز الى الاتصال مثل : الأرقام ، والجداول ، والرسوم الهندسية ، ولغة الجسم (كالمصافحة والايماءات) ، وعلامات الطرق والمرور . وما اشبه .

ونذكر فيما يلى بعض امثلة المهارات التى يحتاج اليها المسئول عن الاتصال فى اتصالاته اليومية(١٥) :

١ ـ المهارة فى استخدام كلمات التخاطب ، وتشمل :

- التحديد الشفهى لحقائق الموقف بوضوح ودون غموض .
- تقديم المشورة والتوجيه للآخرين شفهيا ، بطريقة غير رسمية .
- المناقشة الهادئة الهادفة للمشكلات مع الآخرين .

٢ ـ المهارة فى تقديم المعلومات كتابيا ، وتشمل :

- اعداد مسودة بعناصر الموضوع .
- عرض الموضوع بطريقة منظمة متكاملة .

---

(١٥) P. Panton; **Communication Skills.** (London : Hutchinson, 1980) p. 15 — 16.

ـ عرض الرسـوم التوضيحية والاحصاءات اللازمة المتعلقة بالموضوع بدقـة ٠

٣ ـ المهارة فى استقبال المعلومات من مصادرها العديدة ، وتشمل :

ـ التعرف على الأجزاء المترابطة ذات الصلة الوثيقة من خـلال المـادة المكتوبة ٠

ـ قياس مدى دقة الأرقام والاحصاءات باستخدام الوسـائل المعينة على ذلك ٠

ـ الاشـارة بدقة الى المعلومات المقدمة وعرضها فى شكل جدول أو رسـم بيانى ٠

ان « الاتصال الشـفهى » يتطلب توافر بعض الشروط التى تجعل جو المنظمة يسـمح بالاتصـال الصـاعد والهابط من خـلال قيم ومبادىء وقنوات معينة ٠ وهذه الشروط هى :

١ ـ تنمية جو ودى ومجال طيب يسـمح بالتفكير والتخاطب دون أن يشـعر الشخص بوجود معوقات تعترض طريقه اثناء الاتصال ٠

٢ ـ تبنى وتشـجيع الجديد من الأفكار البناءة التى تسـتهدف رفع الكفاية الانتاجيـة وتحسين ظروف العمل والانجاز ٠

٣ ـ أن يكون هنـاك نسـق من القيم والمبادىء والمعايير التى يعتنقها ويتمسـك بها كل من الرئيس والمرؤوسـين ٠

٤ ـ تكوين لجان عمل أو لجان استشارية تسمح بتبادل الفكر والرأى بين مختلف المسـتويات والخبرات فى المنظمة ٠

٥ ـ اتاحة الفرصـة للعاملين كى يشترك كل منهم بالتعبير عن رايه فى طريقة انجاز العمـل ، وتشـجيع تقديم الآراء البناءة التى تؤدى الى رفع مسـتوى الانجاز وتحقيق الرضـا والاشـباع للعاملين ٠

٦ ـ تهيئة القنوات التى تسـمح بتدفق محتويات الاتصـال فيما بين فروع واقسـام المنظمة والعاملين بها ٠

٧ ـ مراعاة استخدام الاجتماعات والمناقشة مع العاملين ، خاصة فى حالة الشروع فى تطوير بعض أساليب العمل أو تغييرها أو استحداث بعض الأساليب التكنولوجية ، وذلك للحصول على تأييد العاملين وتعديل اتجاهاتهم والتغلب على المقاومة لكل ما هو جديد أو مقاومة التغيير .

٨ ـ ينبغى أن تكون خطوط الاتصال قصيرة ما أمكن ومختصرة .. فمن اكبر عوامل ضعف الاتصال ضخامة الجهد الذى يبذل فيه ، وطول الوقت الذى يستغرقه ، وكثرة التحويلات التى تحد من دفعه . وهنا تبرز أهمية « تفويض السلطة / الصلاحية » حتى يمكن البت فى كثير من الأمور ، وخاصة مشكلات العمل اليومية واتخاذ قرار بشأنها دون حاجة الى الاتصال المستمر بالادارة العليا بالمنظمة فى كل أمر من الأمور .

٩ ـ من أدلة الاتصال الجيد أن يتضمن « المعلومات والفهم » ، فقد يستمع الشخص الى المرسل ولكنه لا يفهم ما يعنيه من رسالته . ان الاتصال الجيد لا يتم الا اذا ترادف الفهم مع استقبال المعلومات ، وهذا ما يعرف بـ « العمق والانسياب فى الاتصال » .

١٠ ـ وأخيرا ينبغى أن تكون خطوط الاتصال وأدواته واضحة .. فمن اكبر عوامل التعطيل والاضطراب فى العمل الا يعرف الموظف فى اى اتجاه يتصرف او بمن يتصل ليساعده على حل مشكلته .. فقد تصدر نشرة مثلا ـ وهى احدى أدوات الاتصال ـ تحتوى على الكثير من المعلومات الغامضة التى يتعذر فهمها أو العامة الشائعة التى تحتمل اكثر من معنى بما يؤدى الى اساءة فهمها .

ولقد أشار القرآن الكريم الى السمع والبصر والفهم ، باعتبارها من أهم أدوات الاتصال ، ونشير الى بعض آياته فى هذا المجال :

● **« والله اخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون »** . (النحل : ٧٨)

● « وهو الذى انشا لكم السمع والأبصار والأفئدة ، قليلا ما تشكرون » . (المؤمنون : ٧٨)

● « وقالوا لو كنا نسمع او نعقل ما كنا فى اصحاب السعير » . (الملك : ١٠)

● « ربنا اننا سمعنا مناديا ينادى للايمان ان آمنوا بربكم فآمنا .. » (آل عمران : ١٩٣)

● « انما كان قول المؤمنين اذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم ان يقولوا سمعنا واطعنا ، واولئك هم المفلحون » . (النور : ٥١)

● « وانا لما سمعنا الهدى آمنا به .. » . (الجن : ١٣)

● « واذا سمعوا ما انزل الى الرسول ترى اعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق .. » (المائدة : ٨٣)

● « .. ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون » . (الأعراف : ١٠٠)

● « فضربنا على آذانهم فى الكهف سنين عددا » . (الكهف : ١١)

ولقد اختص الله سبحانه وتعالى الانسان باذنين ولسانا واحدا ، حتى يسمع وينصت اكثر مما يتكلم ..

***

سادسا ـ الضبط الاجتماعى (Social Control) :

لا يزال موضوع « الضبط الاجتماعى » يعانى كثيرا من الخلط والغموض ، ويرجع ذلك بالدرجة الأولى الى اختلاف العلماء فى تحديدهم لمصطلح « الضبط الاجتماعى » ، وعدم اتفاقهم على تعريف واضح ومحدد له ، وكذلك الى عدم اتفاقهم على ميدان الضبط الاجتماعى وحدوده باعتباره « عملية اجتماعية » تنطوى على الكثير من المفاهيم التى تتدخل فى تحديد ابعاده ووظائفه بالنظر الى اسسه ومجالاته ،

على الرغم من أن الموضوع نفسه ليس جديدا على الفكر الاجتماعى .

فلقد أشار « ابن خلدون » الى أن الضبط الاجتماعى من الظواهر الملازمة للمجتمع . أما وسائل الضبط الاجتماعى التى تصلح بها الحياة الاجتماعية فواضحة فى رأيه ، وهى تمثل الدين والقانون والآداب والعادات والتقاليد والعرف والمثل العليا . وينظر ابن خلدون الى الضبط الاجتماعى نظرة اجتماعية نفسية ، لأنه يرى أن الضبط لازم للحياة الاجتماعية ، وانه فى نفس الوقت ناجم عن خاصة طبيعية فى الانسان ، وأن فائدته المحافظة على المصلحة العامة للأفراد فى المجتمع ، وعلى مصلحة الحاكم فى استقامة حكمه(١٦) .

وقد أشار « روس »(١٧) الى أن أهم وسائل الضبط الاجتماعى هى « القانون » الذى يحتل مكان الصدارة ، ويعتبر العنصر الأكثر اكتمالا للضبط وأساسا لبناء النظام ، ويطبق فى المجتمع الى جانب وسائل الضبط الأخرى . ويرى « روس » أن هناك بعض الوسائل الأخرى مثل : المعتقدات والقيم والثقافة السائدة فى المجتمعات ودرجة الاقناع والايحاءات والتهديدات .. الخ .

وقد عالج « كولى »(١٨) موضوع الضبط الاجتماعى بأن جعل المجتمع مسئولا عن عملياته الخاصة بالتنظيم والابداع ، وميز بين النزعة الفردية والجماعية ، فالفرد والمجتمع توأمان يمثلان اتجاهين من وحدة متكاملة غير قابلة للتفكك . كما يرى أن الضبط الاجتماعى ينشىء القانون ، وأن مهمة الضبط الاجتماعى ليست قاصرة على حل الصراع بين الأفراد والجماعات وانما تشمل استقرار المجتمع واستمراره والمحافظة على قيمه التى تعمل على مساندة النظم القائمة فى المجتمع .

---

(١٦) سلوى على سليم ، **الاسلام والضبط الاجتماعى** . القاهرة : مكتبة وهبة ، ١٩٨٥ ، ص ٧ – ٨

(١٧) A. Ross; **Social Control : A Survey of Foundation of Control** . (N. Y. : MacMillan, 1959), pp. 259 - 263.

(١٨) C. Cooly ; **Social Process.** (Ill. : Southern Illinois Univirsity Press, 1966) pp. 263 - 264.

ومن المتعارف عليه ان لكل مجتمع من المجتمعات وسائل خاصة يتبعها كى يحقق عملية الضبط الاجتماعى • وتتوقف هذه الوسائل ـ الى حد كبير ـ على طبيعة المجتمع وظروفه ومدى تعقده او بساطته ونوع الثقافة السائدة فيه(١٩) •

ولا تقتصر اهمية الضبط الاجتماعى على المجتمع فحسب ، فهى ممتدة الى الأفراد ، لأن الضبط ضرورى للفرد ، حيث ان الطبيعة البشرية هى نتاج الضبط الاجتماعى ، فالانسان يولد بدون معرفة لأية قيم او معايير ثابتة او محددة فى الحياة ، فهو يعتمد على الجماعة التى تقوم بدورها بتلقينه أو تعليمه تلك القيم التى يقرها المجتمع • فالفرد يكتسب انماطا سلوكية من خلال وجوده فى محيط ووسط اجتماعى منظم نسبيا ، وانه يشعر بالأمن كلما توافق مع معايير جماعته التى يعيش فيها وقيمها(٢٠) •

وقد اكد كثير من الباحثين ان الضبط الاجتماعى ضرورى للانسان لما تتصف به طبيعة النفس البشرية من ميل الى الظلم والعدوان •• وقد ضربوا امثلة لذلك بآدم ابو البشر ، الذى اشتهى ما حرم الله ، وعصى أمر ربه ، فكان جزاؤه الحرمان من النعيم والهبوط الى الأرض • وقابيل ابن آدم الذى اشتهى ما انعم الله به على اخيه هابيل فيحسده وينتقم منه بقتله •• الى آخر ذلك من امثلة تدل على ان النفس البشرية امارة بالسوء • فلولا اكتساب الانسان لبعض الصفات الاجتماعية ، وخضوعه لنظام اجتماعى يحدد سلوكه وتصرفاته تجاه الآخرين والمجتمع ، ما تكونت المجتمعات واستمرت وبقيت(٢١) •

وتعتبر الدولة هى الهيئة الرئيسية التى تمارس السلطة المطلقة فى كثير من الأنشطة ، فهى تمارس سيادتها فى كثير من مجالات السلوك • وفى مجال تطوير القوانين ، نجد ان الدولة هى التى تحدد التشريعات

---

(١٩) D. Hommand; **Cultural and Soial Anthropology.** (N. Y. MacMillan, 1964), p. 223.

(٢٠) سلوى على سليم ، **مرجع سابق** ، ص ١١

(٢١) حسن الساعاتى ، **علم الاجتماع القانونى** • القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٦٨ ، ص ٢٨ ـ ٣٠

والعقوبات لكل مخالفة ، وهى التى تنظم السلوك وتضع حدودا لما هو مسموح به وما هو مرفوض ٠٠ فهى هيئة للضبط الاجتماعى الرسمى المقصود فى الدولة الحديثة ، وتعتبر القوانين بمثابة الوسيلة الرئيسية فى ضبط سلوك الأشخاص ، وتعتبر ضرورة فى ظل المتغيرات الموجودة فى المجتمع ٠

واكد الباحثون أن دراسة الضبط الاجتماعى تستلزم ايضا دراسة علاقة سلوك أعضاء المجتمع بالثقافة السائدة ، وبالنظم الاجتماعية الضابطة ، لأن الثقافة تقوم بدور هام وفعال فى ضبط سلوك الأفراد ٠٠ فالمجتمع يحدد ما يجب على الأفراد الالتزام به من خلال قيمه وعاداته وتقاليده المتعارف عليها ، كما انه يحدد مجموعة الجزاءات التى توقع فى حالة الخروج عن هذه القيم ٠ ولذلك فان النظم الاجتماعية المختلفة لها تأثيرها على سلوك الفرد ٠

***

● الاسلام وضوابطه الاجتماعية :

الإسلام يكفل سعادة الفرد والجماعة فى الدنيا والآخرة ، ولم يترك عنصرا من عناصر الخير والصلاح وعناصر الحياة الطيبة والسعادة الخالدة الا امر به ، ولم يترك عنصرا من عناصر الشر والفساد والشقاء الا نهى عنه وحذر ونفر منه ، ذلك ان الاسلام بنى تنظيمه للعالم على الواقع (٢٢) ٠

ويعتبر الاسلام منهجا فى الحياة تتبعه كل جماعة أو يرتضيه كل مجتمع ٠٠ فهو يهذب النفوس الانسانية ، ويوجه الحياة وجهة الحق والخير ، كما انه ضرورة من ضرورات الانسانية الراشدة ، لا تغنى عنه فكرة عقلية ولا تنظيم وضعى ٠٠

فقد حرص الاسلام على تقرير المساواة فى اكمل صورها ، وجعلها من العقائد الأساسية التى يجب ان يدين بها كل مسلم ٠٠ فقرر ان الناس

---

(٢٢) محمود شلتوت ، **من توجيهات الاسلام** ٠ دار العلم ، ١٩٦٤ ، ص ٦٥

سواسية ، وليس هناك ثمة تفاضل فى انسانيتهم ، وانما يجرى التفاضل بينهم على أسس اعمالهم وكفاياتهم ، وما يقدمه كل منهم لربه ونفسه ومجتمعه والانسانية جمعاء ٠٠ ويقرر الاسلام ايضا ان يعامل الناس جميعا على قدم المساواة فى شئون المسئولية والجزاء ، وهى الحقوق المدنية كحق التعاقد والتملك ، بدون تفرقة بين غنى وفقير او بين صعلوك وامير أو بين قريب وبعيد ٠٠ فالعدالة الاسلامية لها ميزان واحد يطبق على جميع النـاس ٠

ومما لا شك فيه ان الاسـلام هو خاتم الأديان والشرائع السماوية ، واعمها واشملها ٠٠ فهو يشتمل على كل ما يتصل بالدين والدنيا ، او بمعنى آخر يتناول كل ما يتصل بالعقيدة والعبـادة والمعاملات ، من اخلاق ، وتعامل مع النفس وتعامل مع الآخرين ٠٠ فالاسـلام دين المعاملة ٠٠ دين الانسـانية ٠٠ دين الواقع والعمـل ٠٠ دين الوسـطية والعـدل ٠٠ ودين التشريع للفرد والأسرة والمجتمع ٠

ـ فبالنسـبة للأخلاق :

نجد ان الاسـلام قد وضع الفضائل التى يجب التحلى بها والتى تصور الانسانية الكاملة ٠٠ فالشريعة الاسـلامية روضت النفوس على حب الخير ورغبتها فى التواضع ، وارشدت الى آداب التزاور والمجالسة ، كما نفرت الناس من التكاسل ، وتناولت ما يدعو اليه الخلق القويم ، والتعامل مع افراد المجتمع ، وذلك على النحو التالى :

١ ـ لقد عنى الاسـلام بأدب الحـديث ٠٠ فالبعد عن اللغو من أركان الفلاح ، ودلائل الاكتمال ، وقد ذكره القرآن الكريم بين فريضتين من فرائض الاسلام ، هما الصلاة والزكاة : **« قد افلح المؤمنون ٠ الذين هم فى صلاتهم خاشعون ٠ والذين هم عن اللغو معرضون ٠ والذين هم للزكاة فاعلون »** ٠ (المؤمنون : ١ ـ ٤)

ومن الحديث النبوى الشريف :

ـ « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، فليقل خيرا ، أو ليصمت » ٠ (متفق عليه)

ـ « اكثر خطايا ابن آدم من لسانه » • (رواه الطبرانى والبيهقى)

٢ ـ والاسـلام دين سمح يشجع على الحرية فى التفكير وابداء الرأى ، ويدعو الى تبادل المودة والتراحم بين البشر • والقرآن الكريم يحث على الصفح والعفو والاعراض عن الجاهلين • قال تعالى :

● **« •• فاصفح الصفح الجميل »** • (الحجر : ٨٥)

● **« خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين »** •
(الأعراف : ١٩٩)

● **« •• وليعفوا وليصفحوا ، ألا تحبون أن يغفر الله لكم ، والله غفور رحيم »** • (النور : ٢٢)

وقال رسـول الله صلى الله عليه وسلم :

ـ « من لا يرحم الناس لا يرحمه الله » • (رواه البخارى)

ـ « من لا يرحم لا يرحم ، ومن لا يغفر لا يغفر له » •
(رواه أحمد)

ـ « لا تنزع الرحمة الا من شقى » • (رواه أبو داوود)

٣ ـ ومن الناس من لا يسكت عنه الغضب ، اذا مسه أحـد ارغى وازبد ولعن وطعن ، والاسـلام برىء من كل هـذه الخلال الكدرة •• فالمرء يجب ان يتنزه عن لعن غيره ولو اصابه الأذى الشديد • وعلى قدر ما يكظم المسـلم غيظه ويملك قوله ، ويتجاوز الهفوات ، تكون منزلته عند الله • قال تعالى :

● **« ولا تستوى الحسـنة ولا السـيئة ، ادفع بالتى هى أحسن فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم »** • (فصلت : ٣٤)

● **« •• والكاظمين الغيظ والعـافين عن النـاس ، والله يحب المحسـنين »** • (آل عمران : ١٣٤)

● « والذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش واذا ما غضبوا هم يغفرون » . (الشورى : ٣٧)

ومن الحديث النبوى الشريف :

ـ « ليس الشديد بالصرعة (أى الذى يغلب الناس ويصرعهم) ، انما الشــديد الذى يملك نفسه عند الغضب » . (متفق عليه)

ـ « ان الله رفيق يحب الرفق فى الأمر كله » . (متفق عليه)

ـ «ان الرفق لا يكون فى شىء الا زانه ، ولا ينزع من شىء الا شانه». (رواه مسلم)

٤ ـ لقد قرر الاســلام مبدأ المساواة الانسانية ، ومبدأ العدل بين الجميع ، ثم ترك الباب مفتوحا للتفاضل بالجهد والعمل ، كما وضع فى الميزان قيما أخرى غير القيم الاقتصادية . قال تعالى فى كتابه العزيز :

● « .. ان أكرمكم عند الله أتقاكم .. » (الحجرات : ١٣)

● « .. واذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى » . (الأنعام : ١٥٢)

● « ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، يعظكم لعلكم تذكرون » . (النحل : ٩٠)

ومن الحديث النبوى الشريف فى النهى عن الظلم :

ـ « يقول الله عز وجل : وعزتى وجلالى لأنتقمن من الظالم فى عاجله وآجله . ولأنتقمن ممن رأى مظلوما فقدر أن ينصره فلم ينصره » . (رواه أحمد)

ـ « من مشى مع ظالم ليعينه وهو يعلم أنه ظالم فقد خرج من الاســلام » . (رواه الطبرانى وأحمد)

ـ « ان الناس اذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه » . (رواه أبو داوود)

٥ ـ ان الاستمساك بالصدق فى كل شىء ، وتحريه فى كل قضية ، والالتجاء اليه فى كل حكم ، دعامة أساسية فى خلق المسلم وصبغة ثابتة فى سلوكه . والكذب رذيلة محضة تنبىء عن تغلغل الفساد فى نفس صاحبها ، وعن سلوك يؤدى الى الشر ويدفع الى الاثم . قال تعالى :

● « **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين** » .
(التوبة : ١١٩)

● « **ليجزى الله الصادقين بصدقهم** .. » .
(الأحزاب : ٢٤)

● « **ان الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها** .. » .
(النساء : ٥٨)

ومن الأحاديث النبوية الشريفة :

ـ « يطبع المؤمن على الخلال كلها ، الا الخيانة والكذب » .
(رواه أحمد)

ـ « ويل للذى يحدث بالحديث ليضحك منه القوم فيكذب ، ويل له ، ويل له » . (رواه الترمذى)

ـ « أد الأمانة الى من ائتمنك ولا تخن من خانك » .
(رواه أحمد وابو داوود)

٦ ـ واذا أبرم المسلم عقدا فيجب أن يحترمه ، واذا أعطى عهدا فيجب أن يلتزمه . ومن الايمان أن يكون المرء عند كلمته ، فيعرف بين الناس بأن كلمته موثق غليظ لا خوف من نقضها . قال تعالى :

● « .. **وبعهد الله أوفوا ، ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون** » .
(الأنعام : ١٥٢)

● « .. **وأوفوا بالعهد ، ان العهد كان مسئولا** » .
(الاسراء : ٣٤)

● « وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ، ان الله يعلم ما تفعلون » .

(النحل : ٩١)

٧ ـ اذا استحكمت الأزمات وتعقدت ، وترادفت الضوائق ، فالصبر وحده هو الذى يشع النور للمسلم ليعصمه من التخبط ويهديه من القنوط . والصبر فضيلة يحتاج اليها المسلم فى دينه ودنياه ، ولا بد أن يبنى عليه آماله وأعماله . قال تعالى :

● « ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين .. » .

(محمد : ٣١)

● « .. وان تصبروا وتتقوا فان ذلك من عزم الأمور » .

(آل عمران : ١٨٦)

● « والعصر . ان الانسان لفى خسر . الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » . (سورة العصر)

● « ولنبلونكم بشىء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات ، وبشر الصابرين . الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا انا لله وانا اليه راجعون . أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة ، وأولئك هم المهتدون » . (البقرة : ١٥٥ ـ ١٥٧)

وقال عليه الصلاة والسلام : « الصبر ضياء » . (رواه مسلم)

٨ ـ والحياء علامة صادقة على طبيعة الانسان ، فهو يكشف عن قيمة ايمانه ومقدار أدبه . وعندما ترى الشخص يتحرج من فعل ما لا ينبغى ، أو ترى حمرة الخجل تصبغ وجهه اذا بدر منه ما لا يليق ، فاعلم انه حى الضمير ، طيب العنصر . وقد أوصى الاسلام بالحياء ، وجعل هذا الخلق السامى أبرز ما يتميز به المسلم من فضائل . قال رسول الله ﷺ :

ـ « ان لكل دين خلقا ، وخلق الاسلام الحياء » .

(رواه مالك)

ـ « الحياء من الايمان والايمان فى الجنة ، والبذاء من الجفاء والجفاء فى النار » . (رواه احمد)

ـ « ما كان الفحش فى شىء الا شانه ، وما كان الحياء فى شىء الا زانه » . (رواه الترمذى)

ـ « ان الله عز وجل اذا اراد ان يهلك عبدا نزع منه الحياء ، فاذا نزع منه الحياء لم تلقه الا مقيتا ممقتا (اى مبغضا) . فاذا لم تلقه الا ممقتا نزعت منه الأمانة . فاذا نزعت منه الأمانة لم تلقه الا خائنا مخونا ، نزعت منه الرحمة . فاذا نزعت منه الرحمة لم تلقه الا رجيما ملعنا . فاذا لم تلقه الا رجيما ملعنا نزعت منه ربقة (اى رباط) الاسلام » .
(رواه ابن ماجه)

٩ ـ ليس هناك ما يدعو الناس كى يعيشوا اشتاتا متناكرين ، بل ان دواعى المنطق الحق والعاطفة السليمة أن يعطف البشر بعضهم على البعض الآخر ، وأن تمهد لهم مجتمعا متكافلا تسوده المحبة . قال تعالى :

● **« يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، ان أكرمكم عند الله اتقاكم ، ان الله عليم خبير »** .
(الحجرات : ١٣)

● **« .. واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخوانا .. »** . (آل عمران : ١٠٣)

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ـ « ان الله يقول يوم القيامة : اين المتحابون بجلالى ؟ اليوم أظلهم فى ظلى يوم لا ظل الا ظلى » . (رواه مسلم)

ـ « مثل المسلمين فى توادهم وتعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد ، اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى » .

(رواه البخارى)

ـ « من استعاذ منكم بالله فأعيذوه ، ومن سال بالله فاعطوه ،

ومن دعاكم فأجيبوه ، ومن صنع اليكم معروفا فكافئوه ، فان لم تجدوا ما تكافئوه به فادعوا له حتى تروا انكم قد كافأتموه » .

(رواه أحمد وأبو داوود والنسائى)

ـ « حق الجار عليك ان مرض عدته ، وان مات شيعته ، وان افتقر اقرضته ، وان أعوز سترته ، وان أصابه خير هنأته ، وان أصابته مصيبة عزيته ، ولا ترفع بناءك فوق بنائه فتسد عليه الريح ، ولا تؤذيه بريح قدرك الا أن تغرف له منها » . (متفق عليه)

١٠ ـ وفى آداب الزيارة للبيوت ، يقول تعالى : « **يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها** .. » .

(النور : ٢٧)

وفى آداب المجالس ، قوله تعالى : « **يا أيها الذين آمنوا اذا قيل لكم تفسحوا فى المجالس فافسحوا يفسح الله لكم** .. » .

(المجادلة : ١١)

ـ وبالنسبة للأسرة وضوابطها الاجتماعية :

يحث الدين الاسلامى على الزواج لأنه يمثل نصف الدين ، ولهذا اهتمت الشريعة الاسلامية بالزواج باعتباره الدعامة الأساسية التى يقوم عليها بناء الأسرة . وقد تولى الشارع الحكيم رعايته بتفصيل قواعده وتحديد احكامه منذ التفكير فيه ، ثم أحاطه بعنايته منذ قيامه حتى ينتهى بالموت أو بغيره ، ولم يتركه للناس يقيمون قواعده وأصوله ويضعون شرائعه وأحكامه ، ليكتسب بهذه الرعاية قدسية وحماية ، ويشعر الزوجان أنهما مرتبطان برباط مقدس يظله الدين فى كل خطوة من خطواته(٢٣) .

---

(٢٣) عبد الباسط محمد حسن ، **مكانة المرأة فى التشريع الاسلامى** . مركز دراسات المرأة والتنمية بجامعة الأزهر ـ الكتاب الأول ، يوليو ١٩٧٩ ، ص ١٨ .

وأصل الزواج فى الاسلام هو الزوجة الواحدة ، وهناك أدلة **واضحة** تحث على هذا الوضع • قال تعالى :

● **« •• فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ، فان خفتم الا تعدلوا فواحدة •• »** • (النساء : ٣)

● **« ولن تستطيعوا ان تعدلوا بين النساء ولو حرصتم •• »** • (النساء : ١٢٩)

ويتبين لنا أن بوسع الانسان أن يتزوج بأكثر من واحدة بشرط أن يكون عادلا بينهن ، ولكن نظرا لاستحالة العدل فى مثل هذه الأمور فعليه بالاكتفاء بزوجة واحدة • ولكن هناك بعض الظروف الاضطرارية التى قد تدعو الشخص الى الزواج من أخرى نتيجة مرض الزوجة الأولى ، أو عدم الانجاب ، أو غير ذلك من الحالات •• وهنا لا يحرم الاسلام الزواج من أخرى ، كما تحرمه المسيحية ، وفى ذلك حرص الاسلام على أخلاقيات المسلم وصانها من الانحراف •

والاسلام يبغض الطلاق وينفر منه ، قال رسول الله ﷺ : « أبغض الحلال الى الله الطلاق » • (رواه أبو داوود وأحمد)

ويحث على علاقة زوجية دائمة يصورها القرآن الكريم فى صور رائعة ، حيث يقول سبحانه وتعالى :

● **« ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة •• »** • (الروم : ٢١)

● **« هن لباس لكم وانتم لباس لهن •• »** • (البقرة : ١٨٧)

● **« وان أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم احداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا ، اتأخذونه بهتانا واثما مبينا • وكيف تأخذونه وقد افضى بعضكم الى بعض وأخذن منكم ميثاقا غليظا »** •

(النساء : ٢٠ ـ ٢١)

ومن أجل هـذه العلاقة القوية استهجن الاسـلام الطلاق ، ونفر منه ، ورسم السـبل لحل الخلافات دون اللجوء اليه ما أمكن ذلك .. فالاسـلام يحيط عقـد الزواج بسـياج من القدسـية ، ويضفى عليـه من الجـلال ما يميزه عن سـائر العقود ، ويسمو به فوق ما يرتبط به الناس فى شـئون حياتهم من التزامات ، وينزله فى النفوس منزلة المهابة والاكبار .

وقد بغض الاسـلام الناس فى الطلاق ، وصوره فى ابشع صورة ، وحث المسـلمين على اتقائه ، باعتباره أبغض الحلال الى الله . ويقرر الاسـلام أنه لا يصح الالتجاء الى الطلاق لأسـباب يمكن علاجها أو لأمور يمكن أن تتغير فى المسـتقبل ، أو لا تحول بطبعها دون استمرار الحياة الزوجية على وجه ما .. ويأمر الاسـلام الزوجين عندما يحدث بينهما شـقاق أو نفور أن يعملا على ازالته باثارة الرحمة والوئام . وفى هـذا يقول سبحانه وتعالى : « وان امرأة خافت من بعلها نشـوزا أو اعراضا فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحا ، والصلح خير .. » .

(النساء : ١٢٨)

ويوجب الاسـلام على الزوجين اذا لم يستطيعا ان يصلحا ما بينهما أو يحققا الوفاق بوسائلهما الخاصة ، أن يعرضا أمرهما على مجلس عائلى يتألف من حكمين ، حكم من أهل المرأة وحكم من أهل الرجل ليبحثا أسباب الخلاف ، ويعملا للقضـاء على مثيراته والتوفيق بين رغبات الزوجين ، حتى يحل الصـفاء والوئام محل النفور والخصـام ، لقوله تعـالى : « وان خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها ان يريدا اصلاحا يوفق الله بينهما ، ان الله كان عليما خبيرا » .

(النساء : ٣٥)

ورتب الاسـلام على الطلاق من الناحيتين المـادية والاجتماعية نتائج خطيرة والقى بسـببه على كاهل الزوج أعباء ثقيلة ، ومن شأن هـذه النتائج والأعباء أن تحمل الزوج على ضبط النفس وتدبر الأمر قبل الاقدام على الطلاق .. فقد قرر أنه يجب على الزوج اذا طلق زوجته ان يوفيها

مؤجل صداقها ويقوم بنفقتها من مأكل ومشرب وملبس ومسكن ما دامت فى فترة العدة ، وتكون حاضنة لأولادها الصغار هى او قريباتها من بعدها حتى يكبروا ، ويقوم بنفقة الأولاد وأجور حضانتهم ورضاعهم ، حتى لو كانت الأم نفسها هى التى تقوم بذلك(٢٤) •

لقد وضع الاسلام كل هذه الضوابط والمبادىء لحماية الزوجة مما قد ينالها من اضرار بسبب وقوع الطلاق عليها ••

- **اما بالنسبة للضوابط الدينية التى تصلح للمجتمعات والجماعات والأفراد** ، فان الاسلام لم يغفلها ، لأن صلاح الفرد فيه صلاح المجتمع ••

- فالاسلام يدعو الى اكرام اليتيم ومراعاته ، وذلك فى قوله تعالى :
« فاما اليتيم فلا تقهر • واما السائل فلا تنهر • واما بنعمة ربك فحدث » •
(الضحى : ٩ - ١١)

- وانه ينفر من الرشوة ، وينهى عنها فى قوله تعالى : **« ولا تأكلوا اموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها الى الحكام لتاكلوا فريقا من اموال الناس بالاثم وانتم تعلمون »** • (البقرة : ١٨٨)

- كما ان الإسلام يدعو الى البر بالوالدين وصلة الرحم ، قال تعالى :

● **« وقضى ربك الا تعبدوا الا اياه وبالوالدين احسانا ، اما يبلغن عندك الكبر احدهما او كلاهما فلا تقل لهما اف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما »** • (الاسراء : ٢٣)

● **« ووصينا الانسان بوالديه حسنا •• »** •
(العنكبوت : ٨)

● **« ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى •• »** •
(النحل : ٩٠)

● **« وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل •• »** •
(الاسراء : ٢٦)

---

(٢٤) على عبد الواحد وافى ، مرجع سابق ، ص ١٢٢ - ١٢٧

● « فهل عسيتم ان توليتم ان تفسدوا فى الأرض وتقطعوا ارحامكم . اولئك الذين لعنهم الله فاصمهم واعمى ابصارهم » .

(محمد : ٢٢ ـ ٢٣)

وهناك العديد من الآيات الضابطة التى لها تاثيرها الفعال على توجيه الأفراد وارشادهم الى ما فيه خيرهم وخير مجتمعهم .. وقد حدد الاسـلام احكاما وعقوبات للردع عن ارتكاب ما نهى عنه ، وقد شرعت العقوبات الشرعية رحمة من الله تعالى بعباده . والعقوبات منها ما هو مقدر كالحدود ، ومنهـا ما هو غير مقدر كالتعازير ، وتختلف مقاديرها باختلاف احوال الجرائم كبيرها وصـغيرها وبحسب حال مرتكبهـا ..

« والحد » هو عقوبة مقررة حددها الشارع وهى خمسة : قطع اليد فى السرقة ، والرجم او الجلد مائة جلدة فى الزنا ، والجلد ثمانين جلدة فى شرب الخمر ، والجلد ثمانين جلدة فى القذف ، وحد قطع الطريق .. و « التعزير » يكون فى غير ذلك من الجرائم ، ويقع بالحبس او بالضرب او بغير ذلك ، ومتروك أمره من حيث الكم والكيف للقاضى(٢٥) .

وتنبىء كل هـذه المبادىء الاسلامية عن متانة البناء الاجتماعى وقوة أركانه وصلاحيته للرجوع اليه فى كل زمان ومكان ، بين جميع الناس . ولقد ازدهرت الأمة الاسـلامية واستطاعت أن تؤسس حضارتها العظيمة طوال قرون عديدة ، طالمـا كان المسلمون يلجأون الى شريعتهم السمحة والى كتابهم الكريم وتوجيهات الرسول عليه افضل الصلاة والسلام .

* * *

---

(٢٥) احمد فتحى بهنسى ، العقوبة فى الفقه الاسلامى (ط ٣) . القاهرة : دار الكتاب العربى ، ١٩٧٧ ، ص ٩ ـ ١٠

الفصل السابع

خاتمـــة

العـدالة الاجتماعية فى الاسـلام(١)

يقيم الاسلام هـذه العدالة الاجتماعية على اسس ثابتة ، ويحدد لبلوغ أهدافها وسائل معينة .. فلا يدعها قضية غامضة ، ولا دعوة مجملة ، حيث ان الاسلام بطبيعته دين تنفيذ وعمل فى واقع الحياة ، لا دين دعوة وارشـاد مجردين فى عالم المثاليات .. ان الواقع الذى يعـده الاسـلام حقيقة ليس واقع فرد ، ولا واقع امة ، ولا واقع جيل .. انما يمد ببصره الى جميع الآفاق ، ويحسب حسـابا لجميع المصالح ، ويستهدف تحقيق غاية تشـمل الانسانية كلها .. وهـذه النظرة الكلية بعيدة الأهداف الى العدالة الاجتماعية ، هى التى تفسر لنا نظما عـدة فى الاسـلام ، فهى التى تفسر لنا نظام الملكية الفردية ، ونظام الارث ، ونظام الزكاة ، ونظام المعاملات ، ونظام الحكم .. الى آخر ما يتضمنه الاسلام من نظم تتناول الأفراد والجماعات والأمم والأجيال .

ولسـنا هنا بصـدد الحديث عن ذلك كله ، فسنقتصر على تناول الأسس العـامة التى اقام عليها الاسـلام بناء العـدالة الاجتماعية فى حدود فكرته الكلية . وسنرى من طبيعتها ان الاسـلام قد نظر الى وحدة الروح والجسد فى الفرد ، والى وحدة المعنويات والمـاديات فى الحياة . كما نظر الى وحدة الهدف بين الفرد والجماعة ، ووحدة المصـلحة بين الجماعات المختلفة فى الأمة الواحدة ، ووحدة الغاية بين الأمم الانسانية ، ووحدة الصلة بين الأجيال المتعاقبة على اختلاف المصالح القريبة المحدودة .

---

(١) مأخوذ عن : سـيد عبد الحميـد مرسى ، الدين للحيـاة ، مرجع سابق ، ص ١٨١ ـ ١٩٩

وهذه الأسس التى اقام عليها الاسلام العدالة الاجتماعية هى :

ـ التحرر الوجدانى المطلق .

ـ المساواة الانسانية الكاملة .

ـ التكافل الاجتماعى الوثيق .

وسنناقش هذه الأسس فيما يأتى :

اولا ـ التحرر الوجدانى :

لن تتحقق عدالة اجتماعية كاملة ، ولن يضمن لها التنفيذ والاستمرار والبقاء ، ما لم تستند الى شعور نفسى باطنى باستحقاق الفرد لها ، وبحاجة الجماعة اليها ، وبعقيدة فى انها تؤدى الى طاعة الله والى واقع انسانى اسمى . وما لم تستند كذلك الى واقع مادى يهيىء للفرد ان يتمسك بها ويدافع عنها ويحتمل تكاليفها . ولن يستحقها الفرد بالتشريع قبل ان يستحقها بالشعور ، وبالقدرة العملية على استدامة هذا الشعور . ولن تحافظ الجماعة على التشريع ان وجد ، الا وهناك عقيدة تؤيده من الداخل ، وامكانات عملية تؤيده من الخارج .. وهذا ما نظر اليه الاسلام فى توجيهاته وتشريعاته جميعا .

لقد بدأ الاسلام بتحرير الوجدان البشرى من عبادة احد غير الله ، ومن الخضوع لأحد غير الله . فما لأحد عليه غير الله من سلطان ، وما من احد يميته أو يحييه الا الله ، وما من احد يملك له ضرا ولا نفعا ، وما من احد يرزقه من شىء فى الأرض ولا فى السماء ، وليس بينه وبين الله وسيط ولا شفيع ، والله وحده القادر الذى يستطيع ، والكل سواه عبيد ، لا يملكون لأنفسهم ولا لغيرهم شيئا . قال تعالى : « **قل هو الله احد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفوا احد** » .

(سورة الاخلاص)

واذا توحد الله توحدت عبادته ، واتجه اليه الجميع فلا عبادة لسواه ، كى لا يتخذ الناس بعضهم بعضا اربابا من دون الله ، ولا يكون لأحد منهم فضل على احد الا بعمله وتقواه : « **قل يا اهل الكتاب تعالوا**

الى كلمة سواء بيننا وبينكم الا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا اربابا من دون الله ٠٠ » ٠ (آل عمران : ٦٤)

ويحرص الاسلام على هذا المعنى حرصا شديدا ، فيركز عليه القرآن الكريم فى مناسبات شتى ٠ ولما كان الأنبياء هم مظنة أن يتجه اليهم الناس بشىء من العبادة ، أو ما فى معناها على وجه من الوجوه ، فقد عنى الاسلام بتحرير وجدان البشرية من هذه الناحية تحريرا كاملا ٠ فيقول عن نبيه محمد ﷺ : « **وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل ، افئن مات او قتل انقلبتم على اعقابكم ٠٠** » ٠

(آل عمران : ١٤٤)

ويخاطب النبى محمد ﷺ فى صراحة قوية : « **ليس لك من الأمر شىء ٠٠** » ٠ (آل عمران : ١٢٨)

كما يخاطبه فى موضع آخر بما يشبه التهديد : « **ولولا ان ثبتناك لقد كدت تركن اليهم شيئا قليلا ٠ اذن لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيرا** » ٠ (الاسراء : ٧٤ ـ ٧٥)

وكان ذلك بشأن محاولات المشركين مع الرسول الكريم لفتنته عما أوحى الله اليه ٠ ولقد حاولوا هذه المحاولة فى صور شتى ٠٠ منها مساومتهم له أن يعبدوا الهه فى مقابل أن يترك التنديد بآلهتهم وما كان عليه آباؤهم ٠٠ ومنها مساومة بعضهم له أن يجعل أرضهم حراما كالبيت العتيق الذى حرمه الله ٠ ومنها طلب بعض الكبراء أن يجعل لهم مجلسا غير مجلس الفقراء ٠٠ والنص القرآنى يشير الى هذه المحاولات ولا يفصلها ، ليذكر فضل الله على رسوله فى تثبيته على الحق ، وعصمته من الفتنة ٠ ولو تخلى عنه تثبيت الله وعصمته لركن اليهم فاتخذوه خليلا ، وللقى عاقبة الى فتنة المشركين ، وهى مضاعفة العذاب فى الحياة وبعد الممات ، دون أن يجد له نصيرا منهم يعصمه من الله ٠

كما يدعوه القرآن الكريم الى أن يجهر بحقيقة موقفه : « **قل انما ادعوا ربى ولا اشرك به احدا . قل انى لا املك لكم ضرا ولا رشدا . قل انى لن يجيرنى من الله احد ولن اجد من دونه ملتحدا** » .
(الجن : ٢٠ – ٢٢)

ويتحدث القرآن الكريم عمن الهوا عيسى ابن مريم . فيصمهم بالكفر : « **لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح ابن مريم ، قل فمن يملك من الله شيئا ان أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وامه ومن فى الأرض جميعا ..** » . (المائدة : ١٧)

ويقول عن المسيح فى موضع آخر : « **ان هو الا عبد انعمنا عليه وجعلناه مثلا لبنى اسرائيل** » . (الزخرف : ٥٩)

كما يعرض صورة من تأليه العباد للعباد ، تتمثل فى تلقى الشرائع منهم ، وجعلهم بذلك أربابا ولو لم يعتقدوا بالوهيتهم أو يقدموا لهم شعائر العبادة : « **اتخذوا احبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا الا ليعبدوا الها واحدا ، لا اله الا هو ، سبحانه عما يشركون** » . (التوبة : ٣١)

وهكذا يستمر القرآن الكريم فى توكيد هذه العقيدة وتثبيتها وتوضيحها . ليصل الى تحرير الوجدان البشرى من كل شبهة شرك قد تضغط هذا الوجدان ، وتخضعه لمخلوق من عباد الله ، أن يكن نبيا أو رسولا ، فانه عبد من عباده . واذا انتفى أن يكون عبد بذاته مميزا عند الله عن عبد بذاته ، انتفت الوسائط بين الله وعباده جميعا ، فلا كهانة ولا وساطة ، بل يتصل كل فرد صلة مباشرة بخالقه ، يستمد منه القوة والعزة والشجاعة ، ويشعر برحمة الله وعنايته وعطفه ، فيشتد ايمانه وتقوى معنوياته .

والاسلام حريص كل الحرص على تقوية هذه الصلة ، واشعار

الفرد انه يملك الاستعانة بتلك القوة الكبرى آناء الليل واطراف النهار ٠ يقول تعـالى :

● « **واذا سألك عبادى عنى فانى قريب ، أجيب دعوة الداع اذا دعان ، فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون** » ٠

(**البقرة : ١٨٦**)

● « **ولا تيأسـوا من روح الله ، انه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون** » ٠ (يوسف : ٨٧)

● « **قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمـة الله ، ان الله يغفر الذنوب جميعا** » ٠ (الزمر : ٥٣)

فاذا تحرر الوجدان من شـعور العبادة والخضـوع لعبد من عباد الله ، وامتلأ الشـعور بأنه على اتصال كامل بالله ، لم يتأثر بشـعور الخوف على الحياة أو الرزق أو المكانة ٠٠ وهو شـعور خبيث يغض من احساس الفرد بنفسه ، وقد يدعوه الى قبول الذل والتنازل عن كثير من حقوقه وكرامته ٠٠ ولكن الاسـلام لشدة حرصه على أن يحقق للناس العزة والكرامة ٠ وأن يبث فى نفوسهم الاعتزاز بالحق والمحافظة على العدل ، وأن يضمن بذلك كله ـ علاوة على التشريع ـ عدالة اجتماعيـة مطلقة ٠ لا يفرط فيها انسـان ٠٠ لهذا كله يعنى الاسـلام عناية خاصـة بأن يقاوم الشـعور بالخوف على الحيـاة وعلى الرزق وعلى المكانة ، فالحيـاة بيد الله ، وليس لمخلوق قدرة على أن ينقص هذه الحيـاة ساعة أو بعض ساعة ، كما أن النفع والضر بيد الخالق ـ سبحانه ـ دون سواه ، قال تعـالى :

● « **وما كان لنفس أن تموت الا باذن الله كتابا مؤجلا ٠٠** » ٠

(آل عمران : ١٤٥)

● « **قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا هو مولانا ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون** » ٠ (التوبة : ٥١)

● « قل لا أملك لنفسى ضرا ولا نفعا الا ما شاء الله ، لكل أمة اجل ، اذا جاء اجلهم فلا يستأخرون ساعة ، ولا يستقدمون » .
(يونس : ٤٩)

● « قل اغير الله اتخذ وليا فاطر السموات والأرض وهو يطعم ولا يطعم .. » . (الأنعام : ١٤)

● « الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر .. » . (الرعد : ٢٦)

● « وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها واياكم .. » .
(العنكبوت : ٦٠)

● « قل من يرزقكم من السماء والأرض أم من يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ومن يدبر الأمر ، فسيقولون الله .. » . (يونس : ٣١)

● « يا أيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم ، هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض ، لا اله الا هو ، فأنى تؤفكون » .

(فاطر : ٣)

● « ولا تقتلوا أولادكم من املاق ، نحن نرزقكم واياهم .. » .
(الأنعام : ١٥١)

● « قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء ، بيدك الخير ، انك على كل شىء قدير » . (آل عمران : ٢٦)

واخيرا فقد تتحرر النفس البشرية من عبودية القداسة ، ومن خوف الموت والأذى والفقر والهوان ، ومن كل الاعتبارات الخارجية والقيم الاجتماعية ، ثم تبقى مستذلة لذاتها ، مستذلة لشهواتها ومطامعها واهوائها ، فياتى لها القيد من داخل حين تنفلت منه من خارج ، فلا تبلغ

التحرر الوجدانى الكامل الذى يريده الاسلام لها ، ليحقق لهـا العدالة الاجتماعية الانسانية الكبرى .. والاسلام لا يغفل عن هـذا الخطر الكامن على التحرر الوجدانى ، فيلقى اليه التفاتة عميقة ، تشهد بعنايته بدخائل النفس البشرية وأغوارها ، وتدل على رعايته لكل استعداداتها وملابساتها . قال تعالى : « **قل ان كان آباؤكم وأبناؤكم واخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأمـوال اقترفتموها وتجارة تخشـون كسادها ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره ، والله لا يهدى القوم الفاسـقين** » . (التوبة : ٢٤)

وهكذا يجمع القرآن الكريم فى آية واحدة جميع اللذائذ والمطامح والرغبات ونقط الضعف فى نفس الانسان ، ليضعها فى كفة ، ويضـع فى الكفة الأخرى حب الله ورسوله وحب الجهاد فى سبيل الله والتخلص من سيطرة الشهوات . فالنفس التى تتحرر من هـذا كله هى النفس التى يتطلبها الاسـلام ، ويدعو الى تكوينها لتستعلى على الضراوة المذلة ، وتملك قياد امرها ، وتنزع الى ما هو اكبر وأبعـد مدى من الرغبـات الوقتية العابرة .

وفى آية أخرى : « **زين للناس حب الشـهوات من النســاء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ، ذلك متاع الحياة الدنيا ، والله عنده حسن المـآب . قل أؤنبئكم بخير من ذلكم ، للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله ، والله بصير بالعباد** » .
(آل عمران : ١٤ ــ ١٥)

وما كان هـذا تحذيرا ولا دعوة الى الزهد وترك طيبات الحياة ، انما كان دعوة للتحرر والانطلاق من ضعف الشهوات ، ثم لا ضرر بعـد ذلك من الاستمتاع بالحياة حين يملكها الانسان ولا تملكه . قال تعالى :

● « **قل من حرم زينـة الله التى أخرج لعباده والطيبـات من الرزق ..»** . (الأعراف : ٣٢)

● « .. **ولا تنس نصيبك من الدنيا ..** » . (القصص : ٧٧)

وقد يتحرر المرء من كل ما يقلل شعوريا من كرامته ، ولكنه يحتاج الى لقمة العيش فيذل ، ولقد يضطر للاستجداء ، فتذهب كرامته كلهـا ضياعا . هنا يتولى الاسلام الأمر بالتشريع لمنع أسباب الحاجة ولازالتها حين توجد .. فيجعل للفرد حقه فى الكفاية مفروضا على الدولة وعلى القادرين فى الأمة ، فرضا يعاقب عليه فى الآخرة ويقاتل عليه فى الدنيا . ثم ينهى عن الاستجداء ، فيصف جماعة من المسلمين ، الذين احصروا فى سـبيل الله لا يستطيعون ضربا فى الأرض ، وصف استحسان بأنهم : « **لا يسـألون الناس الحافا** » (البقرة : ٢٧٣) . والنبى ﷺ يعطى سائلا درهما ثم يقول : « لأن يأخذ أحدكم حبله فيأتى بحزمة حطب على ظهره ، فيبيعها ، فيكف الله بها وجهة ، خير من ان يسال الناس أعطوه أو منعوه » . (رواه الشيخان)

ويقول : « اليد العليا خير من اليد السفلى » . (رواه الشيخان) .

أما أموال الزكاة فهى حق يؤخذ ، لا فضل يعطى : « **وفى أموالهم حق للسـائل والمحروم** » . (الذاريات : ١٩)

فهى حق تأخذه الدولة لتملكه لأصحابه ، وتنفق منه فى مصـالح المسـلمين بما يشـبع حاجة الجسد ، ويحفظ كرامة النفس ، ويصـون عزة الوجدان .

وهكـذا يأخذ الاسـلام الأمر من وجوهه كلهـا .. فيكفل التحرر الوجدانى تحررا مطلقا يقوم على الاقتصاديات والمعنويات .. فيعرف للحياة واقعها ، والنفس طاقتها ، ويدفع الطبيعـة البشرية الى التحرر

الوجدانى كاملا صريحا . وهـذا التحرر هو أحـد الأسس الركينة لبنـاء العـدالة الاجتماعية فى الاسـلام ..

* * *

ثانيا ـ المسـاواة الانسانية :

عندما يستشعر الضمير البشرى كل هـذا التحرر الوجدانى ، ويجد من الضمانات الواقعية والقـانونية ما يؤكد فى نفسه هـذا الشـعور ، فلن يكون فى حاجة لمن يهتف له بالمسـاواة لفظا ، وقد استشعرها فى أعماقه معنى ، ووجدها فى حياته واقعا . انه لن يصبر على التفاوت القائم فى المجتمع ، بل سيطلب حقه فى المساواة ، وسيجاهد لتقرير هذا الحق ، وسيعمل على الاحتفاظ به حين يناله ، ولن يقبل عنـه بديلا ، وسيصبر على تكاليف الاحتفاظ به والذود عنه ، مهما بذل فى ذلك من جهد وتضحية .

ولكن الاسـلام مع ذلك لم يكتف بالمفاهيم الضمنية المستفادة من التحرر الوجدانى . فقرر مبدأ المساواة باللفظ والنص ، ليكون كل شىء واضحا مقررا .. ففى الوقت الذى كان البعض يدعى ويصدق أنه من نسـل الآلهة ، والبعض يدعى ويصدق أن الدماء التى تجرى فى عروقه هى من الدم الأزرق النبيل ، وفى الوقت الذى كانت بعض الملل تفرق الشـعوب الى طبقات ، وفى الوقت الذى كان يدور فيه الجدل حـول المرأة ، وفى الوقت الذى يباح فيه للسيد أن يعذب عبيده ويقتلهم لأنهم من طينة أخرى غير طينة السـادة .. فى هذا الوقت جاء الاسلام ليقرر وحدة الجنس البشرى فى المنشأ والمصير ، فى المحيا والممات ، فى الحقوق والواجبات ، أمام القانون وأمام الله ، فى الدنيا وفى الآخرة ، لا فضل الا للعمل الصالح .. فالاله لم ينسل أحدا :

- **« قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفوا أحـد » .** (سورة الاخلاص)

● « وقالوا اتخذ الرحمن ولدا • لقد جئتم شيئا ادا • تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا • أن دعوا للرحمن ولدا • وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولدا • ان كل من فى السموات والأرض الا آتى الرحمن عبدا • لقد أحصاهم وعدهم عدا • وكلهم آتيه يوم القيامة فردا » • (مريم : ٨٨ ـ ٩٥)

● « ألم نخلقكم من ماء مهين • فجعلناه فى قرار مكين • الى قدر معلوم • فقدرنا فنعم القادرون » • (المرسلات : ٢٠ ـ ٢٣)

● « فلينظر الانسان مم خلق • خلق من ماء دافق • يخرج من بين الصلب والترائب » • (الطارق : ٥ ـ ٧)

● « والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجا ، وما تحمل من أنثى ولا تضع الا بعلمه ، وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره الا فى كتاب ، ان ذلك على الله يسير » • (فاطر : ١١)

● « ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين • ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين • ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم انشأناه خلقا آخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين » • (المؤمنون : ١٢ ـ ١٤)

وفى هذا المعنى يقول النبى محمد ﷺ : « أنتم بنو آدم ، وآدم من تراب » • (رواه مسلم وأبو داوود)

ويتعقب الاسلام مظان التفاوت والتفاضل ـ الا بالتقوى والعمل الصالح ـ فى كل صورها وملابساتها وأسبابها ، ليقضى عليها جميعا •• فهذا النبى محمد ﷺ ، ما يفتأ القرآن يذكر الناس انه بشر كسائر البشر ، وما يفتأ محمد ﷺ ذاته يكرر هذا المعنى ، خشية أن ينقلب حب قومه له وتبجيلهم اياه الى تأليه أو قدسية لا تكون الا لله سبحانه ، فيقول ﷺ لقومه : « لا تطرونى كما أطرت النصارى ابن مريم ، فانما أنا عبد ، فقولوا عبد الله ورسوله » • (رواه البخارى)

واما بين الجنسين ، فقد كفل الاسلام للمراة مساواة تامة مع الرجل من حيث الحقوق الانسانية ، ولم يقرر التفاضل الا فى بعض الملابسات المتعلقة بالاستعداد أو التبعة ، مما لا يؤثر على حقيقة الوضع الانسانى للجنسين ..

ففى الناحية الدينية والروحية يتساويان ، قال تعالى :

● « ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا » . (النساء : ١٢٤)

● « من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » .
(النحل : ٩٧)

● « فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى ، بعضكم من بعض .. » . (آل عمران : ١٩٥)

وفى ناحية الأهلية للملك والتصرف الاقتصادى يتساويان ، قال تعالى :

● « للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون .. » . (النساء : ٧)

● « .. للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن ..
(النساء : ٣٢)

وحسب الاسلام ما كفل للمراة من مساواة دينية ، ومن مساواة فى التملك والكسب ، وما حقق لها من ضمانات فى الزواج باذنها ورضاها ، دون اكراه أو اهمال ، قال تعالى :

● « .. فآتوهن اجورهن فريضة .. » . (النساء : ٢٤)

● « فامسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف ، ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا .. » . (البقرة : ٢٣١)

وأخيرا فان للجنس البشرى كله كرامته التى لا يجوز أن تستذل . وللناس جميعا ـ فى المجتمع المسلم ـ كراماتهم التى لا يجوز أن يسخر منها أحد أو يحط من قدرها . قال تعالى :

● « ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » .

(الاسراء : ٧٠)

● « يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب ، بئس الاسم الفسوق بعد الايمان ، ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون » . (الحجرات ١١)

وللناس جميعا فى المجتمع المسلم حرماتهم ، قال تعالى :

● « يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ، ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون . فان لم تجدوا فيها احدا فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم ، وان قيل لكم ارجعوا فارجعوا ، هو أزكى لكم ، والله بما تعملون عليم » . (النور : ٢٧ ـ ٢٨)

● « .. ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا .. » .

(الحجرات : ١٢)

وهكذا يتتبع الاسلام كل ناحية من حياة الناس الوجدانية والاجتماعية ، ليؤكد فيها معنى المساواة . ولم يكن فى حاجة لأن يتحدث عن المساواة لفظا وصورة كما أسلفنا ، بعد ما حققها معنى وروحا ، بالتحرر الوجدانى الكامل من جميع القيم وجميع الملابسات وجميع الضرورات ، وكفل لها فى عالم الواقع كل الضمانات . ولكنه يحرص على المساواة حرصا شديدا ، ويريدها انسانية كاملة غير محدودة بعنصر ولا قبيلة ولا مركز ، كما يريدها أبعد مدى من دائرة الاقتصاديات وحدها ، مما وقفت عنده المذاهب المادية .

* * *

ثالثا ـ التكافل الاجتماعى :

الاســـلام يمنح الحرية الفردية فى اجمل صورها ، والمســـاواة الانسانية فى أدق معانيها . ولكنه لا يتركهما فوضى ، فللمجتمع حسابه ، وللانسانية اعتبارها ، وللأهداف العليـا للدين قيمتها . لذلك يقرر مبدا التبعة الفردية ، فى مقابل الحرية الفردية ، ويقرر الى جانبها التبعة الجماعيـة التى تشـمل الفرد والجمـاعة بتكاليفها . وهـذا ما نسميه بـ « التكافل الاجتماعى » . فالاسلام يقرر مبدأ التكافل فى كل صوره وأشكاله .. فهناك تكافل بين الفرد وذاته ، وبين الفرد وأسرته ، وبين الفرد والجماعة ، وبين الأمة والأمم ، وبين الجيل والأجيال المتعاقبة .

١ ـ هناك تكافل بين الفرد وذاته .. فهو مكلف بأن ينهى نفسـه عن شـهواتها ، وأن يزكيها ويطهرها ، وأن يسلك بها طريق الصـلاح والا يلقى بها الى التهلكة . قال تعالى :

● « فأما من طغى . وآثر الحيـاة الدنيا . فان الجحيم هى المـأوى . وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى . فان الجنة هى المـأوى » . (النازعات : ٣٧ ـ ٤١)

● « ونفس وما سواها . فألهمها فجورها وتقواها . قد افلح من زكاها . وقد خاب من دساها » . (الشمس : ٧ ـ ١٠)

● « .. ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة » . (البقرة : ١٩٥)

وهو مكلف فى الوقت ذاته أن يمتع نفسه فى الحدود التى لا تفسد فطرتها ، وأن يمنحها حقها من العمل والراحة فلا ينهكها ويضعفها . قال تعـالى :

● « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيـا » . (القصص : ٧٧)

● « يا بنى آدم خـذوا زينتكم عند كل مسـجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا ، انه لا يحب المسرفين » . (الأعراف : ٣١)

والتبعة الفردية كاملة .. فكل انسان وعمله ، وكل أنسان وما يكسب لنفسه من خير أو شر ، ومن حسنة أو سيئة ، ولن يجزى عنه أحد فى الدنيا ولا فى الآخرة ، قال تعالى :

● « كل نفس بما كسبت رهينة » . (المدثر : ٣٨)

● « أم لم ينبأ بما فى صحف موسى . وابراهيم الذى وفى . الا تزر وازرة وزر أخرى . وأن ليس للانسان الا ما سعى . وأن سعيه سوف يرى . ثم يجزاه الجزاء الأوفى » . (النجم : ٣٦ - ٤١)

● « لا يكلف الله نفسا الا وسعها ، لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت .. » . (البقرة : ٢٨٦)

● « .. فمن اهتدى فلنفسه ، ومن ضل فانما يضل عليها ، وما أنت عليهم بوكيل » . (الزمر : ٤١)

● « ومن يكسب اثما فانما يكسبه على نفسه .. » . (النساء : ١١١)

وبذلك كله يقف الانسان من نفسه موقف الرقيب ، يهديها ان ضلت ، ويمنحها حقوقها المشروعة ، ويحاسبها ان أخطأت ، ويحتمل تبعة اهماله لها . وبذلك يقيم الاسلام من كل فرد رقيبا على نفسه ، يلاحظ ويحاسب ويعمل على التكافل فى الخير والشر ، فى مقابل منح الفرد التحرر الوجدانى الكامل ، والمساواة الانسانية التامة ، فالحرية والتبعة تتكافآن وتتكافلان .

٢ - **وهناك تكافل بين الفرد وأسرته** ، وقيمة هذا التكافل فى محيط الأسرة أنه قوامها الذى يمسكها . فالأسرة هى اللبنة الأولى فى المجتمع ، ولا مفر من الاعتراف بقيمتها .. فهى تقوم على الميول الثابتة فى الفطرة الانسانية ، وعلى عواطف المودة والرحمة ، ومقتضيات الضرورة والمصلحة . قال تعالى :

● « وقضى ربك الا تعبدوا الا اياه وبالوالدين احسانا ، اما يبلغن

عندك الكبر احدهما أو كلاهما فلا تقل لهما اف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما • واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صـــغيرا » • (الاسراء : ٢٣ ـ ٢٤)

● « ووصينا الانسان بوالديه حملته امه وهنا على وهن وفصاله فى عامين أن اشكر لى ولوالديك •• » • (لقمان : ١٤)

● « •• وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله •• » •

(الأحزاب : ٦)

● « والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين ، لمن أراد أن يتم الرضاعة ، وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، لا تكلف نفس الا وسعها ، لا تضار والدة بولدها ولا مولود له بولده » •

(البقرة : ٢٣٣)

٣ ـ وهناك تكافل بين الفرد والجماعة ، يوجب على كل منهما تبعات ، ويرتب لكل منهما حقوقا • والاسـلام يبلغ فى هـذا التكافل حـد التوحيد بين المصلحتين ، وحـد الجزاء والعقاب على تقصير ايهما فى النهوض بتبعاته فى شتى مناحى الحياة المعنوية والمـادية على السواء • فكل فرد مكلف أولا أن يحسن أداء عمله ، فاحسان العمل عبادة لله ، لأن ثمرة العمل الذى يقوم به الفرد ملك للجماعة وعائدة عليها فى النهاية • قال تعالى : « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون •• » •

(التوبة : ١٠٥)

وكل فرد مكلف أن يراعى مصالح الجماعة كأنه حارس لها وموكل بها • والحياة سفينة فى خضم ، والراكبون فيها جميعـا مسئولون عن سـلامتها ، وليس لأحـد منهم أن يخرق موضـعه منهـا باسم الحـرية الفردية • وفى الحديث النبوى الشريف : « مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا فى سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها ، فكان الذين فى أسفلها اذا استقوا مروا على من فوقهم ، فقالوا :

لو انا خرقنا فى نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا ، فان تركوهم وما ارادوا هلكوا ، وان اخذوا على ايديهم نجوا جميعا » .
(رواه البخارى والترمذى)

وهذا تصوير بديع لتشابك المصالح وتوحدها ، بازاء التفكير الفردى الذى يأخذ بظاهر المعانى النظرية ، ولا يفكر فى آثار الوقائع العملية ، ورسم دقيق لواجب الفرد وواجب الجماعة فى مثل هـذه الأحوال .. وليس هناك فرد معفى من رعاية المصالح العامة ، فكل فرد راع ورعية فى المجتمع : « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » . (رواه الشيخان)

والتعـاون بين جميع الأفراد واجب لمصلحة الجماعة فى حـدود البر والمعروف :

● « .. وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الاثم والعدوان .. » . (المـائدة : ٢)

● « ولتكن منكم امة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر .. » . (آل عمران : ١٠٤)

وكل فرد مسئول بذاته عن الأمر بالمعروف ، فان لم يفعل فهو آثم وهو يعاقب باثمه ، قال تعالى : « خذوه فغلوه . ثم الجحيم صلوه . ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه . انه كان لا يؤمن بالله العظيم . ولا يحض على طعام المسكين . فليس له اليوم ها هنا حميم . ولا طعام الا من غسلين . لا ياكله الا الخاطئون » . (الحاقة : ٣٠ ـ ٣٧)

وكل فرد مكلف ان يزيل المنكر الذى يراه .. فكل فرد مسئول عن كل منكر يقع فى الأمة ولو لم يكن شريكا فيه ، فالأمة واحدة ، وعلى كل فرد ان يذود عنها ويحميها . وفى الحديث الشريف : « من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فمن لم يستطع فبلسانه ، فمن لم يستطع فبقلبه وهو اضعف الايمان » . (رواه مسلم وابو داوود والترمذى)

والأمة كلها تؤاخذ وينالها الأذى والعقاب فى الدنيا والآخرة اذا سكتت عن وقوع المنكر فيها من بعض بنيها ، فهى مكلفة أن تقوم كل فرد فيها . قال تعالى : **« واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا »** . (الاسراء : ١٦)

ولقد استحق بنو اسرائيل اللعنة على لسان انبيائهم ، وذهبت ريحهم ، لأنهم لم يكونوا يغيرون المنكر ولم يكونوا يتناهون عنه . قال تعالى : **« لعن الذين كفروا من بنى اسرائيل على لسان داوود وعيسى ابن مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ، لبئس ما كانوا يفعلون »** . (المائدة : ٧٨ ـ ٧٩)

ومن الحديث النبوى الشريف :

ـ « يقول الله عز وجل : وعزتى وجلالى لأنتقمن من الظالم فى عاجله وآجله . ولأنتقمن ممن راى مظلوما فقدر أن ينصره فلم ينصره » .
(رواه أحمد)

ـ « ان الناس اذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه » . (رواه أبو داوود)

ـ « ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصى ثم يقدرون على أن يغيروا فلم يغيروا الا يوشك أن يعمهم الله بعقاب » .
(رواه أبو داوود والترمذى)

والأمة مسئولة عن حماية الضعفاء فيها ورعاية مصالحهم وصيانتها ، وعليها أن تقاتل عند اللزوم لحمايتهم ، قال تعالى : **« وما لكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان .. »** .
(النساء : ٧٥)

وعليها أن تحفظ لهم أموالهم حتى يرشدوا : **« وابتلوا اليتامى حتى اذا بلغوا النكاح فان آنستم منهم رشدا فادفعوا اليهم أموالهم ولا تأكلوها**

اسرافا وبدارا ان يكبروا ، ومن كان غنيا فليستعفف ، ومن كان فقيرا فلياكل بالمعروف ، فاذا دفعتم اليهم اموالهم فاشهدوا عليهم ، وكفى بالله حسيبا » . (النساء : ٦)

وفى الحديث : « الساعى على الأرملة والمسكين كالمجاهد فى سبيل الله ، او القائم الليل ، الصائم النهار » .
(رواه الشيخان والترمذى والنسائى)

والأمة المسلمة كلها جسد واحد ، يحس احساسا واحدا ، وما يصيب عضوا منه يشتكى له سائر الأعضاء . وهذه صورة جميلة يرسمها الرسول الكريم فيقول : « مثل المؤمنين فى توادهم ، وتراحمهم ، وتعاطفهم : كمثل الجسد ، اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » .
(متفق عليه)

وعلى هذا الأساس وضعت الحدود فى الجرائم الاجتماعية وشددت ، لأن التعاون لا يقوم الا على اساس صيانة حياة كل فرد فى دار الاسلام وماله وحرماته . وفى الحديث : « كل المسلم على المسلم حرام : دمه وعرضه وماله » . (رواه الشيخان)

لذلك شرع القصاص فى القتل والجروح جزاء وفاقا . قال تعالى :

● « ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها .. » .
(النساء : ٩٣)

● « وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص .. » .
(المائدة : ٤٥)

● « ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون » .
(البقرة : ١٧٩)

وشدد عقوبة الزنا لما فيها من اعتداء على العرض ، وعبث بالحرمة ، ونشر للفاحشة فى الجماعة • قال تعالى : « **الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ، ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ••** » • (النور : ٢)

وجعل العقوبة ثمانين جلدة للذين يرمون المحصنات المؤمنات ويفترون عليهن ، ويلوثون اعراضهن كذبا • قال تعالى : « **والذين يرمون المحصنات ثم لم ياتوا باربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة ابدا ••** » • (النور : ٤)

وشدد العقوبة على السرقة لما فيها من اعتداء على أمن الناس وطمأنينتهم والثقة المتبادلة بينهم ، فجعلها قطع اليد : « **والسارق والسارقة فاقطعوا ايديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله ••** » •

(المائدة : ٣٨)

والذين يهددون أمن الجماعة العام ـ فى دار الاسلام المحكومة بشريعة الله ـ جزاؤهم القتل او الصلب او تقطيع الأيدى والأرجل أو النفى من الأرض : « **انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا ان يقتلوا او يصلبوا او تقطع ايديهم وارجلهم من خلاف او ينفوا من الأرض ••** » • (المائدة : ٣٣)

لأن الائتمار والاجتماع على الافساد والفتنة جريمة اكبر من الجرائم الفردية ، واحق بالحسم وشدة العقوبة •

وهكذا يفرض الاسلام التكافل الاجتماعى فى كل صوره واشكاله ؛ تمشيا مع نظرته الأساسية الى وحدة الأهداف الكلية للفرد والجماعة ، وفى تناسق الحياة وتكاملها •• فيدع للفرد حريته كاملة فى الحدود التى لا تؤذيه ، ولا تأخذ على الجماعة الطريق ، ويجعل للجماعة حقوقها ؛

ويكلفها من التبعات فى الوقت ذاته كفاء هـذه الحقوق ، لتسير الحياة فى طريقها السوى القويم ، وتصل الى أهدافها العليا التى يخدمها الفرد وتخدمها الجماعة سواء ٠

وعلى تلك الأسس الثلاثة : التحرر الوجدانى المطلق ، والمساواة الانسانية الكاملة ، والتكافل الاجتماعى الوثيق ٠٠ تقوم العدالة الاجتماعية ، وتتحقق العدالة الانسانية ٠



مراجــع الكتــاب

أولا ـ المراجع العربيـة :

١ ـ ابن حزم : **الفصـل فى الملل والأهـواء والنحل** . القـاهرة : المطبعة الأدبية ، ١٣٢١ هـ .

٢ ـ ابن خلدون : **المقـدمة** . القـاهرة : دار التحـرير للطبـع والنشر ، ١٩٦٦

٣ ـ ابن سـينا : **رسـالة فى أحوال النفس** ، تحقيق أحمـد فؤاد الأهوانى . القاهرة : دار احياء الكتب العربية ، ١٩٥٢

٤ ـ ابن سـينا : **عيـون الحكمة** ، تحقيق عبـد الرحمن بدوى . القاهرة : المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية ، ١٩٦٣

٥ ـ ابن مسكويه : **تهذيب الأخـلاق** . القاهرة : ١٣٢٦ هـ .

٦ ـ أبو حامد الغزالى : **احيـاء علوم الدين** ـ ٤ أجزاء ـ القاهرة : دار احياء الكتب العربية ، ١٩٥٧

٧ ـ أبو نصر محمد الفارابى : **آراء أهل المدينة الفاضلة** ـ ط ٢ ـ القاهرة : مكتبة ومطبعة صبيح ، ١٩٤٨ .

٨ ـ البيرونى : **الآثار الباقية من القرون الخالية** ، تحقيـق ادوارد سـخاو . ليبزج ، ١٩٢٣ .

٩ ـ جون ديوى : **الطبيعة البشرية والسـلوك الانسانى** ، ترجمـة محمد لبيب النجيحى ، القـاهرة : الخانجى ، ١٩٦٣ .

١٠ ـ جون مونسما : **الله يتجلى فى عصر العلم** ، ترجمة الدمرداش عبد المجيد سرحان ، القاهرة : دار احياء الكتب العربية ، ١٩٦١ .

١١ ـ حسن الساعاتى : **علم الاجتماع القانونى** . القاهرة : مكتبـة الأنجلو المصرية ، ١٩٦٨ .

١٢ ـ خليل شرف الدين : **ابن خلدون** . بيروت : دار الهلال ، د.ت .

١٣ ـ دورين كارترايت وآخر : **تنظيم وقيادة الجماعات** ، ترجمة محمد طلعت عيسى ، القاهرة : دار ومطابع الشعب ، ١٩٦٥ .

١٤ – ر . ماكيفر وشارز بيج : **المجتمع** – جـ ١ – ترجمة على احمد عيسى ، القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٧ .

١٥ – زكريا البرى : **أصول الفقه الاسلامى : الأدلة الشرعية** – ط ٤ – القاهرة : دار النهضة العربية ، ١٩٧١ .

١٦ – زكى مبارك : **الأخلاق عند الغزالى** . القاهرة : دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ، ١٩٦٨ .

١٧ – زكى محمد اسماعيل : **نحو علم الاجتماع الاسلامى** . القاهرة : دار المطبوعات الجديدة ، ١٩٨١ .

١٨ – زيدان عبد الباقى : **وسائل وأساليب الاتصال فى المجالات الاجتماعيـة والتربوية والادارية والاعلامية** – ط ٢ – القـاهرة : مكتبـة النهضة المصرية ، ١٩٧٩ .

١٩ – زيدان عبد الباقى : **علم الاجتماع الاسلامى** . القاهرة : مطبعة السـعادة ، ١٩٨٤ .

٢٠ – زينب رضوان : **النظرية الاجتماعيـة فى الفكر الاسـلامى** . القاهرة : دار المعارف ، ١٩٨٢ .

٢١ – سعاد ابراهيم صالح : **علاقة الآباء بالأبنـــاء فى الشريعـــة الاسلامية** . جدة : تهامة ، ١٩٨١ .

٢٢ – سـعد عبد الرحمن : **أسـس القياس النفسى الاجتمـــاعى** . القاهرة : مكتبة القاهرة الحديثة ، ١٩٦٧ .

٢٣ – سلوى على سليم : **الاسلام والضبط الاجتماعى** . القاهـرة : مكتبة وهبة ، ١٩٨٥ .

٢٤ – سـناء الخولى : **مدخـل الى علم الاجتماع** . الاسـكندرية : دار المعرفة الجامعية ، ١٩٧٨ .

٢٥ – سـيد عبد الحميد مرسى : **الارشاد النفسى والتوجيه التربوى والمهنى** . القاهرة : الخانجى ، ١٩٧٦ .

٢٦ – سيد عبد الحميد مرسى : **العلوم السـلوكية فى مجال الادارة والانتاج** – ص ٢ – القاهرة : مكتبة وهبة ، ١٩٨٤ .

٢٧ – سيد عبد الحميد مرسى : **الدين المعاملة** . جـدة : ادارة تدريب التسـويق ، الخطوط الجوية العربية السعودية ، ١٩٨٥ .

٢٨ ـ سيد عبد الحميد مرسى : **الدين للحياة « سلسلة دراسات نفسية اسلامية (٥) »** • القاهرة : مكتبة وهبة ، ١٩٨٦ •

٢٩ ـ صلاح مصطفى الفوال : **المقدمة لعلم الاجتماع الاسلامى** • القاهرة : دار الفكر العربى ، ١٩٨٢ •

٣٠ ـ صوفى أبو طالب : **تطبيق الشريعة الاسلامية فى البلاد العربية** • القاهرة : دار النهضة العربية ، ١٩٧٥ •

٣١ ـ عبد الباسط محمد حسن : **مكانة المرأة فى التشريع الاسلامى** • مركز دراسات المرأة والتنمية بجامعة الأزهر ، الكتاب الأول ، يوليو ١٩٧٩

٣٢ ـ عبد الكريم العثمان : **الدراسات النفسية عند المسلمين والغزالى بوجه خاص** ـ ط ٢ ـ القاهرة : مكتبة وهبة ، ١٩٨١ •

٣٣ ـ عبد الله الخريجى : **علم الاجتماع العائلى مع دراسة العائلة فى الاسلام** • جدة : دار الشروق ، ١٩٨١ •

٣٤ ـ عبد الله الخريجى : **نظم المجتمع الاسلامى مع التطبيق على المجتمع العربى السعودى** • جـدة : رامتان ، ١٩٨٣ •

٣٥ ـ عبد الله الخريجى : **التغير الاجتماعى والثقافى** • جـدة : رامتان ، ١٩٨٣ •

٣٦ ـ عبد الله الخريجى ومحمد الجوهرى : **التنمية الاجتماعية** • جدة : رامتان ، ١٩٨٦ •

٣٧ ـ عز الدين بليق : **منهاج الصالحين من أحاديث وسنة خاتم الأنبياء والمرسلين** • بيروت : دار الفتح للطباعة والنشر ، ١٩٧٨ •

٣٨ ـ على عبد الرازق حلبى : **قضايا علم الاجتماع المعاصر** • القاهرة : دار المعرفة الجامعية ، ١٩٧٩ •

٣٩ ـ على عبد الواحد وافى : **ابن خلدون** • القاهرة : مكتبة نهضة مصر ، ١٩٥٥ •

٤٠ ـ على عبد الواحد وافى : **حقوق الانسان فى الاسلام** ـ ط ٤ ـ القاهرة : دار نهضة مصر ، ١٩٦٧ •

٤١ ـ كيث ديفيز : **السلوك الانسانى فى العمل** ، ترجمة سيد عبد الحميد مرسى ومحمد اسماعيل يوسف ، القاهرة : دار نهضة مصر للطباعة والنشر ، ١٩٧٤ •

٤٢ ـ لبيب السعيد : **الدراسة الأولى فى مناهج البحث الاجتماعى فى القرآن الكريم وعند علمائه ومفسريه** • جدة : دار عكاظ للطباعة والنشر ، ١٩٨٠ •

٤٣ ـ لويس كامل ملكية : **سيكولوجية الجماعات والقيادة** ـ ط ٤ ـ القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٧٠ •

٤٤ ـ محمد أبو زهرة : **المجتمع الانسانى فى ظل الاسلام** ـ ط ٢ ـ جدة : الدار السعودية للنشر ، ١٩٨١ •

٤٥ ـ محمد البهى : **منهج القرآن فى تطوير المجتمع** ـ ط ٢ ـ القاهرة : مكتبة وهبة ، ١٩٧٩ •

٤٦ ـ محمد الغزالى : **خلق المسلم** ـ ط ٨ ـ القاهرة : دار الكتب الحديثة ، ١٩٧٤ •

٤٧ ـ محمد عاطف غيث : **علم الاجتماع** • القاهرة : دار المعارف ، ١٩٦٣ •

٤٨ ـ محمد عاطف غيث : **دراسات فى علم الاجتماع التطبيقى** • الاسكندرية : دار الكتب الجامعية ، ١٩٧٢ •

٤٩ ـ محمد عثمان نجاتى : **القرآن وعلم النفس** • القاهرة : دار الشروق ، ١٩٨٢ •

٥٠ ـ محمد علوان : **مفهوم اسلامى جديد لعلم الاجتماع** ـ ج ١ : الجماعة ـ جدة : دار الشروق ، ١٩٨٣ •

٥١ ـ محمود شلتوت : **من توجيهات الاسلام** • دار العلم ، ١٩٦٤ •

٥٢ ـ محمود شلتوت : **الاسلام عقيدة وشريعة** ـ ط ٨ ـ القاهرة : دار الشروق ، ١٩٧٥ •

٥٣ ـ مصطفى الخشاب : **علم الاجتماع ومدارسه (الكتاب الأول)** • القاهرة : لجنة البيان العربى ، ١٩٥٨ •

٥٤ ـ مصطفى الخشاب : **علم الاجتماع ومدارسه (الكتاب الثانى)** • القاهرة : دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ، ١٩٦٧ •

٥٥ ـ نجيب اسكندر ابراهيم وآخرون : **الدراسة العلمية للسلوك الاجتماعى** • القاهرة : مؤسسة المطبوعات الحديثة ، ١٩٦٠ •

٥٦ ـ يوسف القرضاوى : **الايمان والحياة** ـ ط ٧ ـ القاهرة : مكتبة وهبة ، ١٩٧٠ •

ثانيا ـ المراجع الأجنبية :

1. Brim, O., and Wheelers, S.; **Socialiation After Childhood.** N. Y. : Wiley, 1966.

2. Burns, T.; «The Reference of Conduct in Small Groups : **Cliques and Cabals in Occupational Milieux. Human Relations**, 1955.

3. Cartwright, D., and Zander, A. (eds.); **Group Dynamics : Research and Theory** (rev. ed.) London : Tavistock, 1960.

4. Cooly, C.; **Social Process. Ill.** : Southern Illinois Univ. Press, 1966.

5. Durant, W.; **The Story of Philosophy.** N.Y. : Pocket Books. 1953.

6. Durkheim, E. (translated by Simpson, G.); **Division of Labor.** Glencoe, Ill. : Free Press, 1949.

7. Fromm, E ; **The Sane Society.** N.Y. : Rinehart, 1955.

8. Hommand, D.; **Cultural and Social Anthropology.** N.Y. : MacMillan, 1964

9. Johnson , H., **Sociology : A Systematic Introduction,** N.Y. : Horcourt, 1960.

10. Keles , A.; **What is Sociology.** New Delhi : Prentice-Hall 1971.

11. Larry, L., and Constantine, J.; «The Group Marriage», in Gordon, M.; **The Nuclear Family in Crisis : The Search for an Alternative.** N.Y. : Harper, 1972.

12. Leighton, A.; **The Governing of Men.** Princeton : Princeton Univ. Press, 1945.

13. Murdock, G.; **Social Structure.** N.Y. : MacMilian, 1949.

14. Ogburn, W.; **Technology and the Changing Family.** Boston : Houghton-Mifflin ,1955.

15. Panton, P.; **Communication Skills.** London : Hutchinson, 1980.

16. Parsons, T.; **The Social System.** Glencoe, Ill. : The Free Press. 1951.

17. Parsons, T; **and** Bales, R.; **The Family, Socialization, and Interaction Process.** Glencoe, Ill. : Free Press, 1955.

18. Roethlisberger, F., and Dickson, W.; **Management and the Worker.** Cambridge, Mass. : Harvard Univ. Press, 1939.

19. Ross, A.; **Social Control : A Survey of Fomdation of Control** N. J. : Prentice - Hall, 1965.

20. Sapir ,E.; «Language», **in Encyclopedia of the Social Science.** N.Y. : MacMillan, 1935, IX, p. 160.

21. Schachter, S.; **The Psychology of Affiliation** Stanford, Calif . : Stanford Univ. Press 1959.

22. Schein , E.; **Organizational Psychology.** Englewood Cliffs, N. Y. MacMillan , 1959.

23. Seashore, S.; **Group Cohesiveness in the Industrial Work Group.** Ann Arbor, Mich. : Instit. for Social Research, 1954.

24. Sahchter, S., and Back, K.; **Social Pressures in Informal Groups.** N Y. : Harper, 1950.

25. Shaffer, L. ,and Shoben, E. Jr.; **The Psychology of Adjustment** (2nd ed.). Boston : Houghton-Mifflin, 1956.

26. Weber, M.; **Theory of Social and Economic Organization.** N. Y. : Oxford Univ. Press, 1947.

* * *

محتويات الكتاب

الصفحة

الفصل الثالث : الفرد المسلم
(١٠٥ ـ ١٤٩)

الفصل الرابع : الجماعة المسلمة
(١٥٠ ـ ٢٠٠)

الصفحة

الفصل الخامس : المجتمع المسلم
(٢٠١ ـ ٢٤٥)

الفصل السادس : العمليات الاجتماعية
(٢٤٦ ـ ٢٩٤)

الفصل السابع : خاتمة
(٢٩٥ ـ ٣١٤)

✻ ✻ ✻

رقم الايداع بدار الكتب ٨٩/٢٨٢٥
الترقيم الدولى ١ - ١٧٣ - ٣٠٧ - ٩٧٧

